مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION

من فكر السجون وأدبه

الإصـــدار الثامن عشر

رواية

بلاط الرُّعيان

أحمد إبراهيم بسيسي

سجن النقب

رواية

بلاط الرُّعيان

الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (18)

رواية: بلاط الرُّعيان

المؤلف: الأسير المجاهد/ أحمد إبراهيم بسيسي

الناشر: مؤسسة مهجة القدس

غزة - فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: محرم 1443هـ
أغسطس - آب 2021م

رقم الإيداع: 1573/ 2021

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾

صدق الله العظيم [الرعد: 12]

1

قالـت: صبـاح الخـير، ثـم وقفـت أمامـه مؤدبـة. طفلـةٌ في السادسـة مـن العمـر كأنهـا إشراقـة الصُّبـح أو شـحامة الغنـم.

لم يُجِب، وبَقِـيَ ينفـخ عـلى رغيفـه الصغـير تـارة ويرمقهـا أخـرى بنظـرة شـقيَّة، وبعفويـة طفـل في العـاشرة أشركهـا في خبـزه ومـضى، نظـر أحمـد خلفـه، كانـت مـا تـزال تمسـك بقطعـة الخبـز وقـد اسـتدارت مكانهـا، نادتهـا أمهـا: منى، ماما فـوتي جـوا، سـيعاودني في المسـاء ومعـه قطيـع مـن الغنـم وسـيأكل مـا وجد مـن طعـام بنهـم المتـأني، وسـيخبره إخوانـه الصغـار بـكل مـا حـدث في غيابـه عنهـم، فقـد اعتـاد أن يـصرخ عليهـم حتـى ينتظمـوا القـول أو يسـكتهم.

على بُعد أمتار منه خلف سور شاهق يختبئ بيت فاره اعتاد أهل البلدة تسميته بالقصر، كانت منى تجلس على أريكة ذهبية اللون تشاهد التلفاز قبالتها، جلسَ أبوها يدخن الأرجيلة وقد بدا ممتلئ الجسم مشيب الرأس قليلًا، وبنصف لحية وشارب طويل، يُعرف في البلد بـ«زيدان» على اسم أبيه أو بالإقطاع الأخير عند البعض.

لم يعد يقتطع أرضًا بل عقارًا وثلاثة محلات مؤجرة في مدينة نابلس، وتبقى نابلس ملاذه الاجتماعي الوحيد، فلا شيء يربطه بالبلدة عدا بيت أم جميل والتي على الرغم من أن زوجها حيٌّ يُرزق إلا أن شُهرتها كـ «دَايَةٍ» ومجبِّرة وراقية ومفسرة أحلام غلبت على شهرة زوجها حتى إن هذه العلاقة لم يعد لها داع عند زيدان إلا ما ندر.

فكلما اختبأ بيت زيدان وراء سورٍ شاهق اختبأت كذلك الإقطاعية، لكنها لم تختفِ رغم جميع الهزائم التي مُنِي بها الإقطاع في فلسطين بداية بدخول القوات العثمانية عرّابة إلى وقعة الخروبة التي اعتبرت آخر حروب القيسية واليمنية في فلسطين، وإلى احتلال فلسطين عام 1948م غير أن الإقطاع بقيَّ القوة الأكبر بين شرائح المجتمع الفلسطيني؛ وهذا يعود لسبب واحد ووحيد وهو ضعف باقي الطبقات الأخرى.

حافظ ساكنو هذا القصر منذ أجيال خلت على مسافة محددة بينهم وبين سكان البلدة، ولم يُعتبر زواج زيدان من فريال (أم منى) خرقًا، ففريال كانت مجرد فَرْق حساب سدّده أبوها لوالد زيدان، وعلى الرغم من جمالها الذي فاق الوصفَ وتَعَلُّقِ زيدان بها، تعلقه هذا لم يتخطى يومًا

تعلقه بمقتنياته الثمينة، كما لم تحظ فريال يومًا بلقب سيدة القصر ولا حتى سيدة عادية، فهي التي اعتادت أن تسمى دار زيدان دار سيدي دون أية صفة قَرابة تُجبرها وتُجبر أمها وأخواتها على هذا القول أو على تقديم تلك الأعمال والخدمات التي لعائلة زيدان.

وفي يوم من أيام تشرين، أخبر حمدان _والد فريال_ السيدَ الكبير بنيته اللحاق بأبناء عمه شرق الأردن، ولم تكن لدى السيد الكبير أية مشكلة بذلك وسمح له بالسفر، لكن زيدان عندما علم بالأمر جَن جنونه وطلب من أبيه بعد جدل منحه فريال طالبًا الزواج منها، وهي التي كانت في متناول يده على الدوام، كان زيدان كلما رفض له السيد الكبير طلبًا هدَّده بالذهاب لبيروت عند أعمامه الذين باعوا أرضهم للصندوق القومي اليهودي وانصرفوا، لم يعدم السيد الكبير وسائل الإجبار لمن هم مثل حمدان وتم لزيدان ما أراد.

تعلو سماء البلدة رائحة القمح الأخضر المحروق (الفريكة)، وتمتد أعمدة دخانه الأبيض عشرات الأمتار في كل اتجاه بينما كان أحمد وعمر وإبراهيم وإسماعيل وصالح وفاطمة وجميلة وأطفال آخرون يلهون حول شجرة تين ضخمة بحثًا عن ثمارها البواقي، وكان الأولاد جميعهم حفاة وقد أخفت أوراقها أجسادهم النحيلة الرشيقة التي لم تكف عن المشاجرة وكأنهم مجموعة من الطير علقت داخل الأغصان الكثيفة لتنتهي هذه المشاجرة بقفزة أبداها أحمد مثل بطل جمباز ليرى نصب عينيه مباشرة مُنى التي تفاجأ بها وتفاجأت به، لم تهمس ببنت شفة واكتفت بالنظر كأرنبة صغيرة، خاف إن مد يده ليربت عليها أن تهرب، انتهى الصمت بحديث عمر

من خلفه: اطردها هذه بنت زيدان بلاش أبوها يلقاها معنا ويضربنا.

لم تخفِ جميلة وفاطمة وباقي البنات إعجابهن بشعر منى الأشقر القصير الناعم.

فاطمة: شو اسمك؟

أحمد: أنا بعرف شو اسمها تعالي.

لم يكن أحد يعلم بخروج منى من القصر، ولم يكن هنالك ما يُنذر بتغيير ما داخل القصر، شهدت منى مع المجموعة كل ما هو كفر بنمط حياة والديها، فبعد ما أكلت معهم التين مسح الأولاد أيديهم بثيابهم، ولعبوا معًا (بيت بيوت)، ثم رفعها أحمد بين يديه ليريها عشًا لعصفورة بلهاء وضعت فراخها بمقربة من فم أحمد عديم الرحمة.

عادت منى للقصر، لكنها عادت مرات أخرى، لم تكن المجموعة غايتها بل أحمد هذا المتخلف عنها ولا يشبهها بشيء فأحبت به كل ما ليس بها، ففي يوم من أيام نيسان الوسيم بزهوره وطيوره وجدول الماء الكسول المتعرج البعيد المترامي أمام ناظر المجموعة من علو أخذ الجميع قراره بالذهاب لطاحونة القمح المهجورة.

كانت أذكار تتلى في المسجد القريب أوحت لزيدان أن اليوم هو الجمعة، بدا مُجَعْلَكَ الوجه غير راغب في الكلام للحظات، مدَّ بصره نحو فريال التي أخذت تحضر له القهوة قبالته قبل أن يأخذ مجلسه بين أختيه

صافينـاز الكبـيرة ونادية الصغـيرة، ناداهـا بصـوت أجـش: كـوني أنـت وابنتـك جاهزتـين بعـد الظهـر (معزومـين).

جعـل الخـبر فريـال بصدمـة أنستها القهـوة ومنـى عـلى حـد سـواء، فهـي تعلـم أن العزومـة معناهـا قلـة القيمـة بـين بنـات العائلـة اللـواتي يجـدن إهانـة منهـن بمثـل فريـال، فيكفـي أن تذكـر نابلـس مرتـين أمـام فريـال لجعلهـا مرتبكة وحزينـة في أغلـب الأحيـان.

شـؤم هـذا الخـبر أنسـى فريـال ومنـى التـي لطالمـا حـاول الأولاد منعهـا مـن الذهـاب معهـم ولم يقـدم أفـراد المجموعـة عـذرًا أو كذبًـا إلا وحاولـوا مـن خلالـه ثنـي منـى عـن الذهـاب معهـم، بَيْـدَ أنهـا لم تتكلـم قـط وبقيـت دامعـة العينـين تتجـه عـلى مهـل كلـما حاولـوا ثنيهـا.

سـار أحمـد باتجـاه شـجرة الرمـان التـي عليهـا العـش ولـوَّح بيـده مـن بعيـد (يـلَّا)، بـدت الطاحونـة مـن بعيـد مزدانـة بأزهـار نيسـان وبريـق الجـدول، ومـا لبِثَـت أن ازدادت جمـالًا بزوارهـا الصغـار.

تقـدم باقـي الأولاد نحـو أحمـد فتحدثـوا إليـه بحديـث حـرَّك فضـول منـى المتسـكّع، وهـي لا تعلـم أنهـا سـترى مـا لا تسـتطيع احتمالـه، ففـي الأيـام التـي مضـت اعتـادت منـى النظـر في العـش وشـاهدت الفـراخ تنمـو وتُكسـى وتتلـون، وكلـما كانـت تحـاول لمـس الفـراخ أو الحديـث كان أحمـد الـذي يقـف خلفهـا مبـاشرة يضـع يـده عـلى فمهـا ويهمـس (بعديـن بتشـنيه).

- شو يعني بتشنيه؟

أحمد: بتهجر العش وهذا أمر معتاد لدى جميع الحيوانات والطيور البرية؛ لأن غريزة البقاء لديها أقوى من غريزة الأمومة وهي عادة محمودة في بيئة متوحشة.

فتحت أم جميل الباب، ثم بادرت بالقول أهلًا وسهلًا.

زيدان: زاد فضلك، فش فيها فوتة ودّيلنا ورا هالبنت أَخّرَتنا عن مشوارنا.

أم جميل: والله من زمان ما وجوجت تلاي.

وسرعان ما اعتلاه الغضب واستشاط أكثر عندما علم بمكان وجودها.

عبر أحمد الجدول وهو يحمل منى على ظهره والتي لم تكف عن سؤاله ماذا ستفعل بالفراخ ولم يكن يجيبها، وبعد أن نزلت منى من على ظهر أحمد وكأنها فرخ من الأفراخ تحرك يدها بيد أحمد، شو بدكم تعملوا بالعصفورات ليش ولعتوا النار؟

جميلة: بدهم يطبخوهن.

وبعد أن بكت منى وبللت معطف أحمد بدموعها ماسكة خصره بذراعيها طلب أحمد من صالح وإبراهيم إبعادها عنه.

وعلى ناظريها وناظر الأم المثكولة التي لحقت بهم طوال الطريق، قطع أحمد رؤوس الفراخ واحدًا تلو الآخر ثم شُكت الفراخ بعد تنظيفها

بعـود زيتـون أخـضر ووضعـت عـلى النـار.

وبـدا مـن الـدم عـلى فـم أحمـد ورفاقـه أن الفـراخ لم تنضـج، وكان طعمهـا سيكون أفضـل لـو وُجـد الملح.

منـى: أنـا بكرهـك، بحبكـش، ليـش عملـت هيـك، ممكـن تقـلي ليـش عملـت هيـك؟

أحمـد: _وبعـد أن رفـع زنـده أمـام ناظريهـا _ لازم آكل لحـم علشـان أصـير قـوي.

مـا كان صادمًـا لمنـى كان عاديًـا لـدى فاطمـة وجميلـة؛ لأنهـا شـاهدتا مـا يرقـى لحـد الجرائـم مـن هـؤلاء الفتيـة، فقـد أعدمـوا ذات مـرة عـلى الملأ خمسـة فـراخ خنقًـا ومـات السـادس لوحـده بعـد أن انتفـخ بطنـه مـن شـدة الخـوف، وأوقفـوا سـائد عـلى بعـد أمتـار منهـم وأمطـروه بعيـدان القصـب التـي شـدوها بأقواسـهم عقابًـا لـه عـلى وشـايته بهـم للمختـار بعـد أن تسـببوا بحريـق كاد أن يـؤدي بحقـول القمـح لـولا لطـف الله.

مشـى أحمـد نحـو منـى مالئًـا كفيـه مـن مـاء الجـدول آمـرًا إياهـا: اشـربي، وبعـد أن شربـت نظـرت إليـه بوجنتيهـا المحمرتـين فمسـحهما أحمـد بيديـه لينقطـع نشـيجها للحظـة، ثـم أردف قائـلًا لمـن حولـه: «بـدي منكـم تلقطـولي ضمـات ورد مـن هـذا قـد مـا بتقـدروا»، وأشـار للحنَّـون الأصفـر والأقحـوان.

كثـورٍ هائـج تحـدَّر زيـدان مـن أعـلى القريـة مهـرولًا للطاحونـة الخربـة ووراءه كانـت أم جميـل تحـاول ثنيـه.

زيدان يتذكر: في الصيف الفائت التقى زيدان وراجي بأحمد عندما كان بجولة صيد، وبقي زيدان يذكر أحمد ذو العيون القوية، أعطى زيدان يومها أحمد شنّارة لقاء ملئه الماء لهم من البئر القريبة إلا أن أمه رفضت الهدية وألقت بالشنارة للكلب بعد أن شدت أذن أحمد بقوة: «ما سألتش حالك من وين جابوا البواريد؟ وشو بسوي زيدان مع راجي المخزي؟».

كان راجي هذا ضابط شرطة عرف بحقارته اللامتناهية.

أم جميل: حلفتك بالغوالي وقف بدي أقول لك.

زيدان: قولي.

أم جميل: شو مالك منجن، شو بدهم يساووها إذا لعبوا معها، وبعدين هم إلي رحولها ولا هي اللي أجت عليهم.

زيدان: شو كبّتَ هالشر، حلي عني ارجعي _مشيرًا بيده الضخمة_.

جميلة: خذ هذا كل الورد اللّي لقطته.

ووضع باقي الأولاد ما حملوا من زهور عدا خالد الذي أخفى وراء ظهره شيئًا.

خالد: احزروا شو لقيت؟

الأولاد: شو لقيت؟

خالد: _مُخرجًا يده بيضاء متلألئة_ لقيت نرجس.

صرخ الأطفال جميعهم فرحًا.

أحمد: أنت أبو النرجس.

وكرر الجميع اللقب بفرح وسرور.

طلب أحمد من منى أن تجلس على حجر مرتفع اختاره لها بعد أن طلبت من الجميع الابتعاد وتركه وإياها والزهور.

راضية: الحقي زيدان دب ورا الأولاد بدَّو يضربهم.

سليمة: ليش بده يضربهم ابن المخزي؟

راضية: ميخذين بنتو معهم على السراحة.

سليمة: والله ما راح غير أحمد هيك قلبي بقولّي.

راضية ما عاد في قلبها متسع ولم يتركها لحظة منذ أعوام الوجع، فهي منذ عشرة أعوام مضت وحيدة مع ابنها فادي وهو عضو أساسي في مجموعة الأولاد التي تلهو في هذه الأثناء مع أحمد، وزوجها الذي تركها وخرج للنضال في لبنان، بحسب رأيه الطريق للقدس تمر في بيروت، واليوم هو في تونس، غادر لبنان بعد الاجتياح وقد عاش في لبنان سنوات ولم يطلق رصاصة واحدة على الإسرائيليين ولم يلتقِ بمن فعل هذا وجهًا لوجه.

في أحد الأيام زار أبو عمار معسكرهم في تونس وشرب معهم القهوة، جميع الحضور ردد عبارة: «في بيروت بنشربها» بعد أن أعادوا الفارغ من الفناجين، ما دفع أبو عمار للإسراع بتصحيح العبارة على عجل: «بالقدس

إن شاء الله».

لم تذكر راضية لفادي أباه بِشَرٍ أو بخيرٍ يومًا، فهي تخوض معركة للحفاظ عليه وعلى نفسها ولو شهدها زوجها لعلم أنه مناضل من ورق.

«أُوه» فاطمة وجميلة والأولاد ردَّدوا عندما طلب أحمد من الجميع الاقتراب بعد أن أمضى وقتًا طويلًا منفردًا بمنى والزهور، ثم ظهرت بعده منى محلاَّة بالزهور التي ثبتت على جميع أجزاء جسدها باستثناء وجهها، فقد قام أحمد بتثبيت الزهور على فستانها الصوفي غازلًا الأقحوان والحنون بمخرزه المصنوع من عودتين ومسمار.

أما ما عكس الجمال بصورته الإغريقية إكليل الأقحوان الذي رصه أحمد بالنرجس ليحل غبار الزهور مكان حمرة في خدَّيها فبدت وكأنها أيقونة من أيقونات الديانات القديمة ومن حولها تربع المريدون بعد أن أخرجوا ما في زوادتهم من خبز مُدهّن لا أكثر، ينظرون لأحمد الذي أمسك يد منى يحاول إنزالها عن الحجر فما كان منها إلا أن ألقت بنفسها بحضنه حالها حال كل بنات الدلال عند مثل هكذا موقف.

فبرم بها أحمد وهما يضحكان والسهل والجبل والزهور من حولهما كلها رقصت معهما، لكن أمير السهول وحائل الزهور سقط على وجهه، وامتلأ فمه بالتراب بعد ان أرداه زيدان بكفه غير الآدمية.

2

كانـت دقـات السـاعة عـبر المذيـاع تـشي أن نـشرة الأخبار سـتبدأ في وقت انهمـك فيـه أحمـد بقـراءة كتـاب كُتِـب عـلى غلافـه "الوحـدة العربيـة"، بـدأ المذيع النـشرة بقولـه: بـلاغ هـام لكافـة سـكان المناطـق: «صرَّح الناطـق العسـكري لجيـش الدفـاع الإسرائيـلي أنـه كل مـن أراد أن يسـلم بيتـه مـن القصـف وينجـو بحياتـه فعليـه أن يرفـع رايـة بيضـاء عـلى سـطح منزلـه وإلا قصـف منزلـه»، انتهـت النـشرة خاتمًـا إياهـا بصـوت يشـبه صـوت الوحـش الشريـر كـما في الرسـوم المتحركـة، ثـم فجـأة قفـز أحمـد مـن مكانـه وخبـأ الكتـاب، وبحـث مسرعًـا في الخزانـة عـن قماشـة بيضـاء فلـم يجـد وأخـذ يبحـث في كل مـكان فلـم يجـد، مـاذا أفعـل؟ قـال أحمـد: يـا الله سـيقصف البيـت، ثـم نظـر إلى سروالـه

الأبيض الذي يلبسه، لا لا السروال لا رح أصير مضحكة لأهل البلد، سامع ضحكهم عليَّ من هسا، يا روح ما بعدك روح، ها.

ينزع أحمد سرواله ثم يصعد للسطح ويعلقه على عصا المكنسة ثم يعاود القراءة لكتابه شاعرًا بالأمان، وفجأة يسمع صوت سيارة للشرطة قرب المنزل، ثم طرقًا قويًا على الباب، يفتح الباب ليدخل شرطي ضخم حليق الرأس، وما لبث أن بادر بالسؤال: أنت سعيد أسعد سعيد؟ نعم يا سيدي مع إني لا أنا ولا أبوي ولا سيدي كنا سعداء، كان الشرطي يسأله وهو يمسك بالكتاب الذي نسيه سعيد على الطاولة.

الشرطي: ولا إنتا شو مسوي؟

أسعد: صدقني يا سيدي هذا الكتاب مش إلي.

هذا لمجدي بن أبو خليل الفران شكله شاف سيارة الشرطة على رأس الشارع زقوا من تحت الباب.

ينظر الشرطي لحجم الكتاب الضخم والفتحة الصغيرة جدًا تحت الباب.

الشرطي: مش علشان الكتاب أنا هون أصلًا، إحنا بدنا إياكم تقرؤوا تفاهات مثل هيك.

أسعد: علشان إيش يا سيدي؟

الشرطي: علشان العلم اللي رافعو فوق البيت، ولك عمى في قلبك

انـت بـدك تتحـدى دولـة إسرائيـل، صدقنـي يـا سـيدي مـا قصـدي أهـين الدولـة بـس دورت عـلى علـم أبيـض مـا لقيـت، يعنـي يـا سـيدي مـش انتـو قلتـو راح تقصفـوا دار كل واحـد مـا برفـع علـم أبيـض شـو أسـوي هـا، عـلي الحـق، ولـك يـا حمـار هـذا نـداء موجـه لسـكان المناطـق في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة، أنـت مواطـن يسـكن في أراضي ٤٨، ليـش رافـع العلـم الأبيـض.

يصفـق الجمهـور لأحمـد تصفيقًـا حـارًا بعـد انتهـاء المشـهد الأخـير مـن المسرحيـة.

يتقـدم رجـل منكـوش الـرأس أصلـع قليـلًا مـن أحمـد ويهـز رأسـه يمينًـا ويسـارًا، وسرعـان مـا نـاداه أحدهـم مـن خلفـه: أسـتاذ عبـد الحافـظ حـضر ضيـوف.

مـضى زمـن عـلى الهجـوم الضـاري الـذي شـنه زيـدان عـلى أحمـد، وتغـير خلالـه الكثـير إن لم يكـن كل شيء قـد تغـير.

فبعـد شـهرين مـن حادثـة ضرب زيـدان لأحمـد اسـتطاع أحمـد تحريـض فـادي وإبراهيـم للانتقـام مـن زيـدان، وقـد وجـد صعوبـة كبـيرة في ذلـك؛ لأن الأولاد جميعهـم ألقـوا عـلى أحمـد بالمسـؤولية؛ لأنـه سـمح لمنـى بالانضـمام إلى المجموعـة غـير أنـه عندمـا أخبرهـم أن زيـدان عميـل اسـتطاع اسـتمالتهم ولـو قليـلًا، وبمكـر تحـدث مـع سـليمة عـن حادثـة الشـنَّارة التـي أحضرهـا للبيـت مـع زيـدان وراجـي فـما كان مـن سـليمة إلا أن انفجـرت بالشـتم والـكلام وتحدثـت عـن السـلاح وعـن راجـي.

لحظة اعتلت النيران سيارة زيدان، تعارك فادي وإبراهيم على مرأى من المارة بينما مازح أحمد بائع البقالة وصرخ إسماعيل: هناك رجل آخر انظروا سكب البنزين، انظروا دخل في كرم الزيتون، وأما شادي فبقي ينظر باهتمام، وبدا الانتقام عملًا متقنًا فجميع الأولاد حاضرون أمام العامة ولم ينتبه أحد لأحمد الذي استبق هذا المشهد التمثيلي وقام بوضع فتيل مشتعل على شكل قرص لطرد البعوض (البنكال) ليعمل عمل الفتيل المتأني حتى إذا ما وصل نهايته لامس البنزين الذي سكب منه أحمد وكدَّس تحت سيارة زيدان التي اعتاد ركنها أمام بيت راجي مساء كل جمعة، ما لم يكن يعرفه الأولاد أن خطتهم مكشوفة فقد دأب العديد من الثوار بعد الاحتلال الكامل لفلسطين لمثل هكذا أساليب، وباتت هذه الأساليب مكشوفة ويكفي لتسأل أول من شاهد الحادثة أو أشار إليها من بعيد لتعلم أنه هو من قام بهذا الفعل.

وقد أحضر الأستاذ عبد الحافظ محامية يهودية تدعى أميرة عرفت بيساريتها المتطرفة واستطاعت الإفراج عن الأولاد بكفالة، ومن يومها يقوم الأستاذ عبد الحافظ بتدريب وتعليم الأولاد دروسًا في المسرح والتمثيل فهو أستاذ تاريخ ويحلو له تعريف نفسه بأستاذ تاريخ وفنون جميلة، ففي أيام العطل وبعد فترة الدوام الرسمي، يجتمع له الأولاد في ساحة المدرسة للتدَّرب على تمثيل مسرحيات كتبها كتاب محليون مثل: ميخائل نعيمة وإميل حبيبي.

وجد أحمد بعد الإفراج عنه أن سليمة قد باعت الغنم لتسديد الغرامة المالية عنه وعن صديقه فادي الذي لم يكن موجودًا أصلًا معهم، وسعى كذلك لسليمة بوظيفة آذنة مدرسة، فكانت سليمة بذلك مع أحمد

وإخوانـه في المدرسـة والبيـت.

كان عبـد الحافـظ يحنـو عـلى أسرة أحمـد بـداعٍ بعيـد كل البعـد عـن العطـف والشـفقة، فـعبد الحافـظ كان بمثابـة مـؤرخ محـلي عَـرَفَ والـد أحمـد وتاريخـه المـشرف فلـم يعـرف تاريـخ فلسـطين الحديـث رجـلًا قاتـل بصـدق قتـال رشـدي العـلي مـن أجـل فلسـطين، فبعـد عودتـه مـن السـفربرلك[1] والـذي ذهـب إليـه دون غـيره طواعيـة بعـد أن صـدق دعـوة البيـت العـالي للجهـاد وضرورة قتـال الكفـار، وسرعـان مـا انخـرط بعـد عودتـه بالقتـال ضـد المـشروع الصهيـوني، وكان مـن الوحيديـن مـن معركـة قاقـون الأخـيرة، فبعـد إن انتقلـت قاقـون مـن يـدٍ إلى يـدٍ أكثـر مـن مـرة كان يومهـا الأخـير، ضحـى يوم ٤ يونيـو (حزيـران) ١٩٤٨م؛ عندمـا هاجمتهـا العصابـات الصهيونيـة بأعـداد كبـيرة واسـتمات الخصـمان عـلى خطـوط المواجهـة الأولى لمـا أصبـح لقاقـون مـن رمزيـة، وقاتلـوا بـلا توقـف واقتربـوا مـن خنـادق بعضهـم البعـض حتـى تراشـقوا بالقنابـل اليدويـة مـن مسـافة مـتر ومـتر، وتطاحنـوا بالحـراب وكان كلـما سـمع سـليمة (أم أحمـد) تتحـدث عـن خيانـة العـرب يكتفـي بالقـول: مش هيـك يـا سـليمة النـاس قاتلـت.

سليمة: شو قاتلت؟

(1) بالتركيـة: **Seferberlik**، وتعنـي: النفـير العـام والتأهـب للحـرب. وهـو فرمان أصدره السـلطان العثـماني محمـد رشـاد بتاريـخ الثالـث مـن آب/ أغسـطس 1914م، يعتـبر كل شـخص مـن مواليـد مـا بـين (1869 – 1882) في أراضي الدولـة العثمانيـة مـن المسـلمين وغـير المسـلمين، مطلوبًـا للخدمـة العسـكرية، ويجـب عليهـم الالتحـاق بشـعب تجنيدهـم مـن تلقـاء أنفسـهم دون انتظارهـم التبليغـات، ويحـق للمواطنـين العثمانيـين غـير المسـلمين دفـع (30 لـيرة ذهبيـة) بـدلًا، مقابـل الإعفـاء مـن الخدمـة العسـكرية. فهـو دعـوة إلى الرجـال الذيـن بلغـت أعمارهـم بـين (15 حتـى 45) سـنة مـن رعايـا الدولـة العثمانيـة، ومـن بينهـم رعايـا البـلاد العربيـة إلى الالتحـاق بالخدمـة العسـكرية الإجباريـة، وأطلـق البغداديـون عليهـا أيـام الضيـم والهلاك.

رشـدي العـلي: والله في نـاس قاتلـت قتـال المجانـين، بـس بجـوز إمكانياتهـم مـش هلكـدّي يـا سـليمة وأجيـت بذيـالى أكثـر مـن مـرة مـا شـفتش غـير راعـي ولا حـراث أو كندرجـي، وهـدولاك خايضـين حـروب ومعهـم سـلاح ليـوم السـلاح.

أمـا قصـة سـليمة مـع رشـدي العـلي فهـي صدفـة مـن أحـلى صـدف الحيـاة، فبعـد أن جـاوز رشـدي العـلي السـتين ولم يتـزوج، وفي إحـدى أيـام ترحالـه كثائرٍ دخـل هـو وصديـق لـه أحـد البيـوت وسـمعوا حديثًـا فهـم منـه هـو وصديقـه أن الرجـل محـرج، فهـو يسـعى جاهـدًا لتدَّبُر أمـر العشـاء وواجـب الضيافـة، فـما كان مـن صديـق رشـدي العـلي إلا أن غمـزه: ضـع المـال تحـت الوسـادة ففعـل بقصـد المسـاعدة، في الصبـاح عندمـا وقفـوا عـلى بـاب البيـت لـوداع الرجـل صاحـب المنـزل خرجـت سـليمة برزمـة المـال وألقـت بهـا عـلى أبيهـا قائلـة: واحـد مـن ضيوفـك ضيَّـع مالـه.

قبـل هـذا اليـوم كان رشـدي العـلي لم يسـبق لـه أن فكـرَّ بالـزواج وعـلى بـاب المنـزل تغـير هـذا الوضـع، بعـد أن تقـدم للـزواج منهـا وتـم لـه مـا أراد.

دام زواج سـليمة مـن رشـدي العـلي سـنوات أنجبـت منـه خمسـة أبنـاء ذكـور، وعكـف آخـر أيامـه عـلى إتمـام صفقـة لـشراء طاحونـة قمـح كبـيرة، كـما تعثـرت أيامـه ومشـاريعه الأخـيرة أكثـر مـن مـرة لاسـتدعائه لمركـز التحقيـق الإسرائيـلي بحجـة امتلاكـه لسـلاح، وفي آخـر مـرة اسـتدعوه فيهـا اعتـدوا عليـه وكسـروا ضلعـين مـن أضلاعـه وسـاءت حالتـه أكثـر، ففـي ليلـة مـن ليـالي آذار الصاخبـة بالرعـود بـادر بالحديـث مـع سـليمة وعـلى غـير عادتـه: بتعـرفي يـا

سليمة بكل عمري ما نمت ليلة وأنا حامل همَّ حالي، بقيت بدي بس أشوف حال المسلمين أحسن، أنا يا سليمة نسيت أغلب الناس اللي رافقوني وماتوا جنبي أو بين إيديَّ، منهم اللي مات وهو جعان، ومنهم وهو بردان، ومنهم اللي كان بدو يشوف وجه حدا من أهله وما شاف حدا غيري، أنا يا سليمة نسيت أسماء كل هادي الناس بس وجههم ساكن بعظمي مش قادر أنساه، مش قادر أنسى دموعهم في محطة القطار (المسعودية) وهُّمى بيقولوا عدس سخن غلي ساعة الهجير، قبل الرحيل بقطارات أولاد عثمان، منهم الِّلي أكل وأغرق فمه، ومنهم الَّلي وصل القناة جَعان، وهيك ما صفِّينا صفوف، وبدينا نقطع القناة ولقينا اشي حامل سيف واشي بارودة مصدية، ضربونا بقنابل بقولولها شراب الموت، بقولولها هيك؛ لأنها بتسلخ اللحم عن العظم، ولما انكتب لي عمر جديد وما قتلتني قنابل الإنجليز، كان لازم أقطع القناة وأنا ماشي فوق جثث ناس هزت دموعي ودموعها من العدس السخن والفراق، فرقة الوطن والحبايب _ويضحك_.

عبد الحافظ: لكن لم يأبه بهؤلاء حتى عندما يزور المكان لم يجد ما يذَّكرنا بهم، وإن وجدنا سنجد شيئًا سخيفًا أبعد ما يكون عن ذكرى مجدهم، وهذه قصة المستضعفين والجبابرة على مر العصور، فبالقرب من ذاك المكان الذي ذكره رشدي العلي وليس بعيدًا كثيرًا توجد الأهرامات ويوجد مدفن تحت كومة من الحجارة، يوم زار أحد مفكري الأمة ذاك المكان سأل عن هذه الكومة فردَّ عليه المرشد السياحي دعك منها، شيءٌ ليس ذا شأنٍ، فأصرَّ عليه، فأجابه أن هذا المكان عبارة عن مقبرة للعمال

الذين بنوا الأهرامات ففي كل يوم كان يموت مجموعة من العمال والبنائين وكان فرعون يدفنهم بالقرب من قبره الضخم؛ لاستعبادهم في الحياة الثانية، فلا عجب من هذا يا رشدي العلي فجميعنا يبني للفرعون قبرًا وقصرًا أو يخوض له حربًا، ثم يمضي ولا يُذكر.

رشدي العلي: أنا يا سليمة ظَلَمِت؟

سليمة: طيب اسكت أنت ظلمت! والله بحياتك ما زعلت حدا.

لو شفتني يا سليمة يوم مركت من السهل بين عتيل وبئر السكة، وكانت الدنيا الصبح وكان هناك ختيار وختيارة بقلعوا سمسم، وقفوا وإجوا علينا، لما واحد من الثوار قال خلينا نميل نشرب مي ونريح بالخش شوي، لما ميَّلنا سلمت على الختيار وقعوا اثنينتهم على الأرض، وما وقفوا عياط لحد ما قلتلهم: أنا رايح على الدَّار معكم، ثمانية سنوات ما كانوا يعرفوا عني عايش ولا ميت، كانوا أمي وأبوي يا سليمة وكنت داخل من جنبهم، هذا هو ظلمي اللي ظلمته، ما حدش كان يعرف فيه، بدي منك يا سليمة طلب قبل ما تروحي تنامي.

سليمة: أطلب والله لو طلبت روحي لأعطيك إياها.

رشدي: بدي منك يا سليمة تلفي وجهي قبالة عتيل قبل ما تروحي تنامي.

وفي الصباح كانت لحية رشدي العلي مبتلة بدموعه وبدا جليًا لسليمة أنه بكى كثيرًا قبل أن يفارق الحياة.

هكـذا رحـل رشـدي، ويرحـل منـذ مئـات السـنين ملايـين المظلومـين بـلا صخـب ولا مواكـب أو قبـور فارهـة، وبـلا أي مسـاحة لهـم في ذاكـرة العامـة، فمـن يتعاطـف منـا مـع بُنـاة الأهرامـات أو مـع القرابـين الآدميـة في غابـات الأنـكا؟! ومـن يتعاطـف مـع مـن ماتـوا وهـم يحفـرون قنـاة السـويس أو مـع مـن ماتـوا عـلى ضفافهـا مـن رفـاق رشـدي العـلي؟!

أي إنسـان هـو الـذي يذكـر آلام أمـم عاشـت معـه وأمـم قبلـه وينسـى نفسـه وأهلـه سـواك يـا رشـدي العـلي؟! هكـذا فكـر وتمتـم عبـد الحافـظ عنـد وداع رشـدي العـلي.

دفعـت أحمـد في سـنواته الأخـيرة عـدة عوامـل، أخوالـه الذيـن سـعوا جاهديـن لإبعـاده عـن درب أبيـه بـل وتحريضـه عـلى أبيـه بعـد موتـه، فبعـد مـوت أبيـه حضر رجـل يحمـل ورقـة كُتـب عليهـا بخـط اليـد يقـول إن رشـدي العـلي باعـه الطاحـون ومعـه شـهود، كان موقـف أخـوال أحمـد أن هـذا الرجـل دجـال، لكـن سـليمة عندمـا رأت الورقـة تعرفـت عـلى خـط زوجهـا رغـم أنهـا لا تجيـد القـراءة والكتابـة وكان السـؤال أيـن ذهـب المـال، وكان الجـواب مدخـلًا لأخـوال أحمـد الذيـن مـا كفـوا يحرضـون عـلى رشـدي العـلي وأصحابـه مدَّعـين أنهـم غـرَّروا بـه ودفعـوه لإنفـاق أموالـه في فعـل الخـير، ومـن جهـة أخـرى كان عبـد الحافـظ يحـاول ريَّ البـذرة الجينيـة في أعـماق أحمـد مـن خـلال كتابـات ميخائيـل نعيمـة وإميـل حبيبـي وغسـان كنفـاني وكتابـات أخـرى ناقمـة ورافعـة للوعـي الرتيـب في تلـك الفـترة، كان أحمـد أيضًـا في تلـك الفـترة قد ملَّ مشـاهدة أمـه تكنـس المدرسـة وتخـدم المعلـمات والمعلمـين، لكنـه لم يستسـلم أمـام رفضهـا بالقيـام هـو بعملهـا، وقـد خلـص معهـا باتفـاق أن يقـوم هـو بـكل أعمالهـا مـا دام

خارج الصف، فخلاصة إلحاح أخواله عليه بما يرونه بأبيه ومختارات عبد الحافظ الأدبية له ومشهد أُمه تكنس الساحة جميع هذه المعطيات مجتمعة آتت أُكلها وأنتجت شابًا امتاز بإلحاده اللامتناهي.

ففي إحدى صباحاته الموسومة بالظلمة طلبت منه أمه الاغتسال والذهاب للمسجد، ردَّ عليها: أصلِّي!! والله لو بدي أعرف إن شعرة بيدي تريد أن تسبح لاقتلعتها، رغم أن سليمة صعقت، إلا أنها ردَّت: بس أنا راح أسبح لكل شعرة بجسمك طوال ما أنا عايشة.

بقي كلام أحمد مدار حياة سليمة فهي ما برحت تبحث عن الحل ليل نهار إلى أن احتالت عليه وطلبت منه مرافقتها لبيت أم جميل من أجل أن تقوم أم جميل بتدليك رجلها التي صدمت على درج المدرسة، ولم يشأ أحمد إغضاب أمه فوافق أيضًا على الرقية الشرعية التي بادرت بها أم جميل تتلوها عليه رغم قناعة أحمد أن الأفكار التي تلتها أم جميل ليست بالشرعية ولا بالمعروفة لديه فهو لم يسمع بكلماتها من قبل، لكن الأمر المستجد الذي حدث لأحمد في الزيارة مصادفته لمنى هنالك فقد مضى وقتٌ ليس بالقصير ولم يلتقها بشكل منفرد كما جرت العادة في الأيام الخوالي.

كان أحمد يأكل كعك الطحين المقرمش بعد وضعه بالشاي عندما بادرت منى بالحديث.

منى: شكلك صاير زي الكبار.

أحمد: ليش؟

منى: طالع لك هنا شوارب.

أحمد: يعني أفهم من كلامك إنك ظليتي زي ما انتي ما كبرتيش؟

منى: ليش؟

أحمد: لأنه مش طالعلك شوارب.

بعـد أن ضحـكا ولعبـا معًـا، أرادت منـى أن تـرد لأحمـد إحـدى قرصاتـه القويـة فأمسـك رُسـغها بأسـنانه مسـدِّدًا لهـا وجعًـا وأثـرًا جليًـا عندما تـرك يدها بعد تَوسَّـل.

منـى: شـو مفكـرَّني عصفـورة بـدَّك توكلنـي، إنتـا متعـود عـلى أكل العصافـير الصغـار.

لم يكـن أحمـد مـن النـاس الذيـن يمتلئـون بالمـاضي أو تسـيَّرهم الذاكـرة، فهـو يحيـا بذاكـرة عديمـة؛ لأنـه تعـوَّد أن ينهـي المواقـف وهـو عـلى قـربٍ منهـا حتـى إن دروسَـه محصـورة بـشرح المعلـم، وهـو شـاب صغـير أثبـت حضـورًا عـلى خشـبة المـسرح وإن بـدا زاهـدًا بـه مؤخـرًا، فبالرغـم مـن أنَّ الحادثـة التـي ذكرتهـا منـى أثَّـرَت يومهـا عـلى أحمـد وأهلِـه إلاَّ أنـه لم يُبـدِ غضبًـا.

أحمد: فكرِّت إيدِك طِوْلَتْ عليَّ وأنا متعوِّد أقطع كل إيد تمتد عليَّ.

ولم يشـأ يومهـا أن يجرحهـا بحقيقـة أبيهـا، رغـم أنـه يُجـرح مـن مِثْـلِ مـن هـم مثـل أبيهـا أو أقـل منـه، فمديـر المدرسـة شـخص بغايـة الحقـارة لا يتوانـى عـن توجيـه الأوامـر لأمـه أمامـه.

عـادت منـى للقـصر وعـلى يدهـا هديـة جميلـة مـن أحمـد فشـاهدت فريـال الدمـاء تتدفـق بوجـه منـى فشـعرت بـسرور لـسرور ابنتهـا والتـي باتـت صديقتهـا التـي بعـث الله بهـا إليهـا، وصافنـاز عمتّهـا لمنـى باتـت تمـضي معظـم العـام في نابلـس، أمَّـا ناديـة صـارت مديـرة جمعيـة خيريـة في البلـدة ولا تجتمع إلا مـع نسـاء معيَّنـات مـن نسـاء البلـدة، في إحـدى الأُمسيات في القـصر وُجِّهَـت لفريـال إهانـة معتـادة مـن ناديـة، كان أبـرزَ الحضـور في الأمسـية إبراهيـم ابـن عمهـا والـذي حـضر مـن نابلـس مـع عـودة للسـمر مـع زيـدان إلا أن صوتًـا هـزَّ ثقـة ناديـة بنفسـها العاليـة ولأول مـرَّة قالـت منـى: احكـي مـع ماما بطريقـة محترمـة، وإذا مـش عاجبـك العيشـة في بيتنـا البـاب بفـوِّت جمـل.

ومـن يومهـا فريـال تنظـر لمنـى عـلى أنهـا روحهـا المتمـردة، مولـود جـاء مـن عقلهـا الباطنـي لا مـن رحمهـا، لذلـك المسـموح والممنـوع متـروك لمنـى ومـا قـرَّرت.

مضـت أيـام الجميـع أولادًا وبنـات داخـل المجموعـة رتيبـة متشـابهة وكأنَّ ظـروف الجميـع متعادلـة إلا مـن بقايـا فلـول الإقطـاع، وكانـت بيئـة أهـل فلسـطين أينـما وُجـدوا صعبـة فـلا خدمـات ولا بُنَـى تحتيـة ولا من يرعـى طفولة أو أمومـة، فقـد كانـت بيئـة بـداوة ينقصهـا الخيـام، هكـذا أراد المحتـل.

أمـا الشـارع فقـد كان المكان الحاضـن لأطفال فلسـطين، أطفال طحنتهم بيئتهـم المحيطـة رغـم أنهم تصالحوا معهـا لأبعد حدٍ وعاشـوها بطـولٍ وعرض، كـما أنهـم عاشـوا ذاك الزمـن بضمـيرٍ جمعـي ومصـيرٍ مشـتركٍ، فأكلـوا مـا توفـر إن توفـر، وشربـوا جميعهـم مـن ركـوة مـاء واحـدة، وشـاهدوا وسـمعوا ذات

البرامج والخطب أحادية المصدر، وعشقوا وكرهوا بلا مؤثراتٍ مصطنعة، فقد كانوا مباشرين بقولهم، قريبين من مشاعرهم، ونِسَب تضامنهم مع بعضهم مرتفعة، غير أن عصر الهزيمة الذي ولدوا بعده، وذاك الجيل الذي سبقهم وعاش خلاله ألقيا بأعبائهما عليهم، وأخفى وراء خوفه درب عزتهم.

بينما عمَّ هدوء قاتل شوارع البلدة نزل أحمد وفادي وإبراهيم وصالح وباقي الأولاد لأكل القريص، وبعد أن وقفوا بملابسهم القصيرة بين نباتات القرِّيص قامت عركة فيما بينهم حاول خلالها كل واحد منهم دعك جسم الآخر بهذه النبتة التي استخدموها فيما مضى لخداع المدرسين لما تحدثه هذه النبتة من توهج على الجلد، وبعد أن انهزم الجميع أمام الوجع غير المبرَّر سمعوا صوتًا أشبه بمطارق على الخشب، أمر ما اعتقدوا أنه مقطع من فيلم لرعاة البقر (الكابوس، والتي شاعت فترتها)، وعلى غير اتفاق منهم ساروا جميعًا نحو الصوت وكذلك فعلوا عندما عَدَو جميعًا عدوًا لا يُشبه سوى الصقور الجائعة في السماء، فصاروا متحاذِيْنَ نحو مدخل البلدة، وهناك رأوا مشهدًا لم يروا مثله أبدًا لحظة شاهدوا الإطارات تشتعل وفتيان غطوا رؤوسهم بالكوفية ونسوة من كل الأعمار تشد أزر الحضور وأخريات يكسرن الحجارة ومنهن من يُسعفن الجرحى الذين أصيبوا بالاختناق أو الرصاص.

أُصيب الأولاد بدهشٍ جلي للحظات وهم يحدقون بفرحٍ لكل ما يحدث، ثم حضر ملثم نحيف يرفع بيده علمًا اعتلى عمود الكهرباء وثبَّتَ العلم في أعلاه، وبعد أن خفق العلم عاليًا جُنَّ جنون جنود الاحتلال

فاقتربوا من المتظاهرين وسط إطلاق كثيف لكل أنواع الذخائر، وكأنَّ أصوات الرصاص وجميع الذخائر لم تكن، فأحمد ورفاقه الذين كانوا ما يزالون مندهشين من جمال المشهد وكأنهم أُصيبوا بالصّمَم.

ثم نطق إبراهيم بصوتٍ احتفالي Yes، وكرَّرها أحمد وفادي وباقي الأولاد راقِصين على الأسفلت فرحًا وكأنَّ الرصاص والغاز والدخان لم يكن، وعندما أخذوا قرارهم بالهجوم كان الجميع قد تراجع للخلف إلاَّ أن هؤلاء الصقور لا يعرفون مدى الرصاصة ولا سرعتها ولا يعرفون عن هزائم آبائهم شيئًا، فعلى العكس من شعور المحاربين بطول الزمن في المعركة لم يدرِ الثائرون الصغار كيف مضى الوقت مسرعًا، وهم الآن يفترشون سطحَ بيتٍ مهجور وقد انقضى أول يوم من معاركهم السعيدة، وبعد أن أسند كلٌّ واحد منهم رأسه للآخر وأشاروا معًا بأصابعهم الصغيرة لنجمٍ ظنوا أنهم لامسوه معًا.

3

مـن قمـرة طائرتـه شـاهد الكابتـن رامـي المـدن والقـرى والمخيـمات تشـتعل خـلال جولتـه لاسـتشراف الواقـع عـلى حقيقتـه وليتسـنى لـه تقديـم تقريـر وافٍ، ولم يخـفِ الكابتـن رامـي شـعوره بالخـزي والإحبـاط وهـذا مـا ظهـر جليًـا مـن عنوانـه الـذي اختـاره لتقاريـره المرفوعـة للقيـادة العليـا: «لقـد أضعنـا كل مـا بنينـاه في السـنوات الخاليـة».

فـكان كلـما مـرَّ بطائرتـه فـوق بلـدةٍ شـاهد دخـان الإطـارات عـلى مداخلهـا وجمـوع النـاس تهتـف غاضبـة، وسرعان مـا يُحَـدِّثُ الاحتـلال خياراته ووسـائله لقمـع وإسـكات صـوت الفلسـطينيين، فأقـرَّ اسـتخدام الرصـاص الحـي والبلاسـتيكي والغـاز بأشـكاله، وسياسـة تكسـير العظـام، والإبعـاد،

وإغلاق المنازل والشوارع، واستخدام الطائرات، ومنع التجول لشهور طويلة. كلُّ شيءٍ بحثه الاحتلال إلا إمكانية إعطاء الفلسطينيين حقًا من حقوقهم الآدمية. فلا يوجد على هذه الأرض شعب مُنع من ممارسة حقوقه الإنسانية البديهية كحرية الحركة والتعبير كما مُنع الفلسطيني، فمنذ أن يُولد الفلسطيني يرى الكهرباء تمر من فوق رأسه، والماء من تحت قدميه، فيشرب أطفال المستوطنات ويُضاء لهم، ويبقى أطفال فلسطين في العتم والعطش، وتُصادر أرض أبيه وجدَّه أمام ناظريه، وتُشتَم أمه على مسامعه مع كل حاجز يمر عليه، ويدوس الجنود على رأس أبيه مع كل مداهمة، وعندما يَنظر لحاله هذه يُعزى تمرَّد هذا الطفل تحريض أخلَّ بتفكيره السليم.

* * *

بادرت منتهى بالوعيد لفادي الذي عاد مع ابنها علاء بعدما أنهيا المدرسة وبيع العلكة والترمس: «تعال وله فادي شو حاكي؟»، بعد أن مال متظاهرًا بالخوف منها، نادى علاء: «لا توخذي بحكيه».

ومنتهى هذه امرأة مقدسية تزوجت في طولكرم، وأخوها جمال بطلٌ خطفَ ذات مرَّةٍ طائرة هو ومجموعة من الفدائيين والفدائيات ونزل بها في مطار اللد وطالب بالإفراج عن أسرى فلسطينيين، وسرعان ما عطَّل الصهاينة الطائرة بعد أن أحدثوا خللًا بأنظمتها الخارجية، وقاموا فيما بعد بخداعه واستشهد أمام الكاميرات على مرأى من أمه وأخته، وسرعان ما استطاع فادي استمالة منتهى بحديثه لها عن مواجهات يوم أمس ما أنساها تجاوزاته بالحديث عنها عادته وعادة كل المراهقين في سنِّه.

رأى فـادي جميلـة في بيـت منتهـى، فصفـا وجهـه كـما خاطـره، وبـدا البيـت وكأنـه مليءٌ بالسكون والراحـة والحبـور، وبقيـا يبتسـمان لبعضهـما تـارةً بالعيـون وتـارة بالشـفاه، وأخـرى بالخاطـر المبـاشر شيء يشـبه قـراءة الأفـكار.

وأجمـل مـا في قصـه حب عـلاء وجميلة أن مشـاعرهما جـرت على طبيعتها بعيدًا عن المؤثرات المصطنعة التي تَحُثُّ على العشـق والهيام وتُنتج عشـقًا مخادعًا.

ولـدت هـذه الملحمـة جليـةً عفويـةً يلفُّهـا الـرضى عـن الحبيـب الـذي تكفيـه نظـرة أو كلمـة أو حتـى حبـة عِلكـة.

وباختصـار: جميلـة وعـلاء حـب بما قسـم الله كما الفـرح والعمـر والطعام في ذاك الزمـان، فـترداد كلمـة حـب لا يعني وفرتـه في قلـب الحبيـب، فلـم تذكـر لنـا كتـب التاريـخ أن امـرأة عربيـة قالـت لحبيبهـا كلمـة «أحبـك»، لكـنَّ كتـب التاريـخ زَخـرت بقصـص وفـاء الحبيبـة لحبيهـا لدرجـة امتناعهـا عـن الـزواج مـن غـيره أو الموت لأجلـه.

* * *

شـعرت فريـال بالحـرج ومنـى كذلـك عـلى بوابـة سـليمة بعـد أن طرقتـا البـاب طويـلًا ولم يُجـب أحـد، وبعـد أن كلَّـت يداهـا عـن الطـرق يائسـةً فُتِـحَ البـاب وكان أحمـد.

فريال: أنت أحمد؟

أحمد: ــبردٍّ متقطع هوــ أنا أحمد.

وفيما بدا تمردًا على طقوس عائلة زيدان، دخلت فريال بيت سليمة ولاحظت من الوهلة الأولى أن أجواء البيت أجواء متوترة، وبعد أن مرت من بين جموع الشبان الذين اجتمعوا حول أكياس مُلئت بالمقاليع والزي الموحد، وشاهدت من الشبان من وضع كوفية على كتفيه، وصناديق مُلئت زجاجات المولوتوف، بدا عليها الدهش الجلي للحظة قبل أن يزول هذا الذهول بمشاهدتها سليمة وراضية تشدان من أزر الثوار بالدعاء والحماسة.

فريال: بلاش يصيرلهم إشي لا سمح الله.

سليمة: خليهم، اوقفولهم لليش هي عيشة المطاطي وموطي رأسه للي أقوى منه. ثم علا صوت مكرر (أجو أجو الجيش)، ثم غاب الثوار الصغار عن الأنظار متدافعين نحو خط المواجهة في مركز البلدة.

علا صراخ العديد من بين الجموع «وَصَلُوا وَصَلُوا»، وكانت الجيبات قد أشعلت المصابيح الأمامية في وضح النهار وردد أحدهم «ثلاثة صراصير وأربعة عزيزة وناقلة جند واحدة»، وما بين الجموع وجد شعب بأكمله، طلاب، معلمون، رعاة، عمال، مثقفون، أطباء، منشدون، ملحنون، شعراء، نساء، أمهات، وأخوات، جميعهم وقفوا موقف الشجعان وبرز منهم من هم أمثال صالح وإبراهيم وإسماعيل وأحمد وفادي وأديب، وهذا الأخير فتى امتاز بسرعة عدَّاء وشخصية وحشية غير مروَّضة، وبرز أديب منذ أول يوم مواجهة، وكان مدار حديث الجميع.

دارت رحى المواجهة في البلدة عنيفة أمام المدارس التي بُنيت من حجارة ضخمة، ووُضع أمام المتاريس براميل مُلئت بالباطون وثُبِّتَت

عـلى قمـة المنحـدر، وسرعـان مـا تدحرجـت لترتطـم بمقدمـة أولى الجيبـات «صرصـور»، لَـوَّح الفتيـة بالمقاليـع وهتفـت الحناجر بالتكبـير وبالأغـاني الثورية والقليـل مـن الشُّـتَام.

غطـى دخـان الكوشـوك الأسـود والغـاز بأنواعـه سـماء البلـدة، فانتهـز أديـب فرصـة وجـوده بالقـرب مـن الجيـب الـذي ارتطـم به المتراس وألقـى أول زجاجـة مولوتـوف وأصـاب بهـا مقدمـة الجيـب.

وقفـت النسـوة في مؤخـرة المواجهـة لتقديـم الدعـم اللوجسـتي، ولكـن سرعـان مـا تقدمـت بعـد عـدة إصابـات بالاختنـاق، واحتجـاز الجنـود لبعـض الفتيـة فهرعـن لتخليصهـم مـن بـين أيـدي الجنـود.

ومـن بـين النسـوة الحجـة أم حسـن التـي كانـت لا تُمَيِّـز مـا بـين حسـن أو أي شـاب آخـر يقـف بجـواره، الجميـع في خضـم المواجهـة هـم أبناؤهـا، يُشَـبِّهُهَا الشـبان وهـي مُقبلـة عليهـم بناقلـة الجنـد، فهـي مَـدد معنـوي كُتـب للمتظاهريـن وعـلى بوابـات السـجون كذلـك، فهـي حـدود عـلى ثلاثـة سـجون لهـا فيهـا أبنـاء غيَّبَهـم الأسر عنهـا، اسـتُفِزَ الشـباب وشـعروا بالغيـظ حـين شـاهدوا النسـوة الـلاتي تقدَّمْـنَ لفـك الفتيـان الذيـن حُـوصِروا وهُـنَّ يتعرضـنَ للـضرب والدفـع، فتقـدم صالـح وفـادي وأديـب مـن عـلى أسـطح الأبنيـة نحـو الشـارع الرئيسـي للبلـدة، وألقـى كلٌّ واحـد حجـرًا كبيـرًا بحجـم صخـرة فـوق رؤوس الجنـود فأُصيـب أحدهـم إصابـةً بالغـةً، فـزاد سُـعار الجنـود ونبحـت حناجرهـم وبنادقهـم سريعًـا، وبعـد سـاعات مـن الحَـرِّ الشـديد وأصـواتِ قنابـل الصـوت ورائحـةِ الغـاز، وبعـد أن اقتحـم الجنـود شـوارع عديـدة ونكَّلوا

بصغيرها وكبيرها، بدأ الكثير ممن شاركوا بالمواجهة بالتراجع، وبقيت مجموعة الفتية التي انطلقت من بيت سليمة وحدها تُطارد الجنود كذئاب منفردة من بيت لبيت، وشعر هؤلاء الفتية بالإنهاك منهم لم يتزودوا منذ الصباح سوى بالماء والإصرار، وبقوا كما الصنواري في سماء البلدة حتى انهمر عليهم الرصاص مدرارًا كالمطر، واستمر هذا الهجوم الكثيف لزمن ليس بالطويل، ثم سرعان ما تجمع الجنود ومركباتهم على أطراف البلدة، ثم انسحبوا يجرون إحدى مركباتهم التي أُعطبت في المواجهة.

في صبيحة اليوم التالي كانت مواجهات البلدة حديث العالم، فقد أحضر عبد الحافظ صحافيين صوروا المواجهات التي هزمت القوة الصهيونية التي اقتحمت القرية والرواية الصهيونية التي زعمت أنهم يحاربون فلول النازية الذين وصلوا من أوروبا واختبئوا في القاهرة ودمشق، وماذا عساه يقول الآن والعالم يُشاهد أطفالًا حفاةً عراةً جوعى يرتقون وهم قابضون حجارة أرضهم؟ فهو لن يستطع أن يقول للفوكس نيوز إننا فرضنا منع التجول على مخيم نور شمس 320 يومًا في العام الماضي؛ لأن هتلر اختبأ في حارة المنشية، وأن ضابط الاستخبارات النازي أوتوفون هنتئع اختبأ في مخيم عسكر الجديد؛ لذلك لم يرفع منع التجول سوى يومين من كل شهر طيلة العام، وهكذا عمل إعلامهم بحيز ضيق وتحول من مارد إلى قزم صغير.

4

فيـما تـلا المواجهـة مـن أيـام لاحقـت أحمـد ورفاقـه الذيـن صمـدوا في المواجهـة أسئلة ومشـاعر لطيفـة لا تـكاد تنفـك لتعـاود أن تـتردد في رؤوسـهم.

أحمد: لماذا نحن فقط نُقْتَل؟

صالح: لأننا شعبٌ أعزل.

فادي: لماذا لا ترقى الانتفاضة بأدواتها؟

إسماعيل: من وين يا حسرة وإحنا مسكر علينا من كل الجهات؟!

خالد: لازم لما يُقْتُلُوا واحد منا نُقْتُل واحد منهم.

صالح: غريب كلامك! أول واحد يوم الاجتياح هرب إنتا.

وبعد أن انفض المجلس وبقي أحمد وصالح لوحدهما.

صالح: بدَّو يُقْتُل ويذبح، والله خالد هذا عمره ما دخل راسي.

أحمد: مش مطلوب يدخل راسك المطلوب اطَّلعُوا من راسك.

صالح: درويش طول عمرك درويش ابن درويش.

أحمد: ولا أكون مجرم ابن مجرم مثله.

وما بدأ خلافًا انتهى بشجار وصراخ غاضب.

❋ ❋ ❋

قاومت البلدة فيما مضى من أسابيع وأيام خلت واشتدَّ عودها وبدت أكثر خطورة لما تمتاز به من موقع استراتيجي، وبعد تردُّدِ صدى عنفوانها بالمواجهات، فلم يكد يمضي يوم دون تصعيد منظم ضد الجنود الغرباء.

وفي كل يوم كان يمضي من أيام المواجهة كانت خبرة الفتية تزداد، وروح المقاومة تتأجج فيهم أكثر وأكثر، وفي صبيحة أحد أيام الشتاء العاصف دخل الجنود البلدة في أعداد كبيرة ومنعوا التجول، طلبوا من جميع ممن تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة عشرة والستين عامًا التوجه لمدرسة البلدة، وهناك أَجلسوا الجميع على ركبهم وتجبَّروا بالخلق.

غـاب عـن هـذا المشـهد كلُّ أفـراد المجموعـة بـلا اسـتثناء فقـد آثـروا المغـادرة نحـو الجبـل في وقـتٍ حقـق ضبـاط المخابـرات مـع شـبان البلـدة حـول مـا دار مـن مواجهـات ومَـنْ شـارك فيهـا.

اسـتمتع أفـراد المجموعـة بنزهـة جبليـة في وقـت كان فيـه الكابتـن رامـي يضـع اللمسـات الأخـيرة عـلى ملـف هـؤلاء الفتيـة، فغيابهـم أكـدَّ تقاريـر العمـلاء عنهـم.

5

مـع سـاعاتِ بـزوغ كلِّ شـمسٍ مـن يـوم الأحـد كانـت منتهـى (أم عـلاء) مُعتـادة عـلى اسـتقبال فتـاة صغـيرة تـأتي باكـرًا اسـمها مريـم، وسـبب زيارتهـا تمحـور حـول عـلي الصغـير، فمريـم مولعـة بحمـل الأطفـال الصغـار، وكانـت في طفولتهـا تبكـي إن لم تُمنـح دور الأم في لعبـة بيـت بيـوت، وهـي تحيـا مـع أمهـا عبـير، وقـد عـرف الأطفـال فيهـا نقطـة ضعفهـا، فعاطفتهـا الجارفـة تجـاه الأطفـال جعـل جميلـة وفاطمـة وباقـي البنـات تسـتغل وجـود مريـم أثنـاء اللهـو فيتركـن إخوانهـن الصغـار عـلى جنـب، وسرعـان مـا تحنـو عليهـم مريـم متقمصـة دور الأم بجـدارة، وجـدت منتهـى في مريـم عونًـا، ففـي الصبـاح تبـدأ منتهـى الأعـمال المنزليـة وكان عـلي الصغـير سيُتعِبُهـا لـولا وجـود مريـم،

وترفض مريم أيَّ أعمال ضيافة ولا يُسمع لها صوت إلا لحظة اللعب مع الأطفال، أما علاء فقد اعتاد مخاطبتها بأسلوبه اللطيف.

علاء: بتحبي علي؟

مريم: آه بحبو.

علاء: خذيه إلك ما بدنا إياه، بظل يبكي في الليل وبغلبنا.

مريم بخجل: لا ما بغلب.

لا تعرف مريم جوابًا محددًا عن مكان وجود أبيها فهي تُجيب من يسألها أنه مسافر.

وللفضولي في أمريكا، وكثيرًا ما تجيب «بعرفش».

والجواب الأخير هو الأصح؛ لأن أباها اختفت آثاره بعد خلافٍ مع المافيا خارج البلاد.

شدَّد زيدان في الأيام الأخيرة رقابته على فريال ومنى بعد أن علم بترددهما على بيت سليمة، ولكن لم يكن بذلك الإصرار، ولم يُعجب ذلك نادية التي نبشت على أسرار منى ووجدت ما هو كفر بواح في نظر العائلة عندما وجدت رسائل كتبها أحمد لمنى، فقبل أن تجد هذه الرسائل كانت نادية تنظر لمنى على أنها فتاة غريبة الأطوار، لكنها الآن تراها خطرًا مصيريًا لتقاليد العائلة.

نادية: الكلبة الصغيرة تعشق.

أخذت نادية تقرأ الرسائل بغل وعجل، وكان كلام العشق والغزل هذا يختلف كثيرًا عن طريقة ابن عمها إبراهيم في الغزل فهو يغازل بطرافة وبساطة، وأحيانًا كان يغازلها بمقطع مغنَّى يلحِّنه لها على عوده، لكن هذا الفتى أحمد صاحب حتى بعشقه وغزله، فقرأت رسالته التي يقول بها: «كل قصيدة كلماتُها كانت من لؤلؤٍ أو ألماسٍ رقيقة نغماتها مثل الشموس الناعسات، هي صنعة الأيام التي دهمت صغير الأمنيات»، وكان كل كلامه في العشق ملامة نفسه، «أنا لست عاشقًا، أنا لست عاشقًا، أنا ما زلتُ أَردُّ على حبيبي السلام».

واكتملت أركان الجريمة الغرامية بتوقيعِ أحمد أسفل الرسالة، علمت فريال بخيانة نادية وسرقتها للرسائل فتوسلت إليها أن لا تفعل فإن هي سلمت الرسائل لزيدان لربما قتل منى أو فريال، فهو مسخ لا يتوانى عن أي حقارة.

ولم تُجِب نادية بنعم أو لا، لكن فريال تعرف أن لا رابط ما بين نادية ومن دونها في المقام، فلا شفقة ولا رحمة ولا خصوصية عندها بمثل هكذا رعاع.

آثرت فريال أن لا تخبر منى بسرقة الرسائل، فالرسائل لمنى أغلى من البيت وأصحابه مجتمعين، أحسنت لنادية ما استطاعت، وبعد أن كادت تصدِّق أوهامها لإحسانها الظنَّ بها ولو لأيام معدودة، رجَّ البيت صراخ زيدان مناديًا باسم فريال فأسرعت نحو غرفة منى مُغلقةً باب غرفتها ومُخفيةً المفتاح عن الأنظار.

لم يكـن صراخ زيـدان مجـرد صراخ بـل كأنـه يتقيـأ الكلـمات تقيـؤًا، وأُشـبهت حركاتـه مـن كان بـه صرع.

عندما شاهدته فريال وشاهدت البصاق والزبد على فمه وشاربيه، بالـت عـلى غـير إرادتهـا، ووصلـت أم جميـل بالوقـت المناسـب لتقـف موقفًـا رائعًـا كعادتهـا مخاطبـة زيـدان: «عـلى مـين مراجلـك؟ عـلى هـذه المسكينة؟، أنـا فكـرت جمـع رجـال دخلـوا عليـك!»، لم يلتفـت زيـدان لهـا، وإن بـدا جليًـا أنـه أُصيـب مـن كلامهـا بمقتـل، وتظاهـرت ناديـة أنهـا لم تكـن تعتقـد أن الأمـور سـتصل إلى هـذا الحـد.

شيء لا يفهمـه سـوى الرازحـين تحـت جـبروت زيـدان فـما هـم إلا إنـاءُ لـذَّةٍ، ولطالما عالجـت فريـال هـذا الوضـع بجسـدها وكرامتهـا مـرارًا وتكـرارًا.

فمـذ أن فتحـت فريـال عينيهـا عـلى هـذا العيـش البائـس وهـي في ألم وتعاسـة، ولا ذنـب لهـا في ذلـك سـوى أنهـا ولـدت عـلى مقربـة مـن هـذا المكان لأُسرةٍ تابعـةٍ لآل زيـدان فهـي أتعـس أهـل البلـدة عـلى الإطـلاق ولأنهـا تحيـا حاضرهـا وذكرياتهـا التعيسـة معًـا، ومـن مشـاهد تعاسـتها تذكرهـا يـوم لهـا بهـا زيـدان وأبنـاء عمومتـه فتناوبـوا عـلى مهانتهـا طفلـة، فـكان للاعتـداء عليهـا أثـر كبـير عـلى نفسـها خصوصًـا مشـاهد الإذلال الجنسي الحـاضرة في ذاكرتهـا والتخويـف المفـرط تـرك أثـره في صميـم طفولتهـا، وكانـت خدودهـا الواسـعة البيضـاء سرعـان مـا تتحـول صفـراء وهـي تتذكـر نظـرات وضحـكات زيـدان وأبنـاء عمومتـه بعـد أن وضعـوا عـلى جسـدها إفـرازات أتـان، وأوقفوهـا أمـام حمـارٍ هـاج مـن رائحـةٍ تنـشر فيـه شرور نفسـه، وجعلـت ملامـح هـذا الكائـن

القاسـية وحجمـه الكبـير فريـال تبكـي إلى حـد الإغـماء ناظـرةً خلفهـا بخـوفٍ ودهـشٍ ودمـعٍ مسـتجيرةً ولا مُجـير.

ولطالما تنابـزت زيـدان ألسـنة أبنـاء عمومتـه بعـد زواجـه مـن فريـال على مسـمعٍ منهـا، فـما يحللـه القـصر مـن طبـاع دنيئـة تأبـاه روح فريـال المعذبـة، أمـا رجاؤهـا في هـذه الدنيـا فيكمـن في روح منـى الحـرة المتمـردة.

فمـع أول لقـاء داخـل البيـت الواسـع مـع ناديـة خاطبتهـا منـى: أنـا لـو مكانـك بعمـل نفـس الـلِّي إعملتيـه، بـس الحمـد لله أنـا عمـري مـا بكـون مكانـك.

نادية: مش فاهمة عليكِ.

منى: كمان ما بتفهمي، حرامية وشباكة وما بتفهمي!!

نادية تحاول المقاطعة.

منـى: اسـمعي يـا وجـه الغـراب، الـلِّي مـا بتعرفيـه أنـا مـش بـس بتراسـل أحمـد أنـا بتواعـد معـاه، إلـلِّي مـا بتعرفيـه كـمان أنـه ولا واحـد مـن شـباب البلـد عنـد استعداد يطلـع بوجهـك أو يرتبـط فيـك.

وهـذا إلـلي قصدتـه لمـا حكيتلـك لـو مكانـك بعمـل نفـس الـشي، يعنـي بمـوت مـن قهـري.

وإذا مــا برجعــوا الرســائل ولا تقــولي لي بقــدرش وبعرفــش، إذا مــا برجعــوا يــا ويلــك منــي عــلى راح أعملــوا فيــك.

6

وصلت المظاهرات إلى المدارس فطلابها وطالباتها هم مادتها الأولى، وقد عطلت المدارس كثيرًا تحت وطأة المظاهرات، فظاهرة إخراج الطلاب من الصفوف والإضراب العام وتعليق الدراسة مترافقة مع منع التجول والاقتحامات خَلَّفَ أُمِّيَّةً مقنَّعة على عكس مدن وبلدات عديدة حافظت مدرسة البلدة على أيام دوام شبه عادية، ويرجع هذا الفضل إلى الأستاذ عبد الحافظ الذي وقف أمام الملثمين الذين أرادوا إخراج الطلاب بصرامة مستغلًا مكانته عند شبان البلدة ومقدرته على التأثير بهم فخاطب المُلثمَ: لماذا حضرتَ إلى هنا؟

الملثم: هناك إضراب أريد منهم أن يخرجوا للتظاهر.

عبد الحافظ: إذن خاطبهم من خلال مكبر الصوت هذا واشرح لهم عن الإضراب ومطالبه، وقل لهم إن وجودكم على مقاعد الدراسة نضال حقيقي.

حتى إن عبد الحافظ منع ذات يوم دخول الجنود باحة المدرسة بعد أن تجادل مع قائدهم: إذا لم تحترم هذا الصرح فلا أعتقد أنك بعد هذا اليوم تستطيع اللوم على النازيين بشيءٍ.

* * *

بعد أن مضى وقت على إلغاء نشاط المسرح والرياضة الذي اشتهرت به مدرسة البلدة اقترح المدير على عبد الحافظ إجراء نشاط معين يتمحور حول حقوق المرأة، ما كان واضحًا أنَّ جمعية نادية الخيرية وراء النشاط، فعلاقة زيدان بالمدير ونادية التي تُريد أن تُثبت لمنى أهميتها في البلدة، جميع هذه المواءمات كانت وراء مثل هكذا اقتراح.

ولاحظ ذلك عبد الحافظ بعد حضور نادية لغرفة المدير برفقة نساء الجمعية، ولاحظ أيضًا كيف تصرفت مع سليمة (أم أحمد) عندما قدمت لها الشاي، فباستعلاءٍ ماكرٍ أشارت لها بكف يدها: ضعيها هنا.

واقتضى الاتفاق ما بين الجمعية والمدير بأن تقوم المدرسة بتكريم المميزات من نساء البلدة واختيار واحدة لمنحها لقب المرأة المثالية والسيدة الأولى، وبعد مغادرة نادية ومن معها خاطب عبد الحافظ المدير خيري: مين المرأة المثالية بنظرك يا خيري في مجتمعنا الفلسطيني؟

المدير: كيف؟ ويتظاهر بعدم السماع.

عبد الحافظ: يُعيد نفس السؤال ولكن بشكلٍ متقطعٍ وواثقٍ.

المدير: استمعت قبل قليل لنساء يفتخر فيهن المجتمع وتكريمهن واجب علينا.

عبد الحافظ: أمك مش واجب عليك تكرمها؟!

المدير: الله أكرمها عنده.

أعاد عبد الحافظ نفس السؤال لكن هذا المرة على نفسه، من هي المرأة المثالية في البلدة؟

امرأة متعلمة وسيدة مجتمع، وأخرى ليست متعلمة، ولكنَّها تكدّ وتكدح ليل نهار وتُنجب وتُربي وتُطعم وتَسهر وتُقاوم كُلَّ عَادٍ على أبنائها، رغم قلةِ إمكانياتها ومؤهلاتها العلمية إلا أنها تَصنع الطبيب والمعلم والمهندس والفدائي من أبنائها صناعةً تتضامن مع جميع أهل بلدتِها وأبناء شعبها ما استطاعت إليه سبيلًا، ولا تطلب الراحة ولا التكريم ولا حتى الطعام.

ثم عاود عبد الحافظ التفكير محاولًا أن يكون منصفًا؛ فالمرأة المتعلمة تُنجب وتُربي وتُعلم وتفعل جميع الأعمال التي تقوم بها المرأة غير المتعلمة ولربما بشكلٍ أفضل، ولكنَّ عبد الحافظ عاود وجعل الأفضلية للانتماء والتحرر من كلِّ غاية شخصية، فالعطاء إذا ما تعلق بالأمومة يجب أن يمتاز

بالتضحية ويكون عطاءً خالصًا دون انتظارِ أيِّ مقابل، فلا شيء على هذه الأرض أقدس من كلمة أم.

صعد طاقم من المعلمين ورجالات البلدة على منصة المدرسة، وبعد تقديم مختصر في الكلام حول دور المرأة في المجتمع، عرَّج عريف الحفل على مآثر الجمعية الخيرية في البلدة وتحدَّث عن نادية ومآثرها الكثيرة، كانت منى أكثر من شعر بالغيظ وهي ترى نادية متبجحة على المنصة بنظراتها، وفجأة وأثناء مرور نادية أمام لجنة التكريم مصافحةً إياهم، ولحظةَ أمسك المدير بدرعٍ خشبية كبيرة، حصلت جلبة لفتت انتباه الطلاب والحضور على حدٍّ سواء بعد أن دخلت مجموعة من الملثمين للمدرسة وانتشروا انتشارًا سريعًا بكافة أرجاء المدرسة وعلى السطح والبوابات، ثُمَّ تقدم أحدهم وأمسك الدرع التي حملها المدير بيده، ثم دعا الملثم الأستاذ عبد الحافظ طالبًا منه أن يقرأ عبر مكبر الصوت بيانًا كُتب باسم قيادة الانتفاضة.

تُعلن قيادة الانتفاضة الموحدة عن اسم المرأة التي فازت بلقب السيدة الفلسطينية المناضلة الأولى، وتريث قبل إعلان الاسم قليلًا وكأنه يريد أن يَرى المرأة التي كُتِبَ اسمها على الورقة، ثم تشجَّع مُعلنًا، المرأة المثالية والسيدة الأولى هي سليمة رشدي العلي (أم أحمد)، أطبقت نادية وأُسقط بيدها وشعرت بالخوف من الملثمين أن يقوموا بفعل ما تجاهها.

أما المفاجأة الأكبر فحصلت عندما تم استدراج سليمة لأحد الصفوف وإجبارها على ارتداء ثوبٍ مُطرَّزٍ بألوان علم فلسطين ووضعت الكوفية على رأسها، ثم خرجت محمولةً يرفعها الطلاب فوق رؤوسهم

ويطوفون بها بين الحضور، وهم يهتفون لأمِّ الأسير والشهيد والجريح، كما ألقيت قطع السكاكر فوق رؤوس الحضور، ذرفت عيون أحمد ومنى على غير اتفاقٍ بينهما فرحًا؛ فأول مرةٍ يرى أحمد أمه سليمة تُكَرَّم بهذا الشكل، فمنذ أن دخلت سليمة المدرسة وهي لا تُرى إلا منشغلة في تنظيف المدرسة وخدمة المعلمين والمعلمات.

أما منى فمنذ أن وعت على هذه الدنيا وهي ترى نادية بوجهها القاسي تُسدي الإهانات لفريال، ولم ترها مُهانةً بوجه قاتم كسير قبل هذا اليوم أبدًا.

ولم تكف سليمة عن الضحك تارةً والشُّتام أُخرى للأولاد الذين رفعوها ولم يُرِيدوا إنزالها، فسقطت الكوفية وتجاذبها الفتية كلٌّ يريد الإمساك بها ورفعها.

7

مـن سُـخريات المراجـل التـي دارت وتـدور أحداثهـا عـلى أرضنـا أن يتظاهـر الأعـداء الغربـاء بالرأفـة في وقـتٍ يتسـابق فيـه الأعـداء القربـاء عـلى البطـش، ففـي تاريـخ الـصراع نُفِّـذَت أشـد الجرائـم قـذارةً بأيـدي أبنـاء جلدتنـا العمـلاء، فهـا هـو زيـدان يدخـل مكتـب الكابتـن رامـي بغضـبٍ يـكاد يخنقـه مـن حَـرِّ مـا جـرى مـع أختـه يـوم أمـس في مدرسـة البلـدة.

زيـدان: أريـد اقتحامًـا للقريـة يحـرق الأخـضر واليابـس، ناسـيًا نفسـه يـضرب بكـف يـده عـلى الطاولـة ويُطلـق التهديـدات، إذا لم تأخـذوا لي حقـي سـآخذه بنفـسي وبطريقتـي.

الكابتن رامي: دولة إسرائيل غير مسئولة إلا عن أمن مواطنيها، الملثمون أهانوك، أهانوا أختك هذه مشكلتك.

يخرج زيدان من المجلس وهو يضرب على مسدسه على خصره: «أنا بعرف كيف أجيب حقي».

كابتن رامي: اسمع راجي هذا الخنزير البري راح يخرب علينا وعلى حاله، انصحوا بلاش يجيب لحاله وجع راس، أنا بكرة لما أدخل البلدة، بديش أسمع له صوت، بدي إياه ما يدخل أصلًا وهو مكشوف، لو مش مكشوف ما بعامل الملثمون أخته هيك، وهذا اقتحام كبير ومخطط إله بعناية، بدناش صاحبك هذا يخرب علينا.

* * *

عاش أديب وإخوته حياة وحشية بمعنى الكلمة، فبيتهم كان متطرفًا ما بين كروم الزيتون، وكانوا إذا ما أرادوا شراء حاجاتهم من البقالة ساروا مسافة مشيًا على الأقدام، وأحيانًا على حمارهم القوي السريع، وكانت تبدو عليهم صفات القسوة والجدية في التعامل حتى في رد السلام والتحايا، فكانوا إذا ما ردد عليهم أحدهم: مرحبًا، ردوا: أنت مرحبًا، وكذلك عند قول السلام عليكم أو أي تحية أخرى يردونها على من قالها وكأنها شتيمة.

ويبقى الواحد منهم مقطبًا حاجبيه حتى يختفي الرجل عن الأنظار،

ففي إحدى الأيام شاهد إسماعيل عبد الرحمن أخا أديب وقد بدا عليه أنه ابتسم فبادره بالقول: «نعيمًا عبود» ودخل المنزل، وبعد مرور وقتٍ ليس بالطويل سمع طرقًا على الباب، وبعد فَتْحِهِ الباب مسرعًا وجد والد أديب وإخوانه قد تجمعوا مستنفرين، فخاطبهم والد إسماعيل «خير، يا ستَّار»، فرد أبو الأديب موجهًا الكلام لإسماعيل: «شو حاكي للولد، إنت ها»، إسماعيل: أنا!!

أبو أديب: آه إنت.

إسماعيل: عبود أنا حكيتلك إشي.

عبد الرحمن: آه، أبو أديب خلي حكيك معي وأصدقني القول، والله أنا في مائة شيطان وعشرة قرود بنطوا حولين راسي شو قلت للولد؟!

إسماعيل: أنا عمي أبو الأديب شفتو متحمم حكيتلوا نعيمًا ولا زدت حرف.

أبو أديب لعبد الرحمن: هيك حكى؟

عبد الرحمن: آه هيك، «ويتحدث بغل».

أبو أديب لإسماعيل: اسمع حبيبي وصاحبي وأبوك هيك علشان نظل أصحاب وحبايب لا تحكي للولد كلام أكبر من سنه ما يفهمه.

إسماعيل: شو فيها عمي أبو الأديب إذا حكيت.

أبـو إسـماعيل: اخـرس، سـكر تمـك، رد عـلى عمـك أبـو الأديـب، تفضـل فـوت بصـيرش تظـل واقـف هـون.

أبو الأديب وكأنه لم يسمع الدعوة ويخاطب أولاده: الحقوني.

* * *

بـدا الحضـور في سـاحة البلـدة سـعداء بـما جـرى مـع إسـماعيل ووالـد أديـب، ووسـط ضحكاتهـم عـلى إسـماعيل ردَّدوا عـلى الـدوام مـن بـاب اللطافـة قـول أديـب وإخوانـه عنـد رد التحايـا، فكلـما قـال أحدهم للآخـر كيفـك، بادره الآخـر أنـت كيفـك، ويضحـك أديـب معهـم وهـو الـذي لم يكـن ليقبـل مثـل هكـذا مُـزاح مـن قبـل، وكان سرعـان مـا يتشـاجر ولكنـه اليـوم جُـلّ غضبـه منصـب عـلى الجنـود في المواجهـة، كان جالسًـا لحظـة مزاحهـم معـه عـلى سـور قبالـة بائـع الفلافـل يُحـرِّك سـاقيه فرحًـا بفـرح الفتيـة، كل مـا يفعلـه هـو التَّبَسُّـم الـذي باعـد مـا بـين خدَّيـن نحيلـين أبقيـا سـمرة الشـمس خارجًـا، وأطـلَّ نورهمـا الجميـل، وأديـب الـذي غـيَّرت الانتفاضـة الكثـير مـن طباعـه لم يكـن ليقبـل عزومـة أحدهـم، ففـي مجلسـه وهـو عـلى السـور دعـاه رفاقـه لتنـاول الفلافـل فـكان رافضًـا صامتًـا مبتسـمًا يحـرِّك سـاقيه وكأنـه لم يسـمع أحـدًا دعـاه أو رجـاه أن يقبـل عزومتـه.

8

نُسُـمٌ مهرَّبـة برائحـة الحقـول جـاءت تختبـئ في البلـدة مـن قيـظ صيـفٍ يُنـذر بمزيـدٍ مـن الحـرارة، رغـم كلّ شيءٍ بـدا وكأنـه يسـير بسلاسـة؛ فالنـاس في أعمالهـم وحقولهـم الصيفيـة ذات الثـمار الشـهية، ومـن بعيـد ارتفعـت أصـوات طيـور الهجـير وغبـار التـين الـذي دأب أصحابـه عـلى جمعـه، وسـارت الأغنـام والأبقـار بخطـوط مسـتقيمة عائـدة مـن مرعاهـا، في وقـت جلسـت العجائـز في الظـل ولعبـت الفتيـات عـلى الإسـفلت «الحجلـة» وتآمـرت البنـات عـلى مريـم، كلـما أرادت مريـم أن تلعـب تظاهـرت البنـات بإهمـال عـلي الصغـير لتُسـرع مريـم إليـه تضمـه مكتفيـة بالنظـر لجميلـة وفاطمـة وسـمية أخـت عـلاء وهـنَّ يلعبـن الحجلـة، وبعـد أن ملـت البنـات اللعـب نـادت جميلـة عـلى مريـم لتلعب،

قَبِلَتْ بفرحٍ، وحجلت بخفةٍ ومرحٍ وتُحرَّك قرنيها الشقراوين كأوراقِ وردةٍ، وبدت بسكينة راهبة هجرت دنيا الوجود.

كان قطيع الأبقار والأغنام ما زال بعيدًا، وقد اعتاد الفتية والفتيات على قطع اللعب لحظة اقترابه، وبدا كُلُّ شيءٍ هادئًا وطبيعيًا حتى علا صوتُ أحدهم: مُستعربين مستعربين! وبلا فارقٍ زمنيٍّ علت أصوات قنابل الصوت والرصاص الحيِّ بكلِّ اتجاهٍ فقوة المستعربين التي دخلت رأس حربة للحي كُشِفَتْ.

الراعي كشف المستعربين، فقد شاهدهم عندما استولوا على سيارةِ بائع خُضرةٍ، وتظاهر بالرعي يتبعه قطيعه لكنه تفاجأ بالسرعة التي وصلوا بها فصرخ بهمة راعٍ، وصرخ كُلُّ من سمعه: مستعربين، لكنَّ أغنامه وأبقاره التي أجفلها صوت القنابل هامت بكل اتجاه مسرعةً، ودخلت القوةُ المقتحمةُ الرديفة لتحمي المستعربين الذين حُوصروا في مدخلٍ ضيقٍ قرب المسجد، كان هجومًا كبيرًا من اتجاهات ثلاثة، لكنَّ هؤلاء الفتية لا يعرفون الجهة الرابعة على عكس آبائهم.

نظرت مريم حولها فلم ترَ أيًّا من الفتيات، لكنها رأت الأبقار هاجمةً برؤوسها نحوها من كل اتجاه، كانت ترفع يديها كراقصةِ بالية ما تزال تمسك بحجرِ الحجلة، تقول في قرارة نفسها الصغيرة أين المفر؟، وبعد أن كادت تستسلم للموت تحت ظوالف الأبقار الهائجة سمعت بكاء علي الصغير على جنب ازدحمت فيه الطريق فلم يبقَ لها جنب ولا حتى موطئ قدم.

وقفـت منتهـى تلطـم بكفيهـا أطـراف حسـبتها وعـلى بـاب المنـزل وبجوارهـا وقفـت سـمية، والأبقـار تمـر مسرعـة، فكانـت القـوات المقتحمـة والمسـتعربون يطلقـون النـار بـكل اتجـاه مسـتندين بفعلهـم الإجرامـي هـذا لقانـون هنيبعـل، وحشـيةٌ قـلَّ نظيرُهـا في هـذا العـالم وهـذا الزمـان تحديـدًا.

قانـون محـرَّمٌ تسـتخدمه دولـةُ الإجـرام عندمـا يحـدث خطـرٌ لجنودهـا، وهـو تـصرُّفٌ يفـوق بوحشـيته سياسـة الأرض المحروقـة.

أخـذت منتهـى قرَارهـا بالاقتحـام داخـل القطيـع مدفوعـةً بغريزتهـا لا بعقلهـا بعـد أن مـلأت البلـدة بصراخهـا مكـررةً اسـم «عـلي» متقدمـةً خطـوةً واحـدةً، كانـت خطـوةً أصعـب مـن كل خُطاهـا التـي خطـت منـذ أن تعلمـت المـشي، ومـن بـين وجـوه الأبقـار العابسـة أطـل وجـه ملائكـي يعـدو نحوهـا مريـم تحمـل عـلي بحنـوَّ السـماء لا النسـاء.

قالـت خذيـه تحـاول أن تبتسـم لنجاتـه وإياهـا، وقبـل أن تضمـه منتهـى لفتهـا رذاذ دمٍ فـرشرش عـلى كـف يدهـا وخاتـم زواجهـا، ولـترى مثلـه الكثـير عـلى وجـه عـلي الصغـير، فصرخـت عـلي مـات، عـلي مـات، فحضنتـه مسرعـةً ليرتفـع بـكاؤه وترتقـي مريـم مـن على الأرض شـهيدةً بعد أن اخترقـت رصاصةٌ ظهرَهـا متخـذةً طريقهـا عـبر قلبهـا الـذي فـاض بـما فيـه عـلى جسـد عـلي.

اقتضـت خطـة الهجـوم مداهمـة بيـوت الفتيـة الأكثر حماسًـا ونشـاطًا غير أن القـوة المهاجمـة لم تجـد غايتهـا، فالفتيـةُ أخـذوا حذرهـم، ولم يبيتـوا ليلتهـم في بيوتهـم إلا أديـب الـذي رفـض فكـرة عـدم المبيـت وكان أحوجهـم لذلـك، ونام في بيتـه مِـلء جفونـه رضى.

وكان الاقتحام وكأنَّه مُصَمَّمٌ لأديب، ففي وقتٍ كُشفت فيه قوةُ المستعربين الأولى كانت التي تليها تشُقُّ طريقَها نحو بيت أبيه، ساعةَ استغرق أديب في نومه مرت سيارة المستعربين بسرعة جنونية لا تُراعي حُرمة لصغيرٍ يلعب أو كبير أبطأ به الدهر ليرى مثل هكذا قوم لئام، لكنَّ الأقدار شاءت أن تُكشف سيارة المستعربين الأولى والتي لم تتجه نحو بيت أديب، ولم يسمع أديب هُتاف الناس الذين صرخوا بأعلى صوتهم: مستعربين! وذلك لبُعد بيته؛ لكنَّ أصواتَ قنابل الصوت والرصاص الحي أيقظه قبل لحظةِ محاصرةِ البيت، فقفز على غير هدًى من النافذة ودون حذاء، وعدا فوق حجارة الصوَّان والأعشاب الصيفية، وداس على حزم الحطب دون اكتراث، لمح الجنود ظِلَّ أديب غامضًا كالبرق، فصبوا نحوه جام بنادقهم فسمعته أمه يصرخ من ألمٍ فزجرها زوجها حتى لا تلفت انتباه الجنود.

قَسَّمَ الاقتحامُ البلدةَ وبدت وكأنَّها خَلَت من شبابها على عكس منع التجول الأخير الذي لم يخرج فيه سوى مجموعة أحمد.

امتلأ الفتيةُ بين كروم اللوز والزيتون غيظًا على أديب، وسرت إشاعةٌ أنه استشهد؛ فتقدَّم الفتيةُ نحو مكان سَكَنِهِ مُتخذين من الكروم ستارًا، وسرعان ما لاحظ شادي دماءً على الصخور والتراب، فناداهم بصوت أقرب ما يكون لعواء ذئب، وبعد أن اجتمعوا إليه سار فادي وصالح وعديدون على أثره ليجدوه على ركبتيه وقد أصيب بزنده ولم يكن ليتألم أو يتكلم كعادته، احتضنه فادي بعد أن عاتبه صارخًا (احكِ! نادي! تكلم! يا إنسان!).

أحمـد: كل الطـرق مُقَطَّعـة، وأسـهل شيء ندخـل فيـه للبلـد عنـد الدكتـور صـبري.

أديـب: يهـز رأسـه أنـا بـدي هيـك، ولـو لم أُصـب كنـت سـأدخل البلـد علشـان مـش لازم يفهمـوا أننـا هربنـا منهـم.

دخـل شـادي وخالـد لكشـف الطريـق أمـام أديـب الـذي سـاعده فـادي وصالـح عـلى المشي.

الدكتـور: الرصاصـة أتلفـت الأنسـجة وقضـت عـلى الأوتـار، يجـب أن ننتقـل إلى المستشـفى عـلى وجـه السرعـة.

هرعـت فاطمـة وراضيـة ونسـوة أخريـات نحـو عيـادة البلـدة لحياكـة خدعـةٍ تقـضي إخـراجَ أديـب بسـيارة الإسـعاف وهـو يرتـدي زي فتـاة، لاحظـت راضيـة أن الجنـود يتجهـون نحـو عيـادة البلـدة وبـدوا وكأنهم تسـلموا معلومـات عـن مـكان وجـود أديـب، فصرخـت بأعـلى صوتهـا بعـد أن تأكـدت أن العيـادة هـي وجهتهـم «اهربـوا! اهربـوا! هجمـوا عـلى العيـادة».

وصـل الخـبر إلى مـن في العيـادة، فطلـب منهـم أديـب تركـه فرفضـوا، وحدثـت جلبـة بـين الفتيـة كان مؤداهـا أن خـرج الفتيـة ومعهـم أديـب، فـلا شيء أصعـب عـلى المحـارب مـن تـرك زميلـه خلفـه، لكـن الطرقـات بـدت جميعهـا وكأنهـا مصائـد.

صرخ أديـب عـلى صالـح وفـادي: اتركـوني! وصعـد يعـدو فـوق إحـدى الأسـطح يخطـو فـوق آلام قدميـه وزفـت الأسـطح اللاهبـة، فقـد كان مـا يـزال بـلا نعـلٍ مُدمـى القدمـين.

عـاود جرحـه النـزف، ولم يبتعـد كثيرًا حتـى وجـد البنـادق في وجهـه من كل صـوب، ثـم جـيء بـه عـلى عجـل للجيـب الـذي اسـتقله الكابتـن رامـي خـلال الاقتحـام والـذي حيَّـاه (أبـو أديـب أنـا خلصـت شـغل اليـوم أنـا جيـت بـس علشـانك).

أديب: علشاني وعلشان مريم الصغيرة.

الكابتن رامي: هل تريد شيئًا قبل أن يصطحبك الجنود معهم.

أديب: نعم نفسي فأنا أشعر بالقرف في هذه الأثناء.

ثـم عاجلـه بالبصـاق في وجهـه، ولم يظهـر أديـب بعدهـا وغـاب عـن الأنظـار، وظهـر الجنـود وهـم يجمعـون عتادهـم ويجتمعـون حـول مركباتهـم يهمـون بالانسـحاب سـاعة تجمـع أهـل أديـب عـلى بـاب منزلهـم تتقاذفهـم الإشـاعات مـا بـين أسـير وشـهيد وجريـح، بينـما هـم كذلـك مـرت سـيارات الاقتحـام مسرعـة، وكان أديـب في إحداهـا جالسًـا في وسـط سـيارة الجيـب المكشـوف وظهـر مُدمًـى مـن كلِّ جانـب، وبـدت عينـاه الواسـعتان العنيـدة كعادتهـا تشـيان أن أديبًـا مـا زال صلبًـا.

مـرَّ الجيـب الـذي فيـه أديـب عـلى مهـلٍ فشـاهده الجميـع، وشـاهد هـو أبـاه وأمـه وإخوانـه، ثـم وبعـد أن غـاب الجيـب سرعـان مـا طـلَّ ثانيـة مـن بعيـد، فكـرَّ الحضـور أمـام بيتـه أنهـم أعـادوه، فتقـدَّم الجيب نحـو أطـراف البلدة فاقـترب أهـل أديـب مـن الأسـفلت لعلهـم يفهمـون مـا يحـدث، ثـم سـمعوا صـوت المركبـة العسـكرية تقـترب مسرعـة، وسرعـان مـا أطلَّـت تحمـل الشـؤم،

هكـذا بـدت بعيـون أم أديـب، ومـرَّت مخلفـةً صوتًـا ودخانًا وجسـدًا كريـمًا ألقى بـه الجنـود لقـد كان أديـب.

اعتقـد والـداه والنـاس للوهلـة الأولى أنـه استشـهد جـرَّاء إلقائـه مـن الجيـب المسرع، لكنـه اتضـح فيـما بعـد أن الجنـود أطلقـوا رصاصـة اخترقـت قلبـه الصغـير قبـل أن يلقـوا بـه بوحشـية لا تقـدم عليهـا إلا المسـوخ.

* * *

دمـاء الشـهداء لا تذهـب هـدرًا، ولولاهـا مـا وعـى الغافلـون ولا اسـتفاق النائمـون، فهـي تُصـوِّب رأي الجُمـوع وتُحفِّـز عقولهـم عـلى الرُّقـي؛ فعقـول الشـعوب التـي خاضـت صراعـاتٍ داميـةً في سـالف الأزمـان نمـت واسـتنارت، أمـا عقـول الشـعوب التـي مـرَّت مراحـلُ حياتهـا وادعـةً رتيبـةً فهـي عقـولٌ فقيـرةٌ، وهـذا مـا يقولـه العلـم وتُؤكـده جنـازة أديـب ومريـم والتي تحولـت بهتافاتهـا ومشـاعرها الغاضبـة مـددًا وإلهامًـا لعقـول الحاضريـن الذيـن أعلنـوا أن البلـدة مُحـرَّرة ولـو للحظات، فمشـاعرُ الجمـوع الغاضبـة الموحدة تجاه المحتـل والتـي تحـررت مـن خوفهـا وغفلتهـا لا تُنكر فضـل الشـهداء في يقظتها.

وفاضـت الجنـازة بمخـزون الذكريـات بمريـم وأديـب فذرفـت دمـوع سـميَّة ذكـرى اللعـب مـع مريـم.

سـمية: دعينـي ألعـب قليـلًا أمسـكي لي أخـي الصغـير، قالـت لمريـم والتي سرعـان مـا قبلـت بحنـوّ، ومـضى أُلـق الضحـى والفتيـات تلهـو بالحجلة التـي رُسـمت عـلى الإسـفلت، وكلـما أرادت مريـم أن تلعـب منعهـا بـكاء عـلي

الـذي بـدا مريضًـا، وكذلـك أشـارت رهـف عـلى آيـة يومهـا أن تضـع عـماد أخاهـا وتلعـب، فمريـم التـي مـا زالـت تعتنـي بعـليّ لـن تـدع عـماد يبكـي وهـذا مـا حصـل، فبجسـدها النحيـل ووجههـا الـذي لوَّحتـه الشـمس غالبـت وزن الطفلـين وشـغبهما.

وتذكرَّهـا باقـي أفـراد المجموعـة صغـارًا وكبـارًا عندمـا كانـت تُسـلِّي نفسـها بإحـدى دمـى القـماش عندمـا لا تجـد أطفـالًا حقيقيـين وتكـون بغايـة سرورهـا إذا مـا تـم ترشـيحها لـدور الأم بلعبـة بيـت بيـوت، وإذا لم يتـم ترشـيحها كانـت لا تعـدم حيلـة لإقنـاع الأولاد بذلـك.

وفي أحـد الأيـام تجادلـت هـي وفـادي الـذي رفـض أن تلعـب مريـم دورَ أمـه؛ لأن فـادي كان يكبرهـا بثلاث سـنوات.

مريم: ليش بدكاش إياني أكون أمك؟

فـادي: لأنـك أصغـر منـي، وعلشـان تكـوني أمـي لازم تكوني أكـبر مني.

مريم: خليني بس هالمرة أكون أمك وبعملك كل إشي بدك إياه.

فـادي: بـدي تولديني، فرجيني كيف بـدك تولديني وأنا ولـدت قبلك.

مريم: يا زلمة هيك إنت إنولدت إنت كل يوم بدك تنولد؟!

وتذكَّر وهو يضحك ويبكي.

وبموكبهـا الأخـير نحـو المقـبرة سـار أحمـد وأمامـه راهـب يـردد كلـمات تبـدو عظيمـة وإن لم يفهـم منهـا شـيئًا.

كانـت بلقيـس نصرانيـة لا تُـردد كلامنـا ربوبيًـا كأشـعب النبـي، وكأنهـا عاشـت بقلـب مريـم العـذراء الممتلـئ بحـبٍّ سـماويٍّ خالـص.

وودع كلٌّ مـن عـماد الصغـير وفـادي مريـم عـلى طريقتهـما، حيث أحضر لهـا عـماد لعبتهـا البيتيـة واضعًـا إياهـا عـلى الـتراب فـوق القـبر، ثـم ردَّد: أعلـم أنـك سـوف تخرجـين بعـد أن أذهـب وسـتأخذينها إلى حضنـك، أمـا فـادي فخاطبهـا سـتبقين أمـي، وسـأذكرك مـا بكـى عـلى هـذه الأرض صغـير.

9

هنـاك خائـن حـدَّد مـكان أديـب في العيـادة والخائـن مـن المجموعـة. إذ لم يكـن أحـد يعلـم بفكـرة العيـادة سـوى إسـماعيل وفـادي، وشـادي وخالـد تفرقـا عـن بعضهـما بعـد وصولهـما البلـدة، هكـذا فكـر مـع عبـد الحافـظ الجميع، وكأنهـم تلصصـوا عـلى أفـكار بعضهـم البعـض وسـارت الشـائعات في البلـدة كالثعابـين في الهشـيم؛ مـا دعـا عبـد الحافـظ للجـم هـذه الإشـاعات والتحذيـر مـن خطورتهـا.

عبـد الحافـظ: دولـة مارقـة قويـة تسـتطيع أن تُضلـل شـعبًا أعـزل وتُوقعه في متاهـة اسـتخباراتية معقدة.

أحمد: أنا هيك بقول ومش مقتنع بما يقوله الناس ولو هيك الموضوع بالسخافة هذه ما كان الموساد من أقوى استخبارات العالم.

عبد الحافظ: صحيح، والأصح إنا نقاوم الفهم الخاطئ؛ لأنه الثقافة الخطأ والوعي المزور أساس نجاح الشاباك.

أحمد: علشان هيك زي ما نزلوا المغنيين والشعراء يرجموا حجار وهيك عملوا المعلمين بخصوص التعليم الموازي «الخفي» رد على إغلاق المدارس ومناهج وزارة المعارف الصهيونية لازم يعملوا المثقفين نفس الشيء، وهذا اللّي حدّ الآن ما صار، لازم يكون الأمن ثقافة عامة مش معلومات ثمينة مكنوزة بعقول البعض.

عبد الحافظ: تصديق لكلامك في عام 1977م حدث أول انقلاب في دولة الكيان «انقلاب صامت» قام ضباط الشاباك لتخوفهم من الأحزاب اليمينية وذات الخلفية الدينية ولأسباب خاصة بهم بالتقرب من الحزب الشيوعي، وسربوا لهم بعض وسائلهم التي كُشفت، وكان مما كشفوه كيف تلاعب الشاباك بالأسرى الفلسطينيين بُغية منعهم من تشكيل جسم تنظيمي قوي داخل السجون وكيف كان الشاباك بوقتها يقوم بتشويه كثير من القادة الوطنيين الحقيقيين ورفع من أراد، وهذا لا يعني أن الذين أرادوا إبرازهم كانوا عملاء، لكنهم كانوا بغالبيتهم ضعفاء وعديمي الخبرة ولم يستطيعوا السيطرة على واقعهم الاعتقالي.

وأذكر لك يا أحمد جزئية صغيرة مما تم الإفصاح عنه، فعندما كان الأسير الفلسطيني يحتاج للعلاج في عيادة السجن كان ضباط الشاباك

يستغلون وجوده ويحاولون تجنيده، فقام الأسرى الفلسطينيون بإلزام كل أسير بكتابة تقرير بعد عودته من العيادة يصف فيه ما شاهد في العيادة، وبمن التقى من أسرى الأقسام الأخرى، وعن ماذا سأله ضباط الشاباك إذا ما سألوه، وبعد أن كشف ضباط الشاباك هذا الإجراء ردوا عليه بإجراء أكثر مكرًا مستغلين إجراءات الأسرى الأمنية لصالحهم، فعندما كان يخرج الأسير للعيادة كان يشاهد داخل العيادة الطبيب والممرض وضابطي شاباك حليقي الرأس وقد وضعوا نظاراتهم الشمسية على رؤوسهم ليعاود الأسير فيكتب تقريره على ما رأي، وتكون في الغالب تقارير الأسرى واحدة، لكن عندما يخرج للعيادة أسير مستهدف يريد الشاباك الإساءة إليه بغرض خفض مستواه الوطني بين أقرانه أو تأليب إخوانه عليه أو حتى تصفيته معنويًا أو جسديًا يقوم ضباط الشاباك على الفور بالاختباء، فيعاود هذا الأسير فيكتب في تقريره الصدق، رأيت الممرض والطبيب وبعد مرة أو مرتين أو ثلاث مرات تبدأ الشبهات تدور حول هذا الأسير وكثيرًا ما يتعرض للمساءلة وأية مساءلة! غالبًا ما تكون مهينة ومؤلمة لما تحتويه من إساءة، ولذلك أقول لك ما قلته أنت، لو كان الشابك وعملاؤه بتلك السذاجة التي يتصورها كثير من الناس لكان أفشل الأجهزة في العالم.

* * *

التنظيم السري حُلم راود عبد الحافظ لزمنٍ بعيدٍ وجاءت الانتفاضة لتُوقظ هذا الحلم من جديد؛ فسعى للتواصل مع الخارج وتواصل مع الشبان كلٌّ على انفراد، وعلى غير موعدٍ طلب من صالح وإبراهيم السفر للخارج، وكانت وجهتهم معسكر درعا دون أن يعلم أو يلتقي أحدهم

بالآخر، ودون أن يُسَجَّل دخولهم على جوازات سفرهم، وطلب عبد الحافظ من باقي أفراد المجموعة طلبًا بدا غريبًا، وهو الحد من نشاطاتهم المقاومة وعدم الظهور في المواجهات العلنية بعد أن أشعرهم بأنه يُعِدُّهُم إلى ما هو أكبر، وتَسَلَّم كل عضوٍ في المجموعة نشرةً مكتوبةً احتوت على إرشاداتٍ وتعليماتٍ ضروريةٍ يجب أن تكون من ضمن وعي كلِّ مناضل، وكانت النشراتُ متفاوتةً كلٌّ حسب قدراته وما يناسبه من وجهة نظر عبد الحافظ، ومن أجل اختبارهم لاختيار قائدٍ حقيقيٍّ للمجموعة طلب من جميع من حصلوا على النشرات والإرشادات أن يُقدِّموا له تصوراتهم لصفات المناضل الواعي المتفوق بأدائه وحسه الأمني، ولاحظ عبد الحافظ أن إحدى الأوراق صِيْغَت بشكلٍ عميقٍ وشاملٍ ومُلفتٍ، وكُتِبَ فيها: «علينا اتخاذ بما يخص أمن الفرد من خلال زرع المُثُل والقيم الثورية في صميم ذاته ووسمه بها، فلا نقول له اكتم السر بل يموت ولا تُحدِّثه نفسه بذلك، ولا يسمح لنفسه بالتطفل أو معرفة أكثر من حاجته، ويُحذر من كل ما هو حوله من إنسان وجمادٍ فهو لا يأمنُ مكرَ من جعلوا الحِجَارَة تتنصت، ولا يُلبي دعوةً أو يفتح بابًا دون الأخذ بالأسباب، فهو لا يُستدرَج؛ فثمن المناضل مرتفع للغاية، وهو يُصَفِّي كل ما يسمع ولا يسمح لأحد أن يُشيع ما يَجهل، فإن ماتت روحُ الشعب تحت وقع مسرطنات الإشاعة بَقِيَ المناضلُ وحيدًا، وهو دون حاضنته الشعبية يصبح ظهرُه مكشوفًا للعدو، ولا فائدة تأتي من مناضلٍّ حسُّه ضعيفٌ وشخصيتُه من صوفٍ، ورُوحه بلا غطاءٍ من الأرض ولا السماء، ولا يعرف أين المفر إذا ما أُحيط به وكُشفت خُطَّتُه الأولى، وفي بلادٍ تحيا بجغرافيتها المعزولة

وينقُصُها كلُّ الإمكانيات رأسُ مالِنا فيها شخصٌ مناضلٌ، فيجب أن يدرب على السلاح وعلاجِ الجراح، وينطلق من خلال ثقافةٍ في ظهره لا على لسانه، وأن يعرف الناس من حوله عائلات ومجتمعات، فلا أشد عمى من الغريب فكيف وإن كان غريبًا وطريدًا؟، فعليه أن يعرف عادات ولهجات وطرقات وأسماء مزارعهم، وأن يتحدث لغةَ القوم فهم ماكرون، وأن يقود مركبته بيده ليتسنى له استلام ما شاء من النقاط التي ماتت دون حاجته لأحد لوجستيًا، وليَحْذَر في استلام المال والسلاح فحولها تُدندن جميع مخابرات الأمم، وأخيرًا عليه أن يعلم أن ثمَّة أماكن إن لم تكن سببًا للإيقاع بك كانت سببًا للإساءة لسمعتك، وعليه أن يعلم أن العلاقات الحميمة والشذوذ والكحول والمخدرات ونوعية معينة من الناس ما هي إلا خطايا يصنعها العدو لغاية ماكرة».

عبد الحافظ مخاطبًا إسماعيل: رؤيتُك ثاقبةٌ ولا يوجد لدينا متسعٌ من الوقت، تم تكليفك لقيادة المجموعة، وأوكل إليك معها قيادة منطقة قلقيلية.

10

كـبُر فـادي عـلى وجـع أكـبر مـن وجـع اليُتـم الـذي عاشـه وأبـوه عـلى قيـد الحيـاة، فـلا يذكُـر فـادي أُمَّه راضيـةَ مبتهجـةً، وألبسـتها الحيـاة وجهًا قاسـيًا بـه مـا بـه مـن علقـم العيـش، ويعـزو فـادي جُـلَّ ذلـك الهـم والغـم إلى عمـه مسـعود الـذي لم يُمهـل راضيـة شـهرًا بعـد غيـاب زوجهـا عنهـا حتـى بـات يُريـد اسـتعبادها مدعيًـا أن المـال الـذي أنفقـه زوجهـا عليهـا اسـتدانه منـه ويُريـد سـداده منهـا، ولم يتـوانَ عـن ضربهـا عندمـا كان فـادي صغيـرًا، ولعـلَّ مـا دفـع فـادي للانخـراط بالانتفاضـة معرفتُـه الجيـدة أنهـا تُؤثِّـر عـلى مصالـح زيـدان ومسـعود وأمثالهـم.

فبعد أن برز فادي كناشطٍ في الانتفاضة عاد مسعود لأساليبه القديمة، وأخفت راضية عن فادي ما يقوم به عمه مسعود، لكنه عَلِمَ مِنْ غَيرها، عاشَ أحمد وفادي على كرهٍ لزيدان فاقَ كُلَّ وصفٍ، ولم يكن بالأمرِ الهيِّن إقناع باقي أفراد المجموعة لمثل هكذا رأي ووجهة نظر، فاعتباراتُ الأُسَرِ والعائلات في البلدة مُعقدة ومُحكومة بمصالحَ وأعراف، لكنَّ الأقدار شاءت أن يكون للغرام وظيفة أخرى، ففي لقاء أحمد بمُنى تحتَ أشجار الكينا على أطراف البلدة تحاورا.

منى: حظي سيء مش راح تحب أبوي ولا أبوي راح يحبك.

أحمد: أنا بكل لقاءاتي ما حبيت أجرحك، أبوك... وكان فادي الذي رتب اللقاء وأخذ على عاتقه واجب المراقبة لهم ليس بالبعيد عنهم.

منى: آه قول أبوي عميل، لو أبوي عميل ما استقبل خالد لما أجا علشان يساعده بإسعاف أديب الله يرحمه.

أحمد: وبعد أن اقترب فادي منه، متى أجا خالد عند أبوك؟!

منى: لما أديب كان بالعيادة، ثم تراجع أحمد خطواتٍ للخلف في وقتٍ تسلَّق فادي الجبل غاضبًا يهرف بما سمع، وقبل أن تصل منى كان أحمد وفادي قد حرَّضا أفراد المجموعة باستثناء إسماعيل الذي لم يكن موجودًا، وسُرعان ما صدحت مكبرات الصوت، وجابت المسيرات شوارع البلدة حتى وصلت بالشارع الذي فيه بيت زيدان وهنالك وقفت المشايخ ورؤساء العائلات والذين استطاعوا التأثير على الجمع باستثناء أحمد وفادي.

فالجمـع الـذي هتـف للشـهداء وشُـتام العمـلاء وسرعـان مـا خفـت صوتـه وتلاشـى، لكـنَّ فـادي تقـدم وحـده نحـو بيـت زيـدان مُلثَّـمًا ممتشـقًا خنجرًا كبيرًا ثـم صرخ، بصوتٍ جهورٍ رجَّ البوابة الضخمـة وأرجاء البيـت: «أخـرج يـا عميـل!»، ثـم ثبَّـت بضربـةٍ قويـةٍ خنجـرَه عـلى البوابـة الخشـبية للبيـت، هـذا المشـهد الأخـير كان مـن نصيـب منـى التـي حـضرت متأخـرةً ولم يعلـم فـادي أن زيـدان ورجالـه ومنـه عمـه مسـعود وقفـوا مسـلحين وراء البـاب، وقـد ألـزم زيـدان رجالـه بعـدم الـرد.

إسماعيل: وبعـد أن صفـع أحمـد، مالـو زيـدان عميـل!! وصلـوا خالـد معلومـة؟

بنته منى مقتنعة أنو أبوها عميل؟ لا، إذا رح توصللّوا.

مـع مـين اتفقـت علشـان تواعدهـا؟ ومـين راقبلـك؟ ويـن التقيتـو؟ مـين عميـل أكثر إنـت ولا خالـد؟ هـذا إذا خالـد عميـل؟ أو حتـى زيـدان وإنـت يـا أسـتاذ فـادي بـدك توخـذ الانتفاضـة وسـيلة علشـان تنتقـم مـن مسـعود؟

ماشي أنت وأحمد مكانكم مش بينا تم تجميدكم.

* * *

أحمد: شو هي الانتفاضة.

فادي: أنا وأنت.

أحمـد: صحيـح، خـذني بطريقـك لعنـد راضيـة، تحـدث فـادي بوجـه

تعرفه راضية فهو الغضب الذي لا زيادة بعده.

فادي: والذي اتفق مع أحمد بطريقهم نحو راضية.

بعمري طلبت منك زي باقي الأولاد طلبت وحكيتلك إذا ما بتلبي طلبي بزعل.

راضية: لا لا بعمرك.

فادي: شفتي الخنجر اللي غرسه الملثم بباب زيدان.

راضية: أه يسلموا إيديه.

فادي: هذا أنا، وأنا بعرف إنك اعرفت مشيتي، بسبب اللي بتعرفيه والله وحياة غلاك.

راضية: لا تحلف وقلي شو بدك.

فادي: بدي أحلف، والله وحياتك يا راضية إذا ما بتعملي شو بقلك لأحط خنجري في المرة الجاي هون، ويشير إلى صدره، قولي لمسعود مصاريك جاهزة خمس آلاف دينار، حقي من ورثة أبوي، ويوم الاثنين الجاي لاقيني في البنك ع دوار نابلس.

ومع ساعات الفجر الأولى أنهى فادي وأحمد قصَّ الجرائد بدقة متناهية، ووضعها على شكل رزم وراء أوراق عملة حقيقية، دخلت راضية للبنك في وقت انتظر مسعود خارجًا بطلب منها، فهي العفيفة التي لم يرها أحدٌ تهمس في وجه رجل ذكر منذ غادرها زوجها، انتظرت قليلًا داخل

البنك، وبعد أن شعر مسعود بالملل خرجت راضية وسارت إلى حيث أمرها فادي وأحمد أن تقف، لكن مسعود بجلافته المعتادة وصوته الغليظ أوقفها قائلًا: «هاتي»، أمسك مسعود رزم المال الوهمية وكان ممتلئ الجسم قصيرًا، وأراد أن يبدأ بالعد فحاولت راضية أن تخاطبه، لكنه لم يكترث لها مُحرِّكًا رزمة الأوراق بين أصابعه فشاهد أوراق الجرائد الملونة فصاح من بين الجموع المارة: «شو هذا؟» وبعد أن أراد أن يبطش بها اقتربت منه فتاتان تلبسان البرقع وقالت له إحداهن هذا شر أعمالك يا خائن.

وسرعان ما عرفت السكاكين طريقها لجسده فسقط وليس بعيدًا عن قدمي راضية والتي لم تتوانَ عن ركله وهو يخور خوار الثور.

* * *

تفاجأ الناس من قرارٍ اتخذه إسماعيل أكثر من خبر مقتل مسعود بعد أن قرر خطبة نادية لنفسه، وهو جهدُ سنواتٍ عملت خلاله أُختُه وفيقة على إقناعه بها؛ لكنَّ ردةَ فعله ضدَّ أحمد وفادي وقفت وراء قراره هذا، في حين اعتبر زيدان هذا القرار فرجًا ربانيًا له ولأسرته.

حظي إسماعيل بترحيبٍ وإطراءٍ فاقَ حفاوة إسماعيل بباقي الضيوف.

شعر عبد الحافظ بخيبة أملٍ وأحسَّ أنَّ كُلَّ ما بناه ينهار، وأنَّ أكثر شخصين عوَّل عليهما خيبا ظنه بهم.

عبد الحافظ يخاطب أحمد: ابن رشدي العلي اللي أبوه صبر ستين

عام حتى تزوج وكل هذا في سبيل الثورة ابنه أحمد ما صبر عشر دقائق على معلومة سمعها وبدو يحرق دار زيدان ويحرق البلد معها، وإسماعيل اللي بكتب بقلم قوي وبحكي عن ثقافة الناس إللي طالعة من تحت لسناتهم وبدو يعلم الناس الأمن بتزوّج من بنت زيدان وهو بيعرف إنو إللي بوضعه مش لازم يقرب الشبهات مش علشانه علشان إللي مسؤولية حياتهم مرتبطة بتصرفاته وعلاقاته، وأنا ما بلوم فادي لأني بعرف مين بكون مسعود، أنا بلوم على ردة الفعل إللي قمتو فيها إنت واياه، ويُشير إلى أحمد وفادي.

* * *

بضحكة غاشمة شامتة أو قُل بها ما شئت من الغايات لاقت جميلة فادي فَرِحَةً بما لاقى مسعود، فهي مَن تقاسمت مع فادي حزنه منذ كان صغيرًا، وبعد أن أمعن النظر بفرحها الصادق تحدث لجميلة بحديث لم يعتد أحمد سماعه من قبل.

فادي: اليوم أنا لو متت بكون مبسوط لأني من يوم ما وعيت على الدنيا وتفكيري محصور بثلاث أشياء، مسعود وكره مسعود وحبك وحب راضية وأنا على المفارق ببيع علكة وترمس وأنا براجم حجار، وقبل ما أنام وطول ما أنا صاحي مسجون بثلاث شغلات واليوم صاروا شغلتين.

جميلة وقد اقتربت منه أكثر: «احكي شو بدك تحكي بس تموت هذا مش مسموح تحكيها بدك تموت موت بعدي، واقتربت منه حتى انتفى الاقتراب»

* * *

عبـد الحافـظ: عـلى هـذه الانتفاضـة اجتمعـت كل فئـات الشـعب ولـن أسـمح بعـدم اجتـماع قادتهـا عـلى رأي؛ لأن ديمومتهـا مسـؤوليتهم علشـان هيـك سـتكون أنـت يـا إسـماعيل ومعـك أحمـد متكاملـين وخطاكـم واحـد، هذا القـرار علشـان مـا في وقـت للعمليـة الـلي أمـرت، واعـرف إنه إسـماعيل مسئول عنـك. يحـاول أحمـد الـكلام فيـصرخ فيـه عبـد الحافـظ.

عبـد الحافـظ مكمـلًا: وسـتكون مهمـة المجموعـة الأولى تحريـر الأسرى ولأول مـرة مـن داخـل الأرض المحتلـة، وإسـماعيل سـيكلف الأنسـب بهـذه المهمـة «الأنسـب يـا إسـماعيل» أنـا اليـوم خلـص دوري، هـذه الشـيفرة صـارت ملـك إلكـم وهـذا اللقـاء الـلي جمـع اثنـين مـن المجموعـة مـع بعـض مـش مسـموح لأحـد غيركـم، التسـليم سـيكون في لبنـان مـش في سـوريا واعتـبروا أنـه سـاعة الصفـر قـد بـدأت.

إسماعيل: هذا عمل بدو وقت.

عبـد الحافـظ: وأنـا بحكيلـك مـا تجعـل الوقـت سـيف عـلى رقبتـك ولا اسـتهتار يضيـع في وقتـك.

وبعـد أن غـادر عبـد الحافـظ المكان سـلم إسـماعيل وأحمـد مسدسًـا مـن عيـار 7 ملـم، وحـاوره بحـوارٍ لم يَخلُ مـن القسـوة.

11

تصاعـدت نشـاطات الانتفاضـة، وباتـت سـلطات الاحتـلال تضيـق ذرعًـا بـما يـدور؛ فـزاد اسـتخدام الرصـاص الحـي وتوسَّـع المُحتـل بسياسـات القمـع وتكسـير العظـام وهـدم وإغـلاق المنـازل والشـوارع، حتـى وصـل الحـد بهـم إلى فتـح المحـلات التجاريـة التـي أَغلقـت أبوابَهـا خـلال الإضرابـات وأيـام الحِـداد عـلى الشـهداء عنـوةً مـن خـلال كـسر أقفالهـا وتشريـع أبوابهـا.

ومـا أغـاط المحتـل بصميـم ذاته المستبدة المَشَـاهِد التـي رآها العـالم ورأى مـن خلالهـا شـعبًا يرفـض سـيطرة شـعبٍ آخـر عليـه، ويقـول لـه وللعـالم مـن خـلال الانتفاضـة أنـا أرفضـك وأرفـض حكمـك وهويتك وعلمك وسـلطات

قمعك، فمن ضمن مشاهد الانتفاضة التي تناقلتها الصحافة يومها صورة المارة وهي تبصق على علم دولة الكيان، وأضافت هذه الدولة إلى سياساتها القمعية سياسة الاغتيالات، وبعد أن أخذ نشطاء المجموعة حذرهم ولم يبيتوا في بيوتهم أخذ الكابتن رامي يترصدهم لكن دون جدوى، فالمجموعة بدت حذرة ومنظمة ولا معلومات رَشَحَت من بعد استشهاد أديب إلا النزر اليسير كاعتقال بعض النشطاء العاديين، وجاء يوم الأرض 30 / 3 وفيه تصاعدت المواجهات والتي أُديرت بدقةٍ عاليةٍ لدرجةٍ ظَنَّ فيها جنود الاحتلال أن قيادةً تتحكم في المواجهة من خلال غرفة عمليات حقيقية.

وكان من هؤلاء القادة علاء ذو الجسم الطويل النحيل والذهن اللَّماع، والحقيقةُ أنه أَشْرَفَ على المظاهرات من خلال المظاهرات التي قادها مُلثَّمًا، وما أن انقضت المظاهرات حتى داهمت قوات القمع بيته مهددة بهدمه إن لم يسلم نفسه، وخلال المداهمة لم تقم منتهى من جلستها عن النرجيلة، وخاطبت الكابتن رامي: عندما تحضر جرافاتك سأكمل نفس النرجيلة في الحديقة وإذا علاء سلم نفسه بكون مش ابن بطني.

الكابتن رامي: أنا بوعدك أقتله قدام عينيك.

منتهى: ساعتها راح أزغرد له شهيد دافع عن أرضه ومات فداها.

* * *

منى: حبيبتي أنا بعرف إنك بتحبي علاء وعلاء بحبك وأنت عارفة صحبة علاء مع أحمد بدي أوصِّل لأحمد هذه الرسالة.

فاطمـة: طبعًـا أنـت فاهمـة غلـط، عـلاء حبيبـي أه أنـا حبيبتـه أه، بـس مـش زي مـا أنـت فاهمـة.

منى: مش فاهمة.

فاطمـة: أنـا رضعانـة مـن منتهـى مـع عـلاء وهـو أخـوي بالرضاعـة لا أكثر ولا أقل، وإذا الرسـالة لأحمـد مـش مهمـة بـلا منهـا أنـت عارفـة خطـورة هيـك وضـع.

منـى: أنـت لا تروحـي ولا تيجـي بـس إذا شـفتي عـلاء أعطيـه إياهـا يوصِّلهـا لأحمـد، فقبِلَـت عـلى مضـض.

فبعـد لقـاء منى بأحمـد شعرت بجفـا وإهمـال مـن قِبَـل أحمـد، والغريـب أن زيـدان علـم بهـذا اللقـاء ولم يعاتـب منـى وأشعرها أن كل شيء يسير على ما يـرام في وقـتٍ جدَّت فيـه نادية بنقـل أخبـار منـى وفريـال لزيـدان ناقلةً لـه حتى تفاصيـل الحـوارات التـي دارت مـا بـين البنـت وأمهـا، ومنهـا الحـوار، الـذي أخـبرت فيه منى أمها أنها سـتوصل الرسـالة لأحمد عن طريق عـلاء أخو فاطمة.

*　*　*

زيـدان: أهـلًا وسـهلًا ومرحبًا بالحضور وعلى رأسـهم نسـيبي إسـماعيل، هـذا اجتـماع للقـوى الوطنيـة الموحـدة، وأنـا كقائـد وطنـي بدعـو لقيـادة موحـدة توحـد الجهـود وتدعـم الانتفاضـة، وكان مـا بـين عبـارة وعبـارة يُذَكِّـر الحضـور بوضعـه ومعارفـه وإمكانياتـه وهـو بهـذا لم يكـذب فقـد كان نافذًا.

إسماعيل: والذي حضر ولم يكن جازمًا أن زيدان عميل لم يكن لديه أدنى شك أن زيدان بعيدٌ كل البعد عن الوطنية لكنه وبدهاءٍ ماكرٍ تظاهر بأنه تحت تصرفه ويريد من ذلك صرف الأنظار عن العملية المرتقبة شو المطلوب منا خلال هذا الاجتماع؟

زيدان: ولا شيء احنا ناس ما بنحب المصالح الضيقة والفهم الفئوي في عملنا بدنا ندعم الجميع حتى لو برفضوا دعمنا، وسلامة خيركم المصاري موجودة».

إسماعيل: يعني يا أبو نسب عمرك بعثت مصاري للناس ورموهم بالزبالة، مش عارف كيف رفضوا؟

زيدان: يسلم تمك أنا ما قلت رفضوا حتى لو رفضوا، في ناس تحتكر القيادة والانتفاضة وهذا مش من حقها لازم نتعاون كلنا.

وبعد انتهاء الاجتماع تفاجأ إسماعيل من حديث نادية في الحب والغزل، فبعد أن جالسته على انفراد مطلقةً سهامَ هيامها نحو قلبه، طاب له حديثها والمقام ما أشعر منى بغيظٍ وهي التي عيَّرتها بإعراض شباب البلدة عنها، فها هم خيرة شباب البلدة تحظى بسماع غزلها وما هو أبعد من الغزل.

12

عـلى موعـدٍ غـير مسـبقٍ وفي سـاعات الصبـاح الباكـر التقـى فـادي وعـلاء.

عـلاء: هـذه رسـالة هربـت مـن داخـل السـجن تـشرح سـوء معاملـة اثنـين مـن السـجانين مـع الأسرى لحـدٍّ فـاق تحملهـم، فقـد اعتـادوا الاعتـداء عـلى الأسرى تحديـدًا بعـد عودتهـم مـن العيـادة والبوسـطة وفيـك أن تتخيـل تبعـات الاعتـداء عـلى أسـيرٍ مريـضٍ بالـضرب والإهانـة.

فادي: وكيف بدنا نعرف مين هؤلاء السجانين شكلًا واسمًا؟!

عـلاء: كل شيء موجـود وحـاضر، سـجان بحكولـه أبـو سراج والثـاني القنفـذ، وأنـا قعـدت مـع عميـل بطبـع أوراق عـلى بـاب المقاطعـة وتسرقتـه بالـكلام وعرفـت مـين همـه، وبعـد أن عـرض الخطـة عـلى فـادي.

فادي: علاء إنساك نهائيًا من الترمس الأنسب قهوة.

ويحدثـه سـاخرًا: شـو رأيـك علكـة، شـابين بشـوارب يبيعـوا علكـة علشـان «نتحـرك عالمحـل».

عـلاء: قهـوة قهـوة، وبعـد سـاعات مـن الرصـد جـاوزت المائـة سـاعة لم يمـل فـادي مـن الرصـد والـذي لم يكـن مطلوبًـا رأسـه كعـلاء.

اتخـذ فـادي وعـلاء قرارهمـا بالتنفيـذ. يـوم الخميس كانـا بائعـين جيدين، سـبُل البيـع والمدينـة معًـا وسرعـان مـا أطَّـل أبـو سراج مـن بعيـدٍ، لكنـه كان طويـلًا يشـق صفـوف المـارة ناظـرًا إلى رؤوسـهم وأقدامهـم مـن أعـلى، وكان يكفيهـم النظـر لأعـلى الصفـوف ليعرفـوا وجهـه، فاسـتدار فـادي لحظـة رآه وبـراد القهـوة الضخـم يعاكـس جمـع المـارة نحـو أبـو سراج، فـكان يسـير نحـوه ويـدور تـارةً بظهـره وأخـرى بجنبـه مزاحمًـا جمـوع المـارة، يفعـل ذلـك باندفـاعٍ رشـقٍ حتـى تعامـدا، ورغـم أن فـادي يتنقـل بـبراده الفـضي الكبـير إلا أنـه سـبق عـلاء نحـو أبي سراج، وقعـت عينـا فـادي القويـة بعينـي أبي سراج المجرمتـين فرفـع لـه فـادي البـراد قبالـة عينيـه وخاطبـه: «دمعـة».

أبو سراج: أنت بياع القهوة.

فادي: والذي سكب له بمهارة فنجان قهوة وقدمه له بلباقة.

وقبل أن يشرب أبو سراج قهوته أخرج فادي خنجره من مدخنه البراد، ساعد عامل الطول أبو سراج ليرى بوضوح ما استله فادي، أسرع فادي ليطعن لكن أبو سراج صدَّ الضربة فوقع الخنجر على الأرض ووضع أبو سراج يده على قبضة مسدسه، ولكن علاء عاجله بطعنةٍ لا تُشبه طعنات علاء الذي تمكن من استعادة خنجره وبقفزة أعانته عليها إحدى البسطات حلَّق فوق رأسه وغرس الخنجر في رقبته فانهار كزرافة لكن إحدى نقاط المراقبة شاهدت ما حدث فأطلقوا النار على المارة فلاذ كبار السن والنسوة بالفرار ورشق الفتية الحجارة في كل اتجاه.

* * *

نادية: اسمع هذه الكلبة الصغيرة بدها تعمل اللي براسها واتفقت مع فاطمة لتوصيل رسائلها لأحمد وأمها بتشجعها.

زيدان: خليك اسمعي شو بحكين وخلي الباقي عليَّ.

نادى زيدان فريال، وبعد وقت قصير أخبرها أن منى ممنوع خروجها من البيت، إذا احتاجت شيئًا أحضري لها.

وعندما سمعت منى بالقرار شعرت بأحقاد نادية تمضغ كبدها، ففكرت بانتقام لكنها لم تجد ولم تجد فريال ما تساعدها به رغم حزنها عليها غير أنها قررت إيصال الرسائل لفاطمة بيدها، وبعد أن حملت الرسالة وخرجت من غرفة منى متجهة نحو البوابة ناداها زيدان، وكعادتها كلما رأته أو ناداها اعتراها الخوف، لكن هذه المرة تَلَبَّسها الرعب، فتفاجأت أنه يريدها لنفسه وعلى عجل.

وبعد أن أعادت ارتداء ما كان عليها خاطبها زيدان: «أخرتك عن مشوارك»، فهزت رأسها: «لا خدامتك وشو ما بدك»، وأرادت الاستمرار بالحديث، لكنه أشاح لها بيده فخرجت ولم تكن تدري أن نادية بدَّلت الرسالة.

وَوَصَلَتِ الرِّسالةُ لأحمد وكانت قد صيغت بأيدٍ ماكرة: «كنت بدي أحكيلك في اللقاء عن أشياء كثيرة لكنك استعجلت، مش خالد اللي أجا عالبيت اللي اجا شادي ابن أبو حمزة وكان كله دم بس أنا شفت خالد لما أجا نادى على شادي اللي كان عند أبوي داخل البيت، وبتمنى تراسلني وما تقطعني من رسائلك عن طريق فاطمة، حبيبتك منى».

* * *

وبعد أن استلقى شادي على الأرض واضعًا رأسه في حِجْرِ أمه التي أخذت تُلاعب بحنانها شعره منشدةً له من التراث ما حضرها، وجلس أبو عباس يقرأ القرآن عندما سمع خبطًا على الباب.

عباس: مين؟!

لكنه لم يسمع إلا كلمة افتح، نحن ملثمي الانتفاضة.

وبعدما فتح مرتعدًا سرعان ما دخلوا البيت واتجهوا نحو شادي مترين، خير ليش شو فيه، اترك الولد مالك وماله.

الملثم: احنا بنفذ قرارات الانتفاضة وابنك مطلوب إلنا.

عباس: بسلمكاش إياه، بدي أعرف مين إنت أي تنظيم إنت.

الملثم: هو بأيدي أمينة، كلمتين وبنرجعه.

وخرجوا به ولم يلتفتوا لحديثه الذي غالبته مشاعره.

* * *

تفاصيل الرسالة، التي وصلت لأحمد وما حوته من اتهامات لشادي وبراءةٍ لخالد أدخلت المجموعة بتناقض جديد، ومنعت أي تحرك لنجدة شادي من بين براثن رجالات زيدان، فأسبوع قضى على انتزاعه من حُضن أمه ولا يدري أحد ما حلَّ به.

فادي: قل لأحمد إذا فادي بشوفك راح يقلع قلبك من محله بايديه.

علاء: جاي من عنده والشغلة بتتعقد وبجوز شادي دَخَّلُه وفي عليه شبهة .

فادي: إذا منتهى عميلة أو راضية شادي عميل.

علاء: علشان هيك حبيت أشرب قهوة دمعة على روح القنفذ، وهو يريه هذه المرة مسدس ال 7 ملم الخاص بأحمد.

سرعان ما عادت مكانة خالد تترمم من جديد في وقتٍ رقد فيه شادي ما بين الحياة والموت ولم يصل لتفقده غير فادي وعلاء، وفي أروقة المستشفى نادى علاء فادي ليريه شيئًا.

فادي: من هذه؟

علاء: أم أسير، السجانون أخافوه فضعف وتعاون معهم والأسرى فيما بعد عذبوه، وبعد أن زارته أمه وشاهدت حالته المزرية سقطت مغشيًا عليها .

فادي: المشكلة وين؟

علاء: عند الجلاد؛ لأنه الضحية وهي تصنع ضحية أخرى تبقى ضحية، وأكبر ظلم أنك تكون ضحية، مش لازم نجعل من أنفسنا ضحايا من فخار تتكسر فوق الصخور بلا قيمة، ومن أجل ما تكون راضية أو منتهى مكان هذه الحجة لازم نضحي بالغالي والنفيس ونكون احنا المبادرين.

* * *

فادي: ليش أبوي سافر خارج البلاد؟

راضية: أول مرة بتسأل عن أبوك، من يوم كنت صغير.

فادي: شو في برا فلسطين.

راضية: راح يقاتل في الثورة.

فادي: من شو بتشكي فلسطين، ولا ما فيها ثورة.

راضية: أول مرة بحسك فاقد أبوك.

فـادي: مـا في حـدا مـا بفقـد أبـوه، بـس كل مـا أفكـر بفلسـطين وجمالهـا وعزيمـة شـبابها وهمـي يتصـدوا للجيـش بالحجـارة، بقـول ليـش أبـوي تـرك فلسـطين وسـافر.

راضيـة: الله يطمنـك، كان قلبـي موجعنـي خفـت يـوم مـن الأيـام تسـافر وتتركني.

فـادي: أنـا أسـافر!! أنـا بحـب فلسـطين؛ لأنـك واقفـة عـلى ترابهـا، وبحـب حـالي لإنـك أمـي، بـس ادعيـلي وادعـي لشـادي يعيـش علشـان أمـه المسـكينة.

13

بعـد مقتـل أبـو سراج إجـراءاتٌ عديـدةٌ ثـم اتخاذهـا فقـد باتـت الشرطة والسـجانون لا يتحركـون إلا ضمـن حمايـة أو مجموعـة غـير أن عـلاء وفـادي أرادا النيـل مـن القنفـذ حتـى لـو كان في دبابـة، وبعـد أن انتبـه كلاهمـا للقنفـذ وقـد جلـس في الجيـب العسـكري عـلى المقعـد الخلفـي لحظـة خاطبـه الضابـط قبـل أن يتحـرك الجيـب بـين الجمـوع، ولم يُعـطِ فـادي عـلاء فرصـة الحديـث ليخـبره أنـه رآه.

فادي: شفته، الحق به.

فتقدم علاء وفادي يخاطبه تأكد أن تصوب على رأسه!

استمر الجيب بخط سيره بين جموع المارة يسير ببطء شديد، ووضع علاء يده في معطفه وركض فادي أمامه يسبقه بخطوات، ونادى على علاء: اجهز!

علاء: جاهز، افتح!

فأمسك فادي قبضة الباب بخلسة ولين، ثم تدرج يزيد من قوة يده واضعًا مع مجهوده العضلي شعورًا حرفيًا، فكثيرٌ من الناس يفشل بغايته إذا ما تعامل مع الجمادات والآلات بجمود، ثم سحب دقة باب الجيب بعزيمة جعلها في المنتصف بعد أن جذبه بمرونةٍ حتى لا يعاود الباب الارتداد، فعلى العكس من أبو سراج كان القنفذ منكمشًا خائفًا عديم الحراك، صرخ علاء وهو يطلق النار عليه: «من أجل الأسرى وكرامتهم».

ولم يفته إطلاق النار على الجندي المسلح قبالته والذي كاد أن يردي فادي.

ولاذا بعد أن تأكدا من إصابة القنفذ في مقتلٍ، ولم يكترثا لمصير زميله.

وعلى درب عودتهما سُدَّت الطرقات بالحواجز، فعادا على غير هدى ولم يجدا سوى المشفى ملاذًا، وعلى مقربة من سرير فادي زودهما عبد الحافظ بعنوان صديقه العابودي للمبيت عنده، حتى تأمن درب عودتهم، وعلى الباب تبرع علاء بالحديث قبل سؤال يافا له.

يافا: مش فاهمة عليك، إنت مين بدك بالضبط.

علاء: احنا من طرف عبد الحافظ، جايين نقابل الأستاذ العابودي.

يافا: للأسف هو خارج المنزل، لكن بتقدروا تنتظروه في الداخل.

ولم يكـن مـن الدخـول بُـدّ، فجلسـا وجلسـت في مجلـس لا يحجبهـا عنهـم سـوى اندماجهـا لما كانـت تكتـب وتسـطر عـلى ورقهـا قبـل أن تعـاود وتتأسـف لهـما.

يافـا: هنـاك المطبـخ اعتـبروا أنفسـكم في بيتكـم وأكثـر، وبعـد أن عـاود عابـودي غـير بعيـد لبيتـه الشـبيه بيـتٍ مهجـورٍ كانـا مـا يـزالان في مجلسـهما ويافا كذلـك، إلى أن قطـع اندماجهـا بـما تكتـب حفـاوة أبيهـا بالضيـوف فهـي لم تـره يومًـا بهـذه الحفـاوة مـن قبـل، كان عابـودي حاصـلًا عـلى درجـة مؤرخٍ ويسـكن في ضواحـي موسـكو هـو ويافـا وزوجتـه التـي رفضـت أن تـأتي معه خـلال هذه الزيـارة والتـي أراد مـن خلالهـا تمثيـل مشـاهد تاريخيـة عـلى طريقـة الهيرومنطقـا (العـودة للـوراء والمـكان والأدوات وإعـادة محـاكاة أحـداث تاريخيـة؛ لفهمهـا وفهـم مشـاعر مـن عاشـوها)، لكنـه تفاجـأ أن الرقابـة تمـد أنفهـا حتـى في مثـل هكـذا علـم وفـن.

أمـا يافـا والتـي لم تخـطُ قدماهـا يومًـا بعيـدًا عـن مـسرب الأبويـة سرعـان مـا لفـت نظرهـا الضيفـان فجـأة، وتفاجـأت أكثـر بـما حوتـه عقولهـما مـن ثقافة.

شرح لهما العابودي عن حقيقة تخصصه، فخاطبه علاء.

علاء: تخصصك هذا جميل لو استُخدِمَ لفهم الحاضر لا التاريخ.

عابودي: كيف؟

علاء: نقوم من خلاله بتقييم القيادة الحزبية الفلسطينية من خلال قواعد هذا العلم، ونحاول أن نبرز من يقاتل من أجل فلسطين، ومن يسوق ذاته ونزعاته القبلية التي حكت عنها.

إلا أن العابودي احتفظ بصمته ولم يجب ما أشعر علاء أنه سؤاله بعيد عن قصده.

وخلال السهرة توجهت يافا بثوبها الأسود ووجهها الجميل نحو علاء: لا تعتب على بابا لأنه ما جاوب عن سؤالك هيك بكون ردَّ الباحث؟

علاء: شو يعني باحث؟

يافا: الباحث يشك، والعالِم يتروى، والجاهل يؤكد، هيك حكى أرسطو.

علاء: كلام جميل بس مش في مكانه، المثقف في بلادنا لازم يكون حاضرًا دائمًا وما يشكك ويتردد كثير وإلا ما بظل إلنا شيء من كرامتنا ولا من أرضنا.

وبعد أسبوع مضى جاء موعد الرحيل فجأة كما كان.

علاء: أتمنى إنك تزوري منتهى، وأنا متأكد إنك راح تحبيها وهي كمان راح تحبك.

فأسبوع مضى على علاء ويافا كان حافلًا بسهرات سعيدة انقضت كومضات في ليل طويل.

سيذكر الأسرى لفادي وعلاء صنيعهما هذا الذي كفَّ أيدي البطش عنهما، وبعد أن دخلا البلدة توجها لزيارة أهل شادي، فتبادر إلى أذهانهما فكرة إعادة الاعتبار له ولعائلته، فصدحت مكبرات الصوت في حارات البلدة معلنةً براءة شادي، وعلقت ورقة في المسجد تشهد ببراءته وحسن أخلاقه، ودخل الملثمون بيته ولكن هذه المرة ليقبلوا رأس أمه وأبيه، ويعاهدوهم على استرداد حق شادي ممن ظلموه.

فلا وحدات قياس للظلم داخل النفوس! فكلما عصفت أمواج الظلم اللاهبة في النفوس تردَّد صدى الأنين خلالها، هذا الحد الأعلى للظلم في هذا الكون سرعان ما تأتيه مدى الأقدار ثانية تشق دربها في نفسه.

فالقابضون على جمر الألم هم القوى العظمى على هذا الكوكب لا أحد يداني قدراتهم.

فعباس الذي يصارع ولده الموت ويكابد صلف اللئام الذين سددوا ضربة لسمعة أسرته بتهمة الخيانة والتي هي ثلم في العرض عند أهل فلسطين، وهي تهمة كافية لجعل الجميع يعرضون عنه وعن أسرته في جميع المعاملات الاجتماعية كالزواج والبيع والشراء فلو أن الأرض تبوح بأحمالها لأُطَّت من حملها عباس.

وبعد موقف الأبطال من عائلة عباس نسيت زوجته آلامها وانتشت بالتضامن عندما رأت الحارات وقد فاضت خلف الملثمين بالأطفال والأحباب الذين أحبُّوا ما فعل فادي وعلاء، فلم تتمالك نفسها فأناطت بقبلاتها لثام فادي وعلاء من شدة الفرح.

14

تُنمِّـي الثـورةُ في فهـم الأجيـال مشـاعرَ وأحاسـيسَ عديـدة وتكـون لمظاهرهـا في الوجـدان أصـداءٌ تـتردد.

فأيـام التصعيـد ضـد جنـود المـوت لهـا وقعهـا، فـإذا مـا مـر يـوم دون تصعيـد شـعر الفتيـة والشـباب بضيـق يغشـى صدورهـم، وكذلـك كانـت الرايـات والمناسـبات الوطنيـة تصـل لحـد القداسـة، فمـن العـار أن تمـر ذكـرى الشـهداء دون ردٍّ أو احتفـال أو زيـارة لأسرهـم وفـاء لأرواحهـم، كـما أن الأهـالي اعتـبروا إزالـة الرايـات والشـعارات دون إعـادة رفعهـا فـأل سيء ينـم عـن تراجـع في أداء الانتفاضـة.

وعلى المفرق المؤدي للحي الذي يسكنه فادي ارتفع عامود كهرباء توسَّط دوارًا وأشرف على الساحل الذي أتى بنسميه العليل للعلم الدائم الخفقان بقلب فادي.

وكلما أُزيل العلم حرص الملثمون على إعادته، وكان فادي حريصًا على إعادة رفعه بنفسه، وكان يقول هذه منطقتي وهذا علمي ولا يُسمح لغيره برفعه، فيتسلق على العامود كمارد بيديه القوية، ولم يسبق لأحدٍ أن رفع الأعلام نهارًا؛ فَرَفْعُ العلم تهمةٌ يُحاكَم عليها فاعلُها لمدةٍ تزيد عن ثلاث سنوات.

خلا أراجيف مزَّقت المسرة التي أحدثتها قِتلةُ مسعود، بقي غياب فادي الطويل عن البيت هاجسَ راضية والتي لا تبدو مرتاحة لغيابه ولا لجرأته التي تحدَّث عنها الجميع، وفيما بدت الشمس عصر ذاك اليوم تشق دربها نحو بحر دمٍ هَمَّ فادي بالخروج، لكنه استدار لراضية ليودعها.

فادي: لن أعود قريبًا؛ أريد الرحيل ولي أسبابي ومنها يا أمي جميلة حبيبة عمري لا أريد لها مصيرًا مثل مصيرك، لا أريدها أن تحيا بلا زوج وترى الجميع من حولها سعداء وهي وحدها مغطاة بالتعاسة.

جميلة والتي وصلت على غير موعدٍ: التعاسة هي كلامك هذا، الآن تذكرت هذا الكلام!! وتريد لي مصيرًا كهذا!

فادي: ما أنا وأنت إلا جرحان لطعنة واحدة فلا يهم أيُّنا ينزف أكثر، لكن من الحكمة أن يحيا من استطاع إلى الحياة سبيلًا.

وخـرج فـرأى أربعـة هـواة مـن الملثمـين حاولـوا دون جـدوى تسـلق العامـود يريـدون إعـادة العلـم الـذي أنزلـه الجنـود، فوضـع العلـم بـين كتفيـه داخـل قميصـه وتسـلق، ثـم وقـف عـلى القمـة وأخـرج العلـم فـرأى مـن عليائِـه جميلـة وأمـه في باحـة المنـزل، لم تشـأ جميلـة إخبـار راضيـة بـما تـرى عيناهـا الدامعتـان إلا أن جلبـة الأولاد ودعـاء النسـوة في الخـارج جعلاهـا تنظـر لـتراه صقـرًا كعادتـه يهـوى القمـم.

سرعـان مـا اختلـف صـوت الجمـوع وتحـول صراخًـا رهيبًـا يُـردَّد خلالـه الحضـور اسـم فـادي يحذرونـه الجنود والمستعربين.

أثبـت فـادي رايتـه حيـث يجب أن تكـون، ثم شـاهد المسـتعربين والجنود أقزامًـا أو أقـل، وشـاهد فلسـطين عـلى مـدى بصره وكأنـه يراهـا لأول مرة.

وأسرعـت راضيـة وعـلى وجههـا فـزع الأقـدار، فازعـةً كلبـوة قتـول، ووقفـت جميلـة مكانهـا، صـوَّب جنـودُ الغـدر بنادقهـم نحـو فـادي عـلى أمـل أن يرفـع يديـه، وبمهـارة منـه واتـزان رفـع إحـدى قدميـه لقائـد القناصـين الـذي فهـم معنـى الإشـارة، «لـن تجـد منـى في سـاعتي هـذه إلا افتخـارًا، وهـذه الحـذاء المرفوعـة لـك سـتبقى أعـلى مـن صـوت بنادقـك التـي نبحـت»، وعـلا صـوت راضيـة مناديًـا باسـم فـادي لحظـة تعـدت الرصاصـات العلـم إلى جسـد فـادي الـذي سـال مِسْـكُهُ عـلى علمـه الثابـت في عـلاه، وهبـط إلى ثـراه مـن عليائـه سـيفًا أُغمِـدَ في أرض فلسـطين، فلسـطين أبيـه الـذي مـا رآه.

وهبـط وراضيـة تحـاول أن تتلقـاه فـأسرعُ منهـا إليـه مصيره الـذي لاقاه، رجَّ سـقوط فـادي البلـدة، ولم يبـق أحـد لم يهـرع نحـو مـكان استشـهاده، ومنع

الأهالي الجنود من سحب جثمانه الذي جذبته راضية إليها كغمر سنابل، وإلى جوارها جلست أم شادي التي تكرَّمت شفتاها ليلًا بتقبيله، وحملته الجموع وهتفت لروحه الثائرة وأنشدت للعلم وانحنت لراضية وساروا به نحو تربة الخلود السرمدي.

وكما عاش محط أنظار الجميع إلا من أبيه الذي لم يحضر كعادته، ولطالما تلمَّس فادي حضوره بجميع مناسباته التي لم يحضرها، فقد افتقده في يوم دراسته الأول، ويوم نجح، ويوم مرض، ويوم تشاجر، وفي كل جمعٍ حضر الأولاد وآباؤهم جميعًا في أعيادهم وأفراحهم بكل هذه المناسبات مدَّ فادي بصره لعله يرى أباه إلى أن بدأت الانتفاضة فلم يعد يفتقد أباه باستثناء آخر نظراته وهو في أعلى قمم المجد يهمس في أذن فلسطين ما وعاه.

ورأى الغياب، ضياع الخطا، بالانتظار اللظى، كان هناك فتى ضاع منه دربه والرفيق.

وبعد عام وجد أثر الدرب لأعلى الأرض بل في شامخات القمم.

فبات ينشد خِلَّهُ أن يستفيق باللحاق بدربه الهارب إلى العلياء والصبح.

ناداه: قم يا أخي شُدَّ أزري!

قم نستعيد الموعد المجهول للصبح

فالقدس ملَّت صورة الشفق العجوز في الأفق

وأنا ملني عذابُكِ يا راضية الأقدار والحزن

فما أشرقت شمس ولا غربت إلا عيرتني بجرحك ونقصي.

لم ترتـوِ نفسُ زيـدان الحاقـدة لمقتـل فـادي، فـأراد أن يحـرق قلـب أمـه وأحبابه عليه أكثر، فدلس على الكابتن رامي أنَّ من في القبر شخصٌ آخر غير فادي، ووسط حلكة الليل هاجمت قوات مدججة ترافقها جرافة عسكرية ضخمة قبر فادي يريدون التأكد من شخصه أو موته أمران كلاهما عارٌ على الإنسانية.

فلا يعطِي الطغاةُ فرصة للنسيان، فهم يريدون وجع ضحاياهم على الدوام؛ لأنهم يحتكمون لغريزة البشر الأولى التي استعاروها من الوحوش والضواري.

* * *

على الرغم من جمراتِ المساء التي تكوي فؤاد سليمة كلما غربت شمسُ نهارها، وأشرقت من جديد، كانت تسير لعملها صباحًا ممسكًة بعصاها منهمكًة بعملها تُحاول جعل كل شيء يبدو عاديًا رغم احترارها بهَّم الغياب.

سمعت كما غيرها أكثر من مرة عن مبادرات قدمتها مصر وأمريكا لحل الصراع، جميع هذه الأخبار لم تكن تصل لعقل أحد أو مشاعره،

فانعدام الثقة بالعرب كان يتعمق عامًا بعد عام منذ الهزيمة الأولى عام 1948م، وهي لم تفتقد العرب يومًا كما إخوتها الذين تركوها لمصيرها العمر كله؛ لأنه عابت عليهم جرأتهم على الحرام.

* * *

وصلت الرسالة الثانية من منى كما اقتربَ أحمد، وكانت اجتماعيةً بامتياز تتحدث عن زيارتها لبيت راضية وسليمة ومنتهى، وبدت منى من عباراتها وكأنها الأم تريزا دون أن تنسى كعادتها غزلَها بأحمد، ولم يُشكِّك أحمد برسالتها كونها لم تحوِ خطرًا أمنيًا كالتي سبقتها، تم تلتها رسائلُ أخرى اشتملت على معلوماتٍ جُلّها صحيحة، فلم تُهمل الرسائل حدثًا جرى في البلدة إلا وتناولته مخبرةً إياه بتفاصيل الأفراح والأتراح ونوادر العجائز وطرائف الأصدقاء، ومن بين جميع هذه المعلومات كانت معلومةٌ ذات قيمة ذَكَرتْ فيها لأحمد سماعَها حوارًا ما بين أبيها وراجي عن مداهمة بيتهم وتفتيشه، فهم يعتقدون أنك تملك سلاحًا وقُمْتَ بإخفائه في المنزل، وشرحت منى في رسالتها لأحمد الحوار بتفاصيله الدقيقة، ولم تُخيب رسالتها ظنَّ أحمد، فسرعان ما داهمت قوة كبيرة المنزل وعبثت بمحتوياته، وفي مساء ذلك اليوم تحدث زيدان مع إسماعيل والذي استفاد من زيدان ماديًا ولم يستفد منه زيدان كثيرًا.

زيدان: ليش يا أبو نسب التحريض عليَّ؟

إسماعيل: لكل ناس يوجد محبين وكارهين.

زيدان: أنا تحديدًا بلمس تحريض من جهة المقربين إليَّ.

إسماعيل: وضح لي علشان أقدر أساعدك.

زيدان: يوم ما أجا شادي عندي وما كنت أعرف حقيقة خيانته لكن إللي ضايقني صاحبه خالد نادى عليه بطريقة مشمئزة وكأنه مش شايفني ولا شايف حدا في البيت.

إسماعيل: شو إلنا عند الناس، طول ما هم مش جايبين سيرتنا.

ولم تمضِ سوى أيامٍ حتى هُوجم بيت زيدان ليلًا بعدة زجاجات حارقة، وظهرت النيران تشتعل بشيءٍ من داخل البيت، ولم تتأخر رسالة منى لتخبر أحمد أنها شاهدت خالد وهو يُلقي الزجاجة الحارقة، وكان معه علي، وعلى مرأى من المجموعة استجوب إسماعيلُ خالد بعنفٍ كلامِيٍّ فأقرَّ بفعلته، وكذلك فعل علي فذكر أنَّ خالد قد حرضه على فعلته تلك، وشادي يُصارع غصَّات الموت لا أحد يعرف حقيقة ما جرى يوم استشهاد أبيه ومريم، وفي وقتٍ أصبح فيه خالد في دائرة الشبهات حتى إنه سمع علاء وصالح وهم يتحدثون عن ردٍّ انتقاميٍّ على استشهاد فادي، وسارت الأحداث دون أية مخاطر؛ فلم يكن خالد يعرف مكان مبيت المجموعة ولا سُبُل تمويلها إلا أنه يجتمع من حينٍ لآخر بأحد أعضائها ويتبادل معه عموميات الحديث.

15

كَـبُرَت فاطمـة وجاءَهـا الخُطَّـاب تَـتْرَى فهـي ذاتُ سـمعةٍ وجمـال، فرفضـت حتـى أضعـفَ الرفـضُ موقفَهـا أمـام أهلهـا، فـلا يُوجـد مـبررٌ ولا عِشـقٌ يُـبرر هـذا الرفـض، والبيـت كان يضيـق كلـما كـبرت وكـبر معهـا إخوتهـا إلى أن حـضر لخطبتهـا عبـد النـاصر أسـتاذ التربيـة الإسـلامية في مدرسـة البلـدة، وهـو شـابٌّ متديـنٌ ووطنـيٌّ عـلى حـدٍّ سـواء، وأخبرتـه فاطمـة بعـد تـردد عـن عـلاء أخيهـا بالرضاعـة وعـن قصـة الحـب مـا بـين أحمـد ومنـى التـي لعبـت خلالهـا دور سـاعي البريـد، فَسَرَّهَـا روحـه المرحـة، وعقلـه المنفتـح، كان كثيرًا مـا حـرَّضَ عـلى المواجهـة بطـرقٍ صريحـةٍ وأخـرى خَفِيَّـة؛ لكنـه في آخـر مـرة

حرض فيها الطلاب باغتهم الجنود فلم يتصرف كمعلم ويحمي الطلاب من بطش الجنود، فقامت بدوره سليمة التي انكبت على قائد الوحدة بالصراخ والشتم والإهانات:

شو بدك من الأولاد الصغار؟! فش إلك أولاد في عمرهم.

الضابط: الأولاد ضربوا حجار على الجيش.

سليمة: وانت شو ضربت، أنت ضربت قنابل عليهم، يعني وحدة بوحدة.

وأعانها على تخليصهم نسوةٌ أخرياتٌ حضرنَ على عَجَلٍ لتخليص الأطفال غير أن عبد الناصر لاذ بالفرار ولم يلتفت.

* * *

مستنجدةً ملأ صُراخُها أرجاءَ البيت، وبدا حرف الميم ملتصقًا بشفتي نادية لا يُريد مفارقتها بعد أن خرجت من غُرفتها وكفًّا يديها غارقتان بالدماء، اقتربت منها منى بكبرياءِ سلطانةٍ، وقالت: «تعالي حبيبتي ما تخافي، ودخلت منى لغرفة نادية التي بقيت تتلطف من وراء الباب كجدباء، فأمسكت منى بكأس دم وسكبتها على الأرض وهي تخاطبها تعالي اشربي هذا دم أطفال من الذي يحبه قلبك هذا كوكتيل، دم أديب، مريم، فادي، دم كل إلي ماتوا بسبب خيانتك وخيانة أخوك»، لم تستطع نادية الإجابة من شدة ضيقها.

وفي الصباح شرحت فريال لنادية ما حصل، كان هذا كله مجرد عبث بنت مراهقة وهي تبقى ابنة أخيك مهما حدث، وما حدث لم يزد عن كونه دم دجاج، أنا أتعهد لك بتنظيفه.

نادية: هذه البنت شيطانة، غير طبيعة وأنا رح أحكي لخطيبي إسماعيل ولزيدان ليسفرها خارج البلاد؛ لأنه الحبس مش نافع إلها.

فريال: وإسماعيل بعرف بسرقة الرسائل.

نادية: أنا سيدة مجتمع محترمة، الكل بيعرف مكانتي وقدري.

فريال: حبيبتي ما في حدا بيقدر يحمل ثلاث بطيخات بإيد واحدة.

نادية: شو قصدك؟

فريال: صفناز أختك كانت أفضل منك؛ لأنها حملت بطيخة واحدة، أما أنت خدعت أهل البلد وإسماعيل ونفسك، أختك صفناز حكت أهل البلد حَوَش ما بنعاش معهم، ورحلت، وكانت صريحة معهم ومع نفسها، أما أنت كنت تتحدثي عن مساعدة الفقراء والمساكين وأنت جالسة وراء مكتب الجمعية ولما كنت تدخلي للبيت تشاركي صفناز سخريتها واستهزاءها بأهالي البلدة.

* * *

وصلت رسالة جديدة لأحمد غير أن المقصود فيها ليس أحمد ففحواها الحديث كله عن علاء.

«أحمد مش عارفة شو بدي أحكيلك، حلمي أبو علاء مريض ويوشك على الموت»، ولم تنسَ نصيبها من الهوى، فكتبت له ما اعتقد هو أن منى من كتبت.

وبعد همسٍ وتردد، أخبر أحمد علاء بما وصل من أخبار سيئة تخص أباه.

وتصادف ذلك مع حضور خالد الذي لم يؤكد ذلك الخبر بشكل مباشر، لكنه ادعى رؤية الكثيرين يدخلون ويخرجون من بيت علاء.

ومنذ رحل فادي لم تخرج راضية من بيتها، واليوم فتح باب بيتها لأول مرة فبقي مشرعًا لوقت قبل أن تخرج بخطا طفلة تعلمت المشي حديثًا، وخطت أول خطاها نحو العامود الذي ما زال يحمل رائحة فادي التي علقت على العلم فنظرت حول مسقط جسده الأخير، وجلست متكئة على العامود بلا دمع أو كلام، وعبثًا حاولت جميلة الجلوس على بساط أحضرته ليقيها حر الأسفلت.

يافا: أنت ليش ما جاوبت على سؤال علاء؟!

العابودي: أنا ما نسيت سؤال علاء، الله يرحمه، وهو سؤال يُجاب عنه كل يوم في الصحافة وفي اجتماعات الفصائل مرات ومرات، وجميعهم يحاولون يقدمون إجابة لهذا السؤال، لكن أفضل من أجاب عليه علاء؛ لأنه كتب إجابته بدمه، ونحى كل ميوله الحزبية والقبلية عندما انتمى إلى فلسطين، أما عن تحليل شخصية القيادة الفلسطينية وفق الخلفيات

والنزاعـات التـي سـبقت انتماءهـم للثـورة، فمـن هـؤلاء القيـادة مـن كان مسـلمًا أو مسـيحيًا ومنهـم اليسـاري والفـلاح والإقطاعـي والبـدوي، جميـع هـؤلاء قاتلـوا مـن أجـل القضيـة، وفي مرحلـة أخـرى عكسـوا ميولهـم ونزعاتهـم وحتى مورثاتهـم الدينيـة عـلى القضيـة، ولم نعـد نعلـم مـن هـو الوطنـي والثابـت مـن الحـزبي والفئـوي، وكثـيرًا مـا تصبـح هـذه المبـادئ الحزبيـة والعـادات الأسريـة التـي عكسـت ميولهـا عـلى الثـورة ثوابـت، وتصبـح الثوابـت في نظـر هـذه الأحـزاب الأسريـة أمـرًا قابـلًا للتفـاوض، وهـؤلاء القـادة صاغـوا عـبر الزمـن المـاضي مبادئهـم هـذه بعبـارات مُثلى غطَّت عـلى ميولهم التـي ألصقوهـا بالثورة، وأرهبـوا منتقديهـم بكلـماتٍ عُظمـى لـو اجتمـع كلُّ ثـوار العـالم مـا تلفظـوا ولـو بجـزء منهـا، أمـا عـلاء والذيـن معـه مـن الفقـراء والمسـتضعفين يصـدرون مـن واقـع تكتـب فيـه المبـادئ والثوابـت بالدمـاء، ولا ينظـرون للثـورة مـن نوافـذ بيوتهـم الفارهـة، وفي دائـرة عـلاء ومـن معـه تُصْهَـرُ كُلُّ القبليـات وجميـعُ الميول؛ لأن النـاس بهـذه الأماكـن ضمائرُهـم واحدة، ومصائرُهـم مشـتركة، ومشـاعرُهم متقاربـة، ويفهمـون الـصراع بوعيهـم الواقـع لا بأمانيهـم الذهبيـة.

وأتمنـى يـا ابنتـي أن تُسـامحيني لأني لم أجبـه يومهـا؛ لأن عـلاء كان مـا يـزال يكتـب بالإجابـة.

16

جميلـة التـي اعتـادت أن تسـترق النظـر خـارج البيـت لمراقبـة راضيـة لاحظـت مـن خطـا مسرعًـا داخـل بيت منتهى، فدفعهـا الفضـول للنظـر فنادته مـن خلفـه عـلاء.

علاء: جميلة وين أهلي؟!

جميلـة: اليـوم عـرس فاطمـة، وجميـع أهلـك في العـرس ومعهـم بنـت اسـمها يافـا بتحكـي أنهـا مـن طرفـك.

علاء: وأبوي شو أحواله؟!

جميلة: أبوك ما شاء الله عليه، سليم معافى.

علاء: منى بعثت رسالة لأحمد أنه على وشك الموت.

جميلة: الأعمار بيد الله، بتقدر تطمئن عليه، كان حلمي ما يزال شبه نائم عندما بدأ بالسؤال يريد أن يعرف من دخل المنزل، فأسرع علاء نحوه وقبله وطلب منه أن يسامحه، وخرج فسمع صوت أغاني الفرح التي أخذت طابعًا تراثيًا ووطنيًا، ووقف على غير إرادته، فهذه فاطمة التي لا مناص للقلب من مشاركتها فرحها، وتمنت جميلة لو أنه يشيح بنظره بعيدًا عن مكان استشهاد فادي، لكنه فعل وكصبي صغير ركض نحو راضية واضعًا رأسه في حجرها مقبلًا ما استطاع من يديها ورأسها، فبكته وكان آخر عهدها بالبكاء، فنادته جميلة بنصف ابتسامة ودمع جلي.

جميلة: أسرع، يلا هيك صار خطر عليك! ثم دخل بقميصه الأبيض وبنطاله الأزرق وشعره المسرح للخلف بين الحضور، فوقفت فاطمة من خوف عليه وفرح للقائه، وكثيرًا ما تمنت عليه أن يمسك بيدها يوم فرحها عند مغادرتها بيت والدها، وقبلته أمه منتهى من شدة الفرح من فمه وأحاط به إخوانه الصغار من كل جانب، وأرادت فاطمة النزول عن المنصة لتسأله إن كان هناك من يحرسه، لكن حواجز الأعراف منعتها. تحدث أحد الفتية إلى علاء والذي لم يكن يسمع ما يريد من أصوات الحضور والغناء، وبعد أن اقترب من أذنه أخبره أن شابًا غريبًا يقف على الباب يسأل عنك، ففي درب هبوطه للبلدة اتفق علاء مع خالد أن يرسل له عند حدوث أي خطر من يحذِّره.

علاء: حكى الك من طرف مين؟!

الفتى: لا، لا، آه بيقول من طرف خالد.

أسرع علاء نحو الباب بلحظة اعتصرت فيها الأراجيف قلب أمه منتهى ومسرة الفرح على حد سواء، وصل علاء فوجد شابًا وقد انحنى راكعًا وقد بدا متعبًا أو أصيب بخطب ما، فسأله علاء، مين بدك؟ وشو صاير معك؟

المستعرب: علاء؟ ورفع رأسه رويدًا.

علاء: نعم وقبل أن ينطق بكلام آخر أطلق المستعرب النار عليه وفر مسرعًا، سقط علاء على ركبتيه وصمت الفرح وتبدلت أهازيجه إلى نحيب، وضع علاء يديه على رؤوس إخوته الذين أحاطوا به وأحاطت قوات كبيرة بالبيت لكن الفتية رشقوهم بزجاجات العصير والحجارة، أغمض علاء عينيه على صورة منتهى المليئة بالكلام الذي جادت به المقل، فهي لم تستطع أن تقول له أنها أحبت يافا وأن زوجها تشتاقه وأنه حب عمرها فهي لم تتزوج حلمي عن حب، لكنها شعرت به أمومة مع علاء، وبعدما كان الفرح والغناء والرقص حال الحضور تبدل كل ذلك بعد أن فاضت روح علاء فتشابكت الدموع والمشاعر الحزينة وكأن الحزن شبكة عنكبوت اصطادت الجميع.

شعرت منتهى أن الجنود قد أحاطوا بالبيت لانتزاع جثمان علاء، فخاطبت الحضور: احموا العريس وخرجت بزيها الأنيق الذي ارتدته

للفرح، فشاهدت الكابتن رامي فتقدمت إليه والجنود يصوبون بنادقهم نحو رأسها وبنظرة ملأها العزة والدمع الأسود وفت بوعدها الذي قطعته على نفسها فأطلقت زغرودة مدوية فعلت كل جهدها ألا يظهر خلالها حزن فشاتة الأعداء مصيبة أخرى.

وعادت مسرعة لتقف بجوار جثمان علاء حتى لا تسرق منها يد يهوذا التي لا ترتوي من دماء قرابينها البشرية، فمنتهى ما زالت تذكر أمها التي ماتت كمدا وهي تسعى لاسترداد جثمان أخيها جمال الذي استشهد في مطار اللد.

لكن تبين من حديث الكابتن رامي أنهم يريدون فقط التأكد من موت علاء، وأراد إظهار بعض العطف الإنساني لعله يرى من خلال حزن منتهى الذي استعصى عليه.

يصعب على كل ذي عقل سليم في هذا العالم أن يتفهم استخدام المستعربين لاقتحام عرس في حي شعبي فقير، فشعبة المستعربين التي تم تأسيسها داخل التنظيم العسكري الصهيوني البلماخ سنة 1943م بمبادرة من قائد البلماخ إسحاق سديه ونائبة يغآل ألون كان الهدف منه تشغيل عملاء يهود قادرين على الاندماج والعمل لفترات طويلة أو قصيرة داخل التجمعات السكنية العربية في نطاق مهمات استخباراتية أو عمليات سرية وكانت الوحدة تعمل حتى عام 1951م تحت مسمى شاحر «الفجر»، ولم يكن هذا التفكير العبقري في الإجرام من إبداع دولة الكيان بل صنيعه دولة استعمارية عظمى، ففي عام 1941م أثناء ثورة رشيد عالي الكيلاني في

العـراق شـكلت بريطانيـا مجموعـة مكونـة مـن أربعة أشـخاص من قـادة عصابة إتسـل وتـم اختيارهـم مـن بـين صفـوف الطوائـف الشرقيـة وبعـد تدريبهـم على أداء الصـلاة في المسـجد الأقـصى للظهـور في مظهـر العـرب والمسـلمين تـم تكليفهـم بمهمـة خطـف مفتـى فلسـطين الحـاج أمـين الحسـيني والـذي كان يقيـم حينهـا في العـراق، وحـين وصـول أفـراد المجموعـة إلى مطار الحبانيـة للبدء بتنفيـذ المهمـة لقـي قائدهـم دافيـد رزيئيـل مصرعـه جـراء الطائـرات الألمانيـة.

بنصـف نظـرة حـيرة ونصفهـا الآخـر حـزن رمـق عابـودي يافـا التـي لاحظتـه فضحكـت وزادت في البـكاء.

يافـا: مـش علشـان فقدتـو أنـا ببكـي، ببكـي علشـان هـذه الصـورة الـلي أعطـاني إياهـا عـلاء، ودخـل للدنيـا وتركهـا ومـا تـرك غـير هـذه الصـورة الصغـيرة.

عابودي: اهتمي فيها.

يافـا: كيـف هيـك بعيـش شـاب رائـع ومـا يحظـى بـأي فرصـة أو فرحـة بحياتـه، ولا حتـى فرصـة الدفـاع عـن نفسـه لحظـة استشـهاده.

عابودي: بعد العيد بنزورهم وبعدها بنحضر حالنا للسفر.

❋ ❋ ❋

تعـافى شـادي وخطـا أعـرج نحـو بـاب البيـت ولم يكـن يعلـم مـا حـل بفـادي وعـلاء، وأخبرتـه أمـه لاحقًـا بعـد أن مهـدت لـه ولحسـن حظهـا وصلت

أم جميل قبل أن تسوء حالته فهو يعاني من الرهاب بعد كل ما حدث له.

ثم خاطبت أم جميل أم حمزة (والدة شادي): هذه رسالة من منى لأحمد أعطها لسليمة، واحكِ لها تموت وتوصلها لأحمد.

فقد رأت فريال ومنى إيصال رسالة لأحمد توضح له كل ما جرى وما عرفتاه سيزيل الشبهة عنها سيطلعه على حقيقة ما جرى، ويجب أن يتم إيصال الرسالة بحذر، فزيدان ومن معه لا يثقون بكل من يدخل المنزل، وبعض من يسكن فيه، ولم تتأخر أم حمزة التي أشارت على سليمة بالخروج معها لإيصال الرسالة، ولكن سليمة رفضت وطلبت منها أن تترك الأمر عليها، والتي سلمت الرسالة لعبد الناصر وطلبت منه قبل كل شيء أن يقرأ ما كتب فيها، فقرأ وحاول أن يموه بكلامه فنكزته بعصاها، وبعد أن سكت وسكت عويلها طلبت منه أمرًا لا لمنى أن يصحبها معه، فسارا بغلس وتركا الفجر على يمينها يتعقد على مهل، وبعد اجتماعهما بأحمد وبعد أن أفرغت شوقها في حضرته سلمه عبد الناصر رسالة دون أن يخبره بمعرفة سليمة بمضمونها كما طلبت منه فهي لا تخشاه، لكن لحاجة في نفسها أخفت عليه علمها، ووقفت وراء غايتها تراقبه وهو يقرأ محاولة اصطياد صريح عينه، وبعد أن انتهى من الرسالة قامت وقد أخذت جوابًا لما أتت لأجله.

هناك شيء حقيقي اسمه قراءة الأفكار يمتاز به قدامى المحاربين وأسرى الحرب، وبعض الأسر المميزة، ويعينهم على ذلك معارف العيون التي تسكب ما بها بعيون الحاضرين حولها، فقد رأت وسمعت من

أحمد ما لم يحدثها به، فعاودت دون أن يشعر بها عبد الناصر، لكنها رأت إسماعيل دون أن ينتبه إليها، كان مشغولًا بالتحضير لهجوم على خط إحدى المستوطنات، وضع إسماعيل بهذا الهجوم عبوتين ناسفتين على مسافة متباعدة في مكان وتوقيت محدد، فانفجرت الأولى في باص الجنود مما ألحق به أضرارًا مادية وأصيب بعض الجنود إصابات بسيطة، واكتشفت العبوة التي لم تنفجر وعلى الفور أحضر الكابتن رامي إسماعيل الذي دارت حوله الشبهات وأوقفه على مقربه شديدة من العبوة التي لم تنفجر والتي بقيت مخبأة كما وضعها إسماعيل، وأخذ الكابتن رامي يراقبه من بعيد، فلم يكن من إسماعيل إلا أن أخذ يضع إصبعه بأنفه ويخرجه كأجدب، فخلى الكابتن رامي سبيله، وأراد إسماعيل التمويه أكثر فزاد من زياراته لبيت صهره زيدان، وكان قد مضى على زواجه من نادية زمن ليس بالبعيد، كانت وجهة نظر إسماعيل بعدم التعرض لزيدان فيها الكثير من الصواب، حذر زيدان خالد الذي بدا وكأن وضعه الاقتصادي في تحسن من تربص أحمد به الذي وضع خطة لخطفه والتحقيق معه، وكمن له على مدخل البلدة، لكنه لم يمر، فكان القرار أن يذهبوا له بأنفسهم وسط البلدة، ففي ساحة الكراجات تحديدًا حيث يعمل على سيارة أجرة، وبينما كان خالد يغير اتجاه سيارته طرقت إحدى الفتيات الزجاج الخلفي للسيارة، وبعد أن تحاورت معه وسط ضجيج الحافلات والمارة فتح لها الباب وجلست على المقعد الخلفي وبجانبها صديقتها، وطلبت منه إيصالها، إلى مدينة جنين، وعلى مقربة من أطراف المدينة قفزت التي من المفترض أنها فتاة كنمر مرن على صورة شادي الذي وضع باروكة والقليل من مواد التجميل، ومسدسه

على عنق خالد الذي عرفه، فوقف وفي نيته تخليص نفسه منه، فشادي ما يزال يعاني آثار التعذيب والصدمة وسرعان ما أمسك بيد شادي التي يحمل فيها المسدس وأبعده عن رأسه، لكن هذا الوضع لم يدم طويلًا فحطم أحمد زجاج السيارة الأمامي المحاذي لخالد ببندقية قديمة ووضعها برأسه، ثم أخرجه شبه متشنج، وبعد أن وصلوا إلى حيث يجب اقتياده أخبره أحمد بالمعلومات التي وصلت وكأنها وصلت من زيدان للإساءة إليه، وإحراق ورقته وأخبره أيضًا أنه لن يقبل بأقل من معرفة كل شيء من لحظة خيانته الأولى إلى هذه اللحظة.

خالد الذي بدأ كلامه منهارًا: لقد حاولوا معي بكل الطرق والوسائل، فابتزوني بزلات أهلي المقربين، وبأخطاء أيام لهوة مصغرة، وبإلصاق تهمة كبيرة بي، وكل ما خطر وسيخطر ببالك طوال حياتك من إغراءات قدموها لي، لكني والله رفضت إلى يوم صار زيدان يرسل بطلبي لبيته وكان دائمًا ما يركز على إهمالكم لي وأنكم قيادة متعجرفة لا يهمكم إلا صالح أنفسكم، وصور لي أنه هو الوطني الصادق، والتزمت معه على هذا الأساس وطلب مني نقل نقود وسلاح ومهمات أخرى كنت مخلصًا له بأدائها رغم مشاهدتي في أحد الأيام راجي وشخصيات مريبة أخرى في بيت زيدان.

وجاء يوم استشهاد أديب فتمنيت رؤية زيدان حتى أقول له إنه خائن ابن خائن، وأثناء عودتي من المقبرة قال أحدهم لي اركب، وتوجهت السيارة بي إلى بيت على رأس جبل وبدا البيت كأنه حصن منيع، انتهى بي المطاف داخل رواق، سمعت ضحكات عالية وما بدا وكأنه خبط على

طاولـة، وفي الأثنـاء مـر رجـل آخـر مـن رجـالات زيـدان كان خارجًـا مـن إحـدى الغـرف خاطـب زميلـه الـذي برفقتـه: أدخلـوه فهـم بانتظـاره.

دخـل خالـد للغرفـة وكان زيـدان أول مـن رآه مـن الحضـور، لكنـه لم يكـن شـجاعًا كـما توقـع نفسـه فاكتفـى بصمـت الخائـف المغضـب، وبعـد أن انقطـع الصـوت، شـاهد خالـد الكابتـن رامـي وراجـي فـزاغ بـصره، ثـم عـاودت لـه حواسـه التـي فقدهـا رويـدًا رويـدًا.

جـرت الدمـاء تحـت جلـد شـادي بألـوان عـدة أزرق وأحمـر وأسـود ثـم نطقـت الشـياطين: مالـك شـادي مـش عـلى بعضـك؟

نطق شادي يعتريه ذل أنا ما قتلتهوش ولا بلغتكم عنه.

كان زيدان يريد الدخول بعصف الكلام إلا أن الكابتن رامي نهاه.

راجي: صحيح أنت ما قتلته أنت لو بدك تقتله لقتلته من قبل.

خالـد: لكـن أديـب حـاول يقـاوم عشـان هيـك مـات، أنـا ولا مـرة وصلـت أخبـار لليهـود.

الكابتـن رامـي: يتدخـل ويريـه المعلومـات الصغيـرة وفلتـان لسـانه أمـام زيـدان وراجـي، وقـد وثقـت في ملـف كل حسـب تاريخـه ومكانـه.

زيـدان: خالـد اسـمعني، هـذا لـلي احنـا بنعملـه مـش لعـب ولاد صغـار، ولا تسـلية، هـذا العمـل فيـه راسـك وسـمعة كل أهلـك، وبصراحـة أحمـد والمجموعـة الآن بدهـم إيـاك وأنـت الآن لازم تفهـم كـم أنـت بخطـر.

وبعدين مين قال إنك أنت إلي بلغ عن أديب، اللي بلغ عن أديب شادي، ولازم يوخد عقابه والكل في البلد بتعرف أنه هو الخائن.

رقع خالد راسه وكأنه بدأ يستعيد ثقته بنفسه.

راجي: أنت بأمان، ما حدا راح يتعرض لك يا شادي، الألحان، وبضحكة ثلاثية تفاوتت درجة الإهانة في ثناياها ما بين هازئ ومستهزئ غادر خالد اللقاء.

توقف صالح عن الكتابة مع توقف خالد عن الكلام في وقت التقت عيون شادي بعيون خالد الكسيرة.

استمر زيدان بخلط الأوراق في البلدة بعد سماعه أن خالدًا مفقود، فعلم أنه سيكون هناك فضيحة يذكر فيها اسمه واسم منى إذا ما اعترف خالد عن تزوير الرسائل، وكان لابد من فعلٍ ما يصرف النظر عن هذا الفعلة.

وسعى زيدان بالإساءة إلى فاطمة بعد أن أشاع في البلدة أن الرسالة التي وصلت إلى علاء ودفعته للقدوم إلى البلد وصلته من فاطمة والتي لم يكن الكثير يعرف في البلدة أنها أخته في الرضاعة.

وأرسل زيدان عن طريق إسماعيل أنه يملك اعترافات أحد أقرباء فاطمة ويقصد ابن خالتها، وهو شاب أجدب أخفاه زيدان عن الأنظار لأيام ومارس عليه التخويف خلالها ولقنه بكل ما أراد قوله، ولم يكن أحمد يذكر اسم منى بما يسيء لها، لكن الخائن ينكر وجود القيم على

الكوكب لفقده إياها لذاته، فحصلت تسوية سريعة بألا تذكر منى بسوء وألا يسعى زيدان للنيل من سمعة فاطمة، مرت الأمور كما أراد أحمد إلا من جهة عبد الناصر خطيب فاطمة الذي سمع الإشاعات بحكم قربه من المجموعة، اطلع على ما أتى به إسماعيل من زيدان يفاوض به أحمد فتأثر سلبًا وساءت العلاقة بينه وبين فاطمة. وما أن أنهى خطيب الجمعة الصلاة حتى دخل ملثمون المسجد وقرأ أحمد اعترافات خالد وركز على إظهار خالد المتسبب الأول والوحيد بالإبلاغ عن علاء وأديب والتسبب في استشهاد الطفلة مريم، وذكر البيان أن خالد كان موجودًا معهم بحكم صداقتهم وأنه ذهب لوكر العملاء وسلم المعلومات بنفسه فلا أحد قبله ولا بعده ساعد في ارسال معلومة للعدو، وأنه باسم الشعب والانتفاضة حكمت عليه العدالة الثورية بالإعدام، وأن أهله سيعلمون بمكان جثمانه على أن لا يدفن بمقبرة البلدة التي حوت الشهداء الأطهار الذين تسبب هو بقتلهم، وفي صبيحة اليوم التالي لم يحتج أهله للبحث عن جثمانه. كان خالد قد علق على أحد أعمدة الكهرباء مشنوقًا وشاهده أهل أديب وعلاء بصمت مريح.

وبعد كل ما حدث تحسنت العلاقة بين أحمد وإسماعيل وأكد له بأنه ملتزم بما كلفه به بخصوص الأسرى وبادله إسماعيل مشاعره الطيبة بمثلها، وأوصى به عبد الصمد أحد القادة السريين في التنظيم وقد كان عبد الصمد شديد الكره لأحمد بناء على ما سمع عنه من عدم التزامه ومعارضته لإسماعيل، ومن الأسباب التي دعته لعدم تفضيله على أقرانه وكرهه إحساسه أنه شيخ كأبيه، ولكنه يمر بمجرد أزمة إلحادية عابرة، ولم

يكن عبد الصمد مجانبًا للصواب كليًا، فعبد الصمد استطاع تذكيره بشيء من تدينها للحظي. بعد عدة حوارات وإن كانت بسيطة بطابعها إلا أنها لفتت مشاعر أحمد، فقد كان عبد الناصر ذكيًا لاختيار دعوته للإيمان أكثر منه صدقه وإخلاصه لمعتقداته، وفي إحدى الليالي شاهد أحمد أضواء تتلألأ في السماء على شكل ثلاث دوائر ثاقبة السطوع، فسأل أحمد عبد الناصر عنها:

فأجاب: هذه إشارات بحرية.

أحمد: هذا كلام جميل، سألت في صغري الشيخ عنها فقال لي إنها الملائكة، وهذا جعلني أبتعد عن الدين من يومها.

عبد الناصر: كان ذلك رأي رجل دين، ولم يكن رأي الدين.

وحدثه أحمد عن يوم ذهب فيه يريد زيارة بائعة هوى وكان مسرعًا؛ لأنها كانت تسكن إحدى القرى الزراعية اليهودية (مستوطنة) القريبة من البلدة، وكان الحارس عربيًا، فخاطب أحمد بفظاظة: ما الذي أتى بك في هذا الجو الماطر والعاصف؟!

أحمد: جئت لزيارة روز، فتغير لونه وغضب أكثر، وما حاجتك إليها؟

أحمد: وعدتني بعمل.

الحارس: أيها عمل مع فتاة مصابة بالإيدز، لكن أحمد كذبه.

فطلب منه عندما يصل إلى بيتها أن ينظر إلى اللوحة المكتوبة والمعلقة قرب الباب، وبالفعل وصل أحمد وإذا هي فتاة بالحجر الصحي.

عبد الناصر: ما هو رأيك بهذا الذي حدث؟!

أحمد: صدفة جميلة.

عبد الناصر: بل ربما دعوة جميلة من دعوات سليمة التي وعدتك بها ولكل شعرة بجسمك.

ولم ينسَ أحمد في آخر لقاء معه مع عبد الناصر أن يسأله عن زيارة القبور، ولم يخفِ مشاعره وخوفه من زيارة أصدقائه الشهداء، فشجعه عبد الناصر على ذلك وقال له إن النبي ﷺ كان آخر عهده في الحياة زيارة قبور أصحابه الشهداء.

أحمد: وهل كان كل أصحابه شهداء؟

عبد الناصر: صلى الله عليه وسلم، تقريبًا.

أحمد: وهل زيارتهم صلاة؟

عبد الناصر: شيء من هذا القبيل.

17

بقيت الانتفاضة بصمودها عزاء لجميع المظلومين؛ لمنتهى ولسليمة ولمن شاركهم في الجراح، وهم يرون الانتفاضة بروحها العالية خفاقة كراية بني في ظلالها، ينسون جراحهم ويزيدون من إصرارهم على الاستمرار بها حتى نيل كل ما حلموا به، ولجمع التبرعات وقفت شاحنة كبيرة وسط البلدة، فهرع الناس لنجدة أهلهم في المخيمات، ووقفوا صفًا طويلًا وقد حمل كل واحد منهم ما جادت به نفسه، فراقب أحمد ومن معه من أفراد المجموعة منتهى وهي تتبرع بأرغفة خبز صنعتها بنفسها فيما بقيت راضية جالسة مسندة ظهرها على الحائط القريب من العمود الذي استشهد

عليه فادي، ذاك العمود الذي ستتعاقب عليه راضية مع الفصول بحرها وبردها، فرقت عيناه لها، ومن جماليات الانتفاضة أن الشعب يختار قراراته وأفعاله بإرادة جمعية، إرادة يترجمونها واقعًا سواء كانوا وحدانا أم زرافات.

فالجميع يهرع للعطاء كما لو أنهم جاؤوا لينالوا الجائزة، كذلك في المظاهرات والمواجهات ما يدعو الناس لها في زمن الانتفاضة ليس معنويًا فقط كما يعتقد البعض بل تربويًا وثقافيًا.

ومن جماليات هذه الثقافة والتربية إسقاطها لسلطة الآباء والأسلاف والتي لطالما صاغت الخضوع للأعيان والسادات.

وقد شعر زيدان بهذا الجور للانتفاضة بعد فشله بالإساءة لفاطمة، وتصدي رموز الانتفاضة لمثل هكذا صنيع مخزٍ ما زاد زيدان غلًا على الانتفاضة وفاطمة على حدٍ سواء.

فلم تصدق إشاعات زيدان من قبل غالبية أهالي البلدة باستثناء عبد الناصر الذي تكفيه الشبهة بالحكم على شريكة حياته المستقبلية فأنهى علاقته بها. وكذلك فعل أحمد معه، فقد قطع علاقته به، بعد أن حاول إقناعه مرارًا لسوء قراره.

ومع خلاف أحمد مع عبد الناصر عادت حالته الروحية للانتكاس مرة أخرى، وظهر مشتتًا لا يعلم من أين يبدأ.

صالح: هل أخبروك أنه تم اعتقال إسماعيل.

أحمد: سيتم الإفراج عنه كما كل مرة.

صالح: يجب أن تنفذ ما أمرك به.

أحمد: أنا أرسلت له رسالة قبل اعتقاله أنه بيني وبين العدو عدو يشل حركتي «كيف بدي أروح أعمل للأسرى وزيدان يتربص بشرف فاطمة وأهلي وإخواني تحت رحمته».

صالح: اعمل اللي لازم ينعمل لأنك أنت القائد في هذا الوقت، فعبد الصمد اعتقلوه مع إسماعيل.

وما بين تحريض أهل خالد على الأخذ بالثأر والإساءة لفاطمة أمضى زيدان وقته، وهبت رياح فتنة على البلدة زكمت أنف كل ذي ضمير، فتولى زيدان التحريض ما بين أهل خالد وأفراد المجموعة وأهلهم، بينما أخذ راجي على عاتقه الإساءة لفاطمة، فكتب راجي رسائل وضعت في طريق فاطمة وشعارات كتبت قبالة بيتها يبتزها فيها، وطلب منها أن يلتقيها بحجة الاستيضاح منها عن بعض التساؤلات وهددها إذا لم تستجب سيقوم بتوزيع بيانات وكتابة شعارات تفضح خيانتها، وفي ردة فعل سريعة من أحمد نزل لبيت والدها وأحضر معه وجهاء المنطقة والبلدة وطلب يدها للزواج، فوافق والدها، لكن فاطمة خاطبت الحضور مخالفة الأعراف ورفضت بعد أن اعتذرت من والدها، وبعد أن هم أحمد بالانسحاب دخل إلى حيث جلست فاطمة، فساءها رؤيته فهي في حيرة من أمرها فلا تدري بأي أعمال تساء، ففي عشقه الحرام الذي بلاها بتبعاته أم بتصرفه الأخير الذي رأت فيه تصرفًا أهوج كمن يريد التستر على فضيحة لم تحدث بحركة

غبية معروف ما المقصود منها، لكنه طلب منها طلبًا بدا غريبًا فقد طالبها إذا ما جاءتها رسالة جديدة يطلب فيها أحدهم مقابلتها أن تقبل وأن لا تذهب للقائه قبل إخباره بذلك، وأن تطلب مجيء منى معها إن أمكن لحضور اللقاء.

* * *

أخبر زيدان فريال أن منى ستسافر للدراسة إلى الأردن شاءت أم أبت، فسمعت حديث أبيها وهي تخاطب أحمد بما جادت به خبايا روحها، لم أرحل يا أحمد وأنت معي، وفي قلبي وشخصي، فأنت من دلني على ذاتي، فقد كنت ظلًا وأنت من أمسك بيد هذا الظل الضائع وأوصله لهيكل جسده، ولن أكون فريال أخرى مهما علت أسوار هذا البيت، وبدا لها جليًا أنها فاشلة ولا محالة بلقاء أحمد. وعلى مدار أيام خلت سألت نفسها أكثر من مرة إن كانت ستقبل بمساعدة أحمد إن هو طلب منها المساعدة بقتل أبيها، وكان جوابها مع نفسها دائمًا نعم، لكنها سرعان ما تستدرك لن يكون ذلك حلًا، وليس بعيدًا عن بيتها وبخلاف توقعاتها أخبرها أحمد في بيت أم جميل وفي لقاء خاطف ما فعل ويفعل أبوها من فساد في البلدة، وتحديدًا ما يحدث لفاطمة الآن بسبب رسائل منى وأحمد، ولم يطلب منها المساعدة لأسباب تخص مروءته، وشعر أنه تسرع بعد أن أخبرها بمعرفته أن رجال أبيها يقفون وراء الإساءة لفاطمة، وهي بدورها لم تكذب خبرًا ما سمعت من أحمد، فسرعان ما انفعلت أمام نادية وطلبت منها أن توقف هذه المهزلة والتي أسرعت تخبر أخاها زيدان بما سمعت من منى، فقرر الانضمام إلى رامي بالإساءة لفاطمة ما دامت هذه الإساءة تخرج الذئاب

مـن أوكارهـا، فأوصـل زيـدان لفاطمـة عـن طريـق ابـن خالتهـا الأجـدب كل مـا أراد إيصالـه مـن إبتـزازات وإسـاءات، ومـن ضمـن مـا أوصلـه لفاطمـة حوارهـا مـع أحمـد فشـعرت بالغبـاء للمـرة الثالثـة لأنهـا قبلـت الإصغـاء لأحمد، وأرسـلت مـع ابـن خالتهـا أنهـا تريـد مقابلـة القائـد العـام للانتفاضـة كـما سـمى نفسـه في رسـائله التـي ابتزهـا بهـا.

18

بـلا فـرح أو سرور أبلغـت جميلـة خـبر خطبتهـا لابـن عمهـا المقيـم في الكويـت، ورغـم أنهـا بكـت وتوسـلت لأهلهـا قبـول أعذارهـا لكـن دون جـدوى، وبعـد أن يئسـت مـن أهلهـا الذيـن أظهـروا لهـا جميـع خصائـص العائلـة التي كانـت تجهلهـا مـن شـدة غـير معتـادة أو قسـوة خفيـت عليهـا مـن قبـل، وجـاءت جميلـة اليـوم تتمنـى عـلى فاطمـة أن ترعـى شـؤون راضيـة، وكأن فاطمـة براحـة بـال وسـعة عيـش يمكنهـا مـن فعـل ذلـك، فأجابتهـا اتركـي كل شيء عـلى الله وارحـلي، وليرعانـا الخالـق جميعًـا برعايتـه.

لم يبـقَ سـوى يومـين عـلى آخـر موعـدٍ أنذرهـا فيـه المتربـص بهـا وإذا لم تحـضر بعـد عشـاء يـوم الخميـس سـيفعل مـا يحلـو لـه، وخـلال هـذه الأيـام المتبقيـة تواجـد أحمـد وإبراهيـم في نابلـس لعلـه يحظـى بفرصـة النيـل مـن زيـدان هنـاك وبعـد خيبـة أملهـم باتـوا حيـث أمرهـم عبـد الحافـظ في بيـت عابـودي، والـذي كان قـد حـزم حقائبـه ليغـادر قريبًـا.

عابـودي: لقـد جئتـم في الوقـت المناسـب، فقـد كنـت في حـيرة مـن أمـري، فلـم أكـن أعلـم كيـف سـأوصل المفتـاح لعبـد الحافـظ.

أحمد: سأفعل.

وشـاهد صـورًا لعـلاء وفـادي التقطتهـا معهـم يافـا، فدهـش كطفـل، وتوجـه نحوهـا دون إذن كمـن يريـد عناقهـا.

عابـودي: كانـا هنـا، ولقـد فاجئـوني بآفاق وعيهـم اللامحدودة وتناقشـت معهـم عن كتـابي الجديـد، «اكتـمال التاريخ».

أحمـد: إذا ممكـن تكـون كريـم معنـا مثـل مـا كنـت معهـم وتـشرح لنـا الفـارق مـا بـين كتابـك وكتـب التاريـخ الأخـرى.

عابـودي: بدايـة كتـابي رح يكـون مختـص بتاريـخ فلسـطين الحديـث والأهـم أنـه يمتـاز بأسـلوب جديـد لتدريـس التاريـخ، أسـلوب يجعـل علـم التاريـخ والتاريـخ ممتعًـا وغـير ممـل ودراسـته مفعمـة؛ لأنـه يقـوم بتمثيلـه كـما كان، ويـدرس جميـع عنـاصره التـي كانـت في ذلـك الوقـت، والأهـم أن هـذا الكتـاب يزيـل الصـور النمطيـة التـي رسـمتها الأفـلام القبليـة، وهـو يـشرك

النـاس بتاريخهـم ويجعلهـم يشـاهدونه أمامهـم كـما كان وكـما هـو حتـى يحبـوه بواقعـه الـذي كان عليـه دون أن يخجلـوا منـه أو يبالغـوا فيـه، وهـذا كلـه مـن خـلال جهـد تجـرد لـه معـي مجموعـة مـن العلـماء (علـماء تاريـخ كبـار) لدراسـة وتمثيـل مشـاهد معينـة وتوثيقهـا ككتـاب سـينمائي مؤرشـف.

وقبـل أن يسـأل أحمـد أو يعلـق دخل أصحاب الأسـتاذ عابـودي لوداعه، وبـدا عـدم التجانـس مـن البدايـة واضحًـا مـا بـين جمـع غفيـر مـن المثقفـين وآخـر مـن المناضلـين الميدانيـين، ولم يـترك جمـع المثقفـين عبـارة أو كلمـة يصعـب عـلى أحمـد وإبراهيـم فهمهـا إلا قالوهـا ودار الحديـث بمثاليـة لم تخـدع أحمـد وإبراهيـم اللذيـن كانـا يـأكلان مـن صحـن واحـد أحضرتـه لهـما يافـا لتعزمهـما عـلى أكلـة البسـارة، فـأكلا وسـمعا بتـأنٍ، ومـن بـين جمـع المثقفـين تحـدث أبـو لـؤي وكان واضحـا مـن بدايـة حديثـه أنـه يُعـرِّض بالـكلام، فتوجـه بكلامـه لأحمـد جاعـلًا منـه جسرًا لآذان الحضـور.

أبـو لـؤي: أنـا عمـر أحمـد، درسـت في مـدارس الوطـن بطـول وعـرض البـلاد أكثـر مـن ربـع قـرن، وأنـا في سـلك التدريـس واكتشـفت أن التعليـم في بلادنـا كفـر بـكل القيـم والثوابـت والأعـراف والمبـادئ، واكتشـفت كـمان أنـه التعليـم هـو الطبقيـة الجديـدة. ففـي العشرينـات أيـام مـا كان التعليـم مختلفًـا تفاجـأ المسـتعمر مـن تماسـك الشـعوب العربيـة رغـم جراحهـا وبحـوار متخيل، أتخيلـه الآن، جـرى مـا بـين ضابـط فـاشي بطرابلـس الغـرب وآخـر بريطـاني يسـكن بحيفـا، وخـلال مراسـلتهما لبعضهـما البعـض يقـول الفـاشي للبريطـاني مـا هـذا الشـعب المسـمى بالشـعب العـربي، إذا مـا قـال أحدهـم لا إلـه إلا الله

هنا ردَّ عليه الآخر من عندكم يقول محمد رسول الله. فما الحل في نظرك؟ وأنتم سادة الاستعمار ومن وضع أسسه.

البريطاني: الطبقية هي الحل، لكن وللأسف لم يعد لها مكان على الأرض بشكلها القديم فلنجعلها في رؤوسهم، وليكن العلم الذي تسمو به الأمم نحو السماء المرساة التي تغوص في الوحل بهم لتعيق حركة مراكبهم. فاختار المستعمر يومها أعدادًا عشوائية من جميع الشرائح وابتعثهم للتعليم فعادوا بشكل ومستوى اجتماعي مختلف عما كانوا عليه قبل، وفجأة صار الجميع يريد أن يتعلم الوالد يحث ولده ليل نهار تعلم وكن طبيبًا، لماذا؟ والآخر يريد لأخيه أن يكون مهندسًا ليكون أخا المهندس، وهكذا، فكانوا هيكلًا علميًا بداخله مورست كل رذائل المروءة وعلى مذبحه سالت دماء الانتماء، هذا الهيكل يطل علينا اليوم بأفواج من المناضلين لهم أجساد ثوار وقلوب إقطاعيين.

أحمد: الذي كف عن الطعام بعد أن تحدث أبو لؤي، أنا أشكرك لأنك الوحيد الذي تحدث بكلام أفهمه في هذا المجلس.

إبراهيم: وبعد أن هز رأسه بعجب وأنا أضم صوتي لصوتك، ويضحك معه أحمد أن أبو لؤي لم يشفِ غليله بعد.

العابودي: أنا أؤكد أن ثقافة هؤلاء الشباب أفضل من ثقافتي لكني أتمنى عليهم أن يتذكروا دائمًا أن صراعنا مع هؤلاء الناس «مش عشر دقائق».

إبراهيـم: أيضـا مشـكلة هـؤلاء النـاس مـش مـع عـشرة أو عشريـن مـن أبنـاء الشـعب الفلسـطيني. ثـم تحـدث ربيـح رجـل أعـمال مـن سـكان البلـدة يسـكن خارجهـا وهـو مثقـف وذو أخـلاق دمثـة، لكـن قابليتـه للاسـتعمار حـاضرة ومهيـأة عـلى الـدوام للخضـوع.

أحمد: أستاذنا ربيح، ما خطر بباله ولا شيء حابب يقوله؟

ربيح: ما بدي أتقلها عليك.

أحمد: حملك خفيف، أسأل ما تريد.

ربيـح: سـؤالي الـك يـا ابـن رشـدي العـلي، مـين البطـل بـكل هـذا الـلي بصـير؟!

أحمـد: مـا في بطـل، وبعـد أن انفـض المجلـس وبلباقـة وأدب انتقـد عابـدوي إجابـة أحمـد المقتضبـة عـلى سـؤال ربيـح والـذي اعتبرهـا إجابـة صـدق أريـد بهـا إهانـة صديـق عزيـز، ثـم أراه دفـترًا مجلـدًا وكتـب عليـه الحضـور تعليقاتهـم عـلى كتابـه الجديـد، وبعـد أن اعتـذر أحمـد عـن كتابـة أي تعليـق وأحجـم عـن ذلـك مراعـاة لمشـاعر مضيفـه جـاءه الإذن مريحًـا في آخـر مـرة عـرض عليـه أن يكتـب تعليقـه.

العابـودي: اكتـب إن لم يكـن رأيـك في الكتـاب اكتـب رأيـك بأصحـابي، ولـن أقـرأ مـا كتبـت الآن ولا بعـد خروجـك، لكـن عندمـا تحـط طائـرتي في موسـكو سـوف أقـرأ مـا كتبـت.

مضت المسامرة هادئة، وقبل أن يخلد أحمد إلى النوم كتب ما بدا قاسيًا بنظر إبراهيم، لكنه مضى بقلمه حرًا كما خطاه، وكتب «يا لك من غِر تغرَّك الكلمات ومن قاموا دليل الذل في الآفاق، ومن غابوا بالشهوة عن البلاد ونزفها المعتاد وانفراط عقد العباد، خلق من القباحة تقلد الثورة بذخًا وامتعاضًا».

وفي الصباح أطلعت يافا أحمد وإبراهيم على رسم لعلاء بأسلوب يشبه رسومات عصر النهضة لأوروبا.

أحمد: هذا الأزعر صار عنده صورتين.

يافا: رح أهديها لمنتهى قبل أن أسافر إلى موسكو.

أحمد: لكن موسكو بعيدة إذا ما احتجنا كمان صورة.

يافا: إن شاء الله ما تحتاج.

أحمد: أنا قصدي ترسمي علاء على يافطة كبيرة تثبت على مدخل الحي في المكان اللي عاش فيه؛ لأنه صورته ضروري تبقي بالمطر والشمس وفوق دخنة الكوتشوك والغاز المسيل للدموع مش على الرف، باختصار أنت رسمت علاء على طريقتك، وأنا رسمت علاء لوحة على طريقتي.

يافا: ممكن أشوفها اللوحة.

أحمد: رسمت بخاطري، وكانت رسمتي له تقول:

الخوف والدماء لوحة

الثورة والمنفى كلمات

العتمة والزنزانة أدوات

لا داعي للريشة والمعجم

كي نشرح مرسوم الأرواح

من مروا في صدر أحبتهم صلاح،

من مازال الحي لصورتهم معتاد

والعمر أزهد في اللوحة والكلمات

إنه العرض الأبهى

لا يكمل،

لا يعلو فوق رديء الدنيا

وفي الخلق

سوى بالاستشهاد

آيتهم لا تتلى جهرًا

لوحتهم لا ترسم قوسًا

سيرتهم لا تؤخذ نصا

إلا بعد وميض العمر

إلا بعد كلمة سر

سر الأسرار المسكون بعباد النور

سر إن يدفن ينبت أسرار

وبوحًا جديًا زاده إبهام

ذاك المخضوب بالحناء

على صفحة الفصول

شروقًا وغروبًا

وعلى صفحة الماء

أميرًا من ماس

دليل الطير لأرض الشمس

علاء

يافا: أنت رسمت كيف هو، وأنا رسمته كيف شفته.

❋ ❋ ❋

عاد أحمد للبلدة وحرَّضه الخوف الداكن في وجوه ضيوف عابودي

على الانفجار ثورة، فحذر المجموعة ومن حضر رديفًا لهم من البلدات والقرى المجاورة، وأراد أحمد للهجوم أن يكون مهرجانًا شعبيًا فنسق مع أنصاره داخل البلدة الذين تواصلوا من أجل مثل هكذا اللحظات باستثناء فاطمة التي سارت نحو بيت زيدان بموعدها المشؤوم تمطر الأرض ملحًا من عيونها الباكية، فهي لم تتوقع يومًا نجاح أحمد بمهمة، فهو دائمًا متأخرًا بخطوة، وإن تقدم تصرف بغباء، ثم انعطف باتجاه بيت زيدان والذي أخذ هو ورجاله تدابيرهم، واستعداداتهم خشية وجود كمين أو هجوم محتمل فعندما أطلت عالمًا من الألم والجراح، فتح أحد رجالات زيدان لها بابًا صغيرًا مركب داخل البوابة الضخمة، يحتاج من يدخل منه الانحناء قليلًا، ترددت قليلًا قبل أن تحرك قدماها هامة بالدخول ببطء عندما سمعت صوتًا أشبه بهدير دبابة ورافق هذا الصوت صراخًا باسمها كان صوتًا عميقًا مجلجلًا مثل صوت انهيار جبل، وقفز أحمد مثل نمر من المفاصل وهو يطلق النار نحو الحارس الذي حاول إطلاق النار نحوه فأصابه، وبحركة خاطفة أبعد أحمد فاطمة من أمام جرافة ضخمة أحضرها أحمد معه من إحدى المحاجر القريبة من البلدة، وقامت الجرافة بإسقاط البوابة الضخمة محدثة صوتًا أشبه بصوت انفجار.

انتشر الملثمون في المنزل وألقوا القبض على راجي ومدير المدرسة، وبحثوا عن زيدان داخل غرف وأزقة المنزل دون جدوى فلم يعثروا له على أثر.

وقفت فريال ونادية ومنى في وسط المنزل دون أن يتوجه لهن أحمد، وبعد أن بحث أحمد ومن معه مطولًا واستشعروا خطورة بقائهم في المنزل لوقت أطول، طلب أحمد من أم جميل والتي أحضرها الثوار معهم عمدًا

حتى يتواصلوا عن طريقها مع نساء البلد مغادرة المنزل؛ لأنه سيقوم بإحراقه، أخبرها وهو يمعن النظر في وجه نادية الذي تغير للأسود فجأة.

أحمد: أم جميل احكي لهذه المحترمة أخت الخائن إنه مطلوب منها تثبت أنها محترمة، وإلا قسمًا بالله لأعدمها بعد ربع ساعة بجانب العمود اللي استشهد عليه فادي.

أم جميل مخاطبة نادية: إذا كان أبوك هون رح يموت حرق.

ولم تصمد نادية بعد أن أنهت أم جميل كلامها. وخاطبت أم جميل متوسلة أن يبقى أحمد على حياتها وهي تردد بالمخبأ تحت الأرض في غرفة الغلة.

لقم أحمد سلاحه من جديد واتجه حيث اختبأ زيدان ليخرجه كما لو كان أرنبًا أكله الجرب، ممسكًا إياه من شعره وثيابه التي علق عليها جميع ما كان في المخبأ من غبار.

عندما شاهد زيدان منى توسل إليها أن تطلب من أحمد العفو عنه غير أن أحمد بهذه الليلة تحديدًا بدا أبعد ما يكون عن العاطفة التي حكمت ديار عقله من قبل، وظهر وكأنه لم ير منى قبل هذا اليوم وأكثر من شعر بهذا الإحساس منى التي تمنت لو أن أباها يترك لها ولو موقفًا صغيرًا يشعرها بالفخر تجاهه، كأن يموت رجلًا لكن هذا أيضًا لم يحدث، ومنحه أحمد الذي أصدر حكمًا عليه بالموت فرصة معقولة شرط أن تختارها إحدى الجميلات الحاضرات في هذه الليلة.

ولم تكـن هـذه الجميلـة إحـدى الثـلاث الواقفـات أمامـه، بـل كانـت فاطمـة التـي مـن المفـترض أن تكـون الصفيـة والمحظيـة لزيـدان هـذه الليلـة، لكـن الأقـدار شـاءت أن تكـون القاضيـة عليـه.

نـادى أحمـد بصـوت لا يخلـو مـن توتـر عـلى فاطمـة التـي أجابتـه بنظـرات غـير التـي سـارت بهـا نحـو هـذا البيـت، نظـرات لا تخلـو مـن حقـد أو إصرار عـلى الانتقـام، وتوجهـت نحـو زيـدان بعـد أن خلعـت مـا في رجلهـا مـن حـذاء واضعـة إيـاه قـرب فمـه الـذي اتسـع مـن شـد أحمـد لشـعره بقـوة.

فاطمـة مخاطبـة زيـدان: شرفـك وشرف أهلـك مـا يسـاوي هـذه، وعمره مـا بنقـاس شرفي وشرف أهـلي فيـك لأنـك خايـن.

وفي وقـت توسـلت أم جميـل لأحمـد أن لا يحـرق المنـزل فأعطاهـا مـا تمنـت، وأخـرج راجـي ومديـر المدرسـة وزيـدان ومعصـوبي الأعـين ويُضربـان وسـط إطـلاق نـار متقطـع.

ومـع سـاعات الفجـر الأولى علقـت حـذاء فاطمـة فـوق رؤوس العمـلاء الثلاثـة، وقيـل إن ملثـمًا أوقفهـم صفًـا وطلـب منهـم رص رؤوسـهم عـلى بعضهـا البعـض، ثـم أطلـق رصاصـة واحـدة مـن بندقيـة كنديـة الصنـع، فقتـل الثلاثـة وعلقـوا، وقيـل إن كل واحـد منهـم أعـدم عـلى حـدة إلا أن أحـدًا حتـى اليـوم لا يعلـم كيـف أعدمـوا، فالظـلام كان شـديدًا كـما الصبـح الـذي اشـتعل فيـه فتيـل المواجهـات في البلـدة، والتـي اسـتمرت حتـى سـاعات المسـاء، وبعـد أن صـب الكابتـن رامـي غضبـه وحقـده عـلى أهـالي البلـدة صبًـا، أصـدر أوامـره بهـدم منـزل أحمـد.

لم تقف الأمور عند هذا الحد، وعجت المستشفيات بالجرحى والمصابين بالاختناق، وراقب أحمد وإبراهيم البلدة من فوق تلة أشرفت على جراحها، فشاهداها حزينة كئيبة وكأن ليلًا فوق ليل المدافع حل واستحلَّ في قلوب الضحايا ألف فرح وألف خِلَّة.

إبراهيم: لم يعد هناك عدو ما بينك وبين العدو.

أحمد: لست بحاجة لأن تذكرني، لكن لابد من دخول البلدة والمبيت بها قبل كل شيء.

عزرائيل: اسمي عزرائيل أنا أعرفك على عملي قبل كل شيء عفوًا كمان اسمي.

إسماعيل: لكن أنا مش حابب أعرفك على اسمي في تحد واضح للمحقق المغرور.

عزرائيل: أنت هيك اختصرت الطريق عليَّ.

فخرج ولم يتأخر، ومعه رجلان يظهر على وجوههما ملامح الإجرام وقد أحضرا له لباسًا برتقاليًا، وطلبوا منه ارتداءه واقتادوه بعدها إلى غرفة التعذيب أو ما يسمى بالتحقيق العسكري، ومع ساعات الفجر الأولى استعاد إسماعيل وعيه وهو ملقى على أرضية الزنزانة تمسح على وجنتيه أصوات تكبيرات العيد جراحه برقة وحنان.

بدأ أحمد وصالح وإبراهيم زيارتهم للبلدة من مكان غير متوقع

صبيحة يوم العيد، جلست راضية على قبر فادي، وقد تجمعت داخل ثوبها وكأنها كومة من عظام، بينما وقفت منتهى تنظر لقبر علاء وهي ممسكة بزنديها كمن تعاني البرد في وقت أعلنت فيه منى وفريال براءتهما من زيدان حيًا وميتًا، فوقفتا مع أهالي الشهداء بعيدًا عن قبر زيدان الذي جاور مكب النفايات صدفة، وطل أحمد وأصدقاؤه بسلاحهم ووعثائهم وسط الدعاء والبكاء، والترحاب، وفضول الصغار الذين جاؤوا من أجل الحلوى والقطع النقدية وحمل بعضهم أكاليل زهر كتب عليها بعض الكلمات التي بدت باهتة ولم يحاول أحمد قراءتها، وإن انتزع منها ما أراد من زهور، ونثرها على قبر فادي أمام ناظر راضية الصاعد في الغفلة والأحزان، وشدته سليمة من ذراعه وحولها إخوانه الذين تعاقبوا على احتضانه، وطلبت منه أن يقوم بزيارة قبر أبيه، ففعل وشعر أن ثمة قوة تؤثر فيه، تحثه على البقاء قرب القبر الذي تفاجأ بتجمع ملثمين حملوا رايات خضراء ووقفوا أمامه، وقام فيهم شيخ فصيح اللسان خطيبًا يشرح عن تاريخ رشدي العلي الذي اعتبره الشيخ مجاهدًا ومن مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين، ولم يستطع أحمد إنكار موقفهم هذا الذي استرعى اهتمامه، وكانت فاطمة ممن انحازوا لحملة الرايات حول قبر رشدي العلي.

وسط هذه الأجواء الروحانية، شعر أحمد بهدِّي ما رش على جسده وشعر بشيء من الحبور تفاجأ به قلبه، لكنه شعر أيضًا أنه بقي أكثر من اللازم وقرر الانسحاب، وقد أراد البلدة والتمويه بالانسحاب على حد سواء، فأظهر للجميع أنه مغادر نحو الشرق جاعلًا البلدة خلفه، وكانت ثمة قبضات من غبش السماء ما تزال تملأ المدى، وفوق السهول

كان الضباب يتسلل مثل شيخ كسول، فوقفت منى عمدًا بدرب انسحابه الوهمي.

منى: أحمد دلني ماذا أفعل بنفسي.

أحمد: افعلي ما كنت تودين فعله قبل هذا الوضع الذي أنت به الآن.

منى: امنحني لقاء واحدًا بربك يا أحمد.

أحمد: إن كان في العمر بقية.

وبخفة يد وذكاء أخذت من معصمه إسوارة جلد رفيع وقالت سأستلفها منك، فأبعد يدها عنه بأدب واحترام، لكنها عانقته بانكسار ثم عادت وخلت سبيله، وقالت لقد فعلت؛ لأني أعلم أنك لن تسعى للقائي بعد هذا اليوم.

أحمد: اتركي الأيام تمضي بنا كما فعلت دائمًا.

ثم غاب عنها مقتحمًا نور الفجر الذي دبَّ بصرها عنه، فودعته بخاطرها تقول:

صدق أن العمر رحيل، طويل الذيول نحيل المُنى

تدور به يا طاويًا صفيح البلاد المتقد

سراب الدهور على يقين الملل

رحلة الجياع المضاءة، بالشحوب وطفولة الدروب

المقطعة النظرات والخطا، بالعسكر والكلاب والجفا

ولم يظهر أحمد ومن معه بالبلدة طيلة نهار العيد، فقد أحسوا رغم حبهم للناس وحب الناس لهم أنهم غرباء عن البلدة إلا من أهاليهم الذين تعلقوا بهم تعلق عاشق، يعدّون دقائق اللقاء بشغف.

أما منى التي دارت في العيد على بيوت أهالي الشهداء والجرحى رغم إدراكها أن الجميع يكرهها، وأنها تحتاج لمعجزة لتحسين صورتها في عيونهم، لكنها استمرت محاولة إظهار نفسها قوية، ونفعها ذلك أنها التقت أحمد الذي هيأ للقائها نفسه، فهي فيه بلاد فكيف وهو في غربتها، ولم يكن شغفًا ذلك الذي ظهر على وجهها لحظة شاهدته وانطلقت نحوه ضاحكة، لكنه كان أكثر حذرًا وخبرة هذه المرة ببنات الدلال، وبعد أن رست نفسها تحدثت معه بغير ما توقع.

منى: كنت بدك تتزوج فاطمة، علشان سمعتها صح، طب أنا سمعتي ما بتغسلها، أنا تم تحطيمي وبنفس اليد ومن نفس العدو، لكنك ما أبديت أي استعداد لمساعدتي.

أحمد: علشان فاطمة، أنا وأنت اللي تسبب بأذاها، وأنا وأنت كمان تسببنا بضرر كبير لفاطمة وغير فاطمة.

ممكن تحكي لي شو ذنب فاطمة اللي خاطرت بنفسها علشان رسائلنا وخسرت سمعتها؟!

منى: ما إلها أي ذنب، وأنت ما إلك ذنب، ولا أنا ولا فادي، ولا علاء ولا مريم. جميعنا ما إلنا ذنب، ذنبنا إنا إنولدنا وهو في احتلال، احتلال ما بحب الأطفال، وما بهتم لحياتهم ولا مستقبلهم، ولا حتى ذكرياتهم الحلوة، علشان هيك أنا مثلي مثلها لفاطمة يا أحمد، وأنا ما اخترت أبوي يكون زيدان، ولا فادي اختار أبوه يكون فدائي، وأنا بطلب منك تحس فيَّ ولو مرة واحدة.

أحمد: إحساسي ما بفيدك، وضعي صار أصعب بكثير من كلام الحب.

منى: أنا بطلب مساعدتك وإنت...

أحمد: أنا بحكي معك وأنا ما بعرف كم ساعة من عمري باقي، وكم إلي ما شفت أمي وإخواني.

ولم يكد أحمد ينهي عبارته الأخيرة حتى دخلت أم جميل برفقة سليمة التي تمايلت حين شاهدته واتكأت على الكنبة حتى لا تسقط، فأسرع أحمد بتقبيل يدها ورأسها ويحتضنها وهي تشتمه.

سليمة: أثبتت إنك ابن رشدي العلي بحق وحقيقة.

أحمد: بعدك بتدعيلي يا حجة.

سليمة: بدعي لكل شعرة بجسمك كل ما طلع نجم وغابت شمس.

أحمد: بدي يا حجة أوصيك على حبيبتي، ويشير إلى منى.

سليمة: رح أحبها لأنك إنت بتحبها.

أحمد: حبيها مثل ما بتحبيني.

ثـم اختفـى مـن المنـزل فجـأة وغـاب المنـزل بتفاصيـل حيـاة عاديـة لا تعـرف عـن حيـاة أحمـد المثيرة أيـة تفاصيـل.

عـلى بيـادر البلـدة وملاعـب الصبـا هبـت نسـائم العتمـة تحمـل عبـق ذكريـات وأيـام لهـو وطيـش صبـا، فجلـس ثلاثتهـم والليـل عنقـود تـدلى فوقهـم، فهمـت قلوبهـم وعيونهـم التـي همـت بالرحيـل.

في عنقـود الليـل مـن يـوم العيد، يجلـس في سـاحة قريتنا غريـب البال عن الأحبـاب والحـارات والشـهداء، نسـم مهربـة بذاكـرة مـن نسـيم تجمـع الكلمات كلمـة والأفـراح بسـمة والوجـع هـو اللاوصـف، هـو اللارسـم للكلمـة، إذا مـا قـصرت الكلـمات أو لم يكـن لـه بهـا إربـة فيجعـل مجـد سـاكني الـروح نظـرات يلـوّن بهـا نتـوءات الزمـان وفيهـا عجـزه الريفـي عـن وصـف الحريـر.

147

نسم مهربة جاءت بالأريج.

ما بين جديلتي أمة والأقحوان.

ومن بين حواجز الماضي المعبأ فيه.

يسمح له برمادية الذكريات أحيانًا.

وأن يصنع من الخبز حلوى.

في عيد ميلاه طوى إيحاءة على وجهه.

اليوم أمه تذكر آلام مخاضها كما تذكر أمة عيد استقلالها، وغادرا البلدة التي بدت أفضل بدون زيدان ورجاله وإن طفت على صفو عيشها مناوشات تكررت ما بين الإسلاميين والوطنيين وكان أسبابها غطرسة الوطنيين وسذاجة البدايات عند الإسلاميين، فلا القديم قبل بالجديد ولا الجديد كان سيفعل ذلك، والتقى أحمد بشباب متدين كثير في أيامه الأخيرة، واستمع منهم في أول مرة حديثًا عن المقاومة، فقبل ذلك كانت الساحة الفلسطينية إما وطنيين يعتبروا أن الإسلام عن طريق التحرير أو إسلاميين يعتبروا أن قضية الوطن قضية مؤجلة، وأُعجب على صعيده الشخصي لا الخبري بطموحهم المقاوم، وسقفه العالي، لكنه ما زال يرى الدين أفيونًا رغم أن كثيرًا يدعونه بالشيخ كأمثال عابودي الذي رحل وهو يراه كذلك، واستطاع عبد الناصر من قبل أن تسوء علاقته بأحمد إحداث تحولات بقناعاته لولا ما فعله بحق فاطمة، وأعطى الإسلاميون بمشاركتهم بالانتفاضة زخمًا ومدًا جماهيريًا واسعًا، وعادت الأنظار تتركز على القضية الفلسطينية بعدما كانت الخلافة الإسلامية وأفغانستان، وانتظار المهدي محور اهتمام شباب الأمة المسلمة، ولا ينكر منصف أن الثورة الإسلامية في إيران أعطت زخمًا إضافيًا للقضية الفلسطينية، فقد ظهر على أثرها حركة مقاومة جديدة بوعي وأساليب لم تكن معتادة من قبل.

ومن أجل وأد الفتنة التي تصاعدت وأحرقت منازل بسببها وسالت دماء لا طائل منها، سعى الكثير للإصلاح وممن سعوا الأستاذ ربيح المحايد دائمًا وحضر على غير عادته لرؤية أحمد، وبدا مهتمًا متشجعًا لوأد الفتنة، تحت مسمى رجال الإصلاح.

ربيـح: _وبعـد أن عجـز عـن إقنـاع أحمـد بالتدخـل لحـل الخـلاف_ إذا ولا بـد لازم تتصاعـد الانتفاضـة أكثـر، تـضرب بقـوة علشـان ننهـي هـذه الطوشـة، وهـذا مـا رح يحصـل إلا إذا وجهنـا مشـاعر الكـره للأعـداء.

أحمـد: عـلى فكـرة عديمـي الخـبرة في العـادة بكونـوا مسـجونين بمثاليتهـم، ومـا بعـرف الواحـد منهـم إن كان صـواب حكـى أو خطـأ، أنـت بتعـرف يـا ربيـح ليـش صـارت الانتفاضـة، الانتفاضة صـارت علشـان الأعداء اللـي بتحكـي عنهـم مـا تركـوا كـره عـلى هـذه الأرض إلا جابـوه وصبـوه فـوق رأس الشـعب الفلسـطيني، يعنـي الشـعب الفلسـطيني مـش ناقصـه مشـاعر غضـب تجـاه عـدوه.

ربيح: يعني أنت ما تتفق معي إنه المحتل هو اللي صنع هذه الفتنة.

أحمـد: الخـلاف هـذا أو الطوشـة حسـب رأيـك قديمـة مـن أيـام دار الحسـيني والنشاشـيبي، لكـن أخـذت طابـع حـزبي وسـياسي بشـكل جديـد، وإلـي مثلـك صعـب يفهـم قديـش مهـم الفـوز بهـذه المعركـة لأحـد الطرفـين؛ لأنـك مـا إلـك انتـماء حـزبي.

ربيح: يعني هذه الناس بتعمل ضد القضية.

أحمـد: داخـل صفـوف الحـركات الإسـلامية والوطنيـة خـيرة شـباب فلسـطين، ومـا بعنـي إنهـم بخـلاف مـع بعضهـم البعـض إنهـم مـش وطنيـين، عـلى العكـس غالبيـة الشـهداء والأسرى منهـم وحتـى الاقتتـال فيـما بينهـم مـا بعنيهـم، الصهاينـة وهـم يقيمـون دولتهـم قتلـوا بعـض مـرات ومـرات،

وتعاونوا مع بريطانيا ضد بعضهم البعض، حتى إنه جزء منهم تواصل مع النازيين وتعاونوا معهم، وأكبر دليل رجال الكابو إللي عذبوا اليهود في معسكرات النازية كانوا يهود، وفوق أرض فلسطين طحنوا أعداءنا بعضهم البعض في تنافس على النفوذ بما أسموه السيزون الصغير. والسيزون الكبير في حرب أهلية شملت تصفيات عدد من قادة المنظمات الصهيونية بعضها لبعض تحت مسميات مختلفة الحرب ضد المنشقين، أو تصفية الإرهاب، بل وصل الأمر بالهاغاناه بشن حرب اقتصادية ضد عصابة إتسل. وفي نفس اليوم الذي تم الإعلان فيه عن ولادة الجنين الغربي شهد الفصل الأخير من الاقتتال بينهم والذي ما زال عالقًا في أذهان الكثير حتى الآن، وهو منظر سفينة التالينا التي اندلعت فيها ألسنة اللهب وتطايرت من جوفها شظايا الذخائر والمتفجرات على شاطئ تل أبيب، وأسفرت عن مقتل عدد من العصابتين الصهيونيتين المتناحرتين الهاغاناة وإتسل، حتى تملك زعيم إتسل آنذاك بعض الانفعال أثناء خطابه فأجهش بالبكاء مما أثر على سمعته كقائد لعصابة صهيونية منظمة.

ربيح: كلامك جميل، لكن بأقلك كمان مرة كن أنت البطل وأصلح بينهم.

أحمد: ما في بطل، ضروري تقتنع أنه ما في بطل.

* * *

جاء الموعد للعمل بالوعد الذي قطعه أحمد لإسماعيل، فالأسرى قضية وطنية وأخلاقية حساسة تهم كل بيت فلسطيني.

أحمـد مخاطبًـا صالـح وإبراهيـم: إذا تأخرتـم دقيقـة واحـدة اعلمـوا أن الفشـل سـيكون مصيرنـا. فأخـذ أحمـد مسدسـه الـذي أعطـاه إيـاه إسـماعيل ولبـس قميصًـا مفكـوك الأزرار وظهـر مـن خلالـه شـعر صـدره جليًـا، ووضـع عـلى عنقـه سلسـلة فضـة عريضـة، وفوق بنطـال الجينـز لبس حـزام جلد أسـود، ووصـل أحمـد إلى محطـة انتظـار الحافـلات عـلى مفـترق غـرب مدينـة طولكـرم، وعـلى مقعدهـا الضيـق جلـس جنديًـا. كان يريـد التوجـه لعملـه المعتـاد حيـث شـارك في إطـلاق النـار عـلى أطفـال الحجـارة، وضـع أحمـد مسدسـه عـلى صدره وأخـبره بلغـة عبريـة فصيحـة أنـه مجـرد تاجـر مخـدرات، ويريـد منـك السـير معـه خطـوات معـدودة؛ لأن الشرطـة تتعقبـه، وأراد إقناعـه أكثـر فـأراه الكيـس الأبيـض فأوهمـه أنـه سـيخلي سـبيله بعـد ركوبـه أي سـيارة تمـر، لم ينطـق الجنـدي بأيـة كلمـة، لكنـه مشـى برفقتـه ومـا أن خـرج مـن محطـة الانتظـار حتـى وصلت سـيارة مسرعـة وبداخلهـا إبراهيـم وصالـح اللـذان قفـزا قفـزة خاطفـة وصادمة وأدخـلاه بالسـيارة وأبقيـاه في أسـفلها، واقتصـت الخطـة إيصـال الجنـدي إلى طولكـرم، وهنـاك سـيجدون بانتظارهـم مـن يسـتلم منهـم بضاعتهـم، ووصلوا كـما لـو أنهـم يقومـون بجولـة عاديـة، لكـن المقصـود بزيارتهـم عـز لقـاؤه، وبعـد أن يئسـوا مـن لقائـه أخبرتهـم إحـدى العجائـز الجالسـات قبالـة منزلـه أنـه مداوم عـلى لعـب الـورق.

كان الجنـدي مـا يـزال في صنـدوق السـيارة والخطـر عـلى حياتـه أصبـح كبـيرًا فقـررا الانسـحاب والمعـاودة فيـما بعـد، وعـاود أحمـد لوحـده وأسـيره الـذي أحضره معـه، كانـت قـد مضـت عـشرة أيـام وأحمـد محتفـظ بأسـيره حيًـا وبـدا عليـه الإرهـاق؛ لأن شـيئًا ممـا أتفـق عليـه مـع الخـارج لم يحـدث، لم يـأت

أي شخص ليستلم، ولم يتلق عنوانًا أو موعدًا، وبعد تهرب ومماطلة، من قبل المسئولين طلب منه التوجه لطولكرم مرة أخرى، هنالك التقى برجل أصلع بدا قصيرًا وممتلئًا، فسلم عليه الأصلع بتحية ثورية استبشر أحمد بها خيرًا، وسأله بماذا أستطيع مناداتك؟

أبو صخر، الرفيق أبو صخر.

أحمد: أنت جاهز تستلم إذا أحضرنا لك المتفق عليه.

أبو صخر: طبعا يا رفيق، وإحنا بدنا نساعد رفاقنا ومناضلينا الأسرى.

أحمد: الحقني.

ثم فتح أحمد الصندوق في مؤخرة السيارة وقبل أن يسمع أحمد تعليق أبو صخر على ما شاهده اشتم أحمد رائحة ما بلل به ملابسه، وتيبس وجهه من الخوف وشل لسانه، فوضع أحمد يده على كتفه مخاطبًا إياه: أريد منك أن تتبعني خطوات بعيدًا عن أعين المارة، غير أن أبو صخر وإن كان جبانًا مشبعًا بالنذالة إلا أنه على ما يبدو كان قادرًا على قراءة ما في عيون الرجال، فقد رأي بعيون أحمد موته المحتم لو أنه ابتعد أمتارًا معدودة، لكنه نجا كأي جبان يصلح فيه قول أبو الطيب.

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

وبالقرب من أحراش يعبد، وبعد أسبوع من زيارته غير الموفقة إلى

طولكرم سمح لأحمد بقسط من الراحة عامل خلالها هو وإبراهيم الجندي معاملة عادلة، فهما لم يحظيا بأية راحة أو استجمام طيلة فترة تواجدهما مع الجندي، وفكر أحمد بإطلاق سراحه لأول مرة، رغم أنه وجد في جيبه بطاقة انتساب إلى تنظيم صهيوني متطرف، وتمنى لو أنه أطلق النار عليه قبل أسره، لكان أسلم لضميره، أما الآن فهو لا يملك مقومات الاحتفاظ به ولا حتى حماية نفسه، فثمة دولة مجندة للبحث عن هذا الجندي.

التفت أحمد بعد صرخة أطلقها إبراهيم فاستدار ليجد الجندي وقد خلص المسدس من إبراهيم وصوبه نحو أحمد الذي رفع أيضًا مسدسه نحوه ودون أن يبتعد أو يطلق النار، خاطبه بملل محبط: لقد هممت بإخلاء سبيلك لكن أنا أشكرك؛ لأنك خلصتني من عقدة الضمير.

ثم دوت رصاصتين من مسدس أحمد فقد كان المسدس الذي مع إبراهيم مجرد هيكل لا خطر منه.

لا يوجد أصعب من اصطدامك بحائط الواقع الذي سعيت عمرك للوصول إليه، فالقيادة التي كانت مجرد حلم جميل لأحمد ومن معه لم تعد كذلك، وهو يفهم اليوم لماذا يوجد أعداد كبيرة من الأسرى يقضون سنوات طويلة دون أن يفكر أحد من القيادة بمصيرهم أو واقع أسرهم، وضمن هذه القيادة من لا يعرف شيئًا عن حال شعبه، ولا حال من جندهم في صفوف حزبه، ومن هؤلاء القيادة من يرون الشهداء والأسرى مجرد ضرورات مرحلة وأرقام للفخر في المحافل الدولية والمحلية، والحقيقة أن هؤلاء الإقطاعيين الجنود يتعاطون مع جنود الثورة بدونية

وعدم اكتراث، ولولا أمثال أحمد الذين قاموا بهذه العملية ما فخر أسرانا أمام عدوهم بمكانتهم الكبيرة عند شعبهم، فعدوهم دائم التبجح أمامهم بأنه لا يترك في الميدان حتى كلابه، لذا وجب القول إن الشعب الفلسطيني متقدم على قيادته ليس قولًا بل ريادة وقيادة بالفكر والعمل.

* * *

كثيرًا ما يظلم الباحثون للحقيقة أنفسهم عندما يعلنون انتسابهم للإلحاد ويرفضون مجرد التفكير بالإيمان باعتبارهم الإيمان يقيد الحقيقة.

والحقيقة أن الإلحاد قيد وثني يمنع كل باحث عن الحقيقة من تجربة الإيمان والتي تشغل المساحة الأكبر في حياة البشر، ويخطئ أصحاب الدعوات المادية المجردة في حكمهم هذا على الإيمان؛ لأنه عائق أمام الحرية والحقيقة معًا، ولأن الإيمان بحقيقته بعيد عن المادية المجردة فالمنطلق من منطلقات مادية خالصة ببحث كنه القوى الروحية كمن يزن حبه لأمه بالكيلو غرام.

أحمد وحيث كان مراعاه الأول المكان الذي يذكر فيه لأبيه شكلًا يوم لها بالقرب منه، وعدا فوق العشب وحول غنمه قرر أحمد أن يجرب الإيمان فهو من بعد مغادرته القبر صبيحة العيد وهو يشعر أن شيئًا ما يعتريه فهو يسأل على الدوام عن شيء حل بداخله، وحرك مشاعر جديدة لم يشعر بها من قبل.

أحمد: الله يجازي سليمة، حين جعلها تتذكر إني ابن رشدي العلي.

صالح: طلق صاب.

أحمد: شو قصدك، أي طلق؟

صالح: دعوة من دعوات أمك.

أحمد: أوه، إذا هيك بكون تخزقت.

وبعـد أن تيمـم ويمـم نحـو القبلـة صـلى ولأول مـرة لخالقـه. وبعـد أن أنهـى سـأله صالـح: كيـف؟

أحمد: أفضل قليلًا.

صالح: لا أفضل كثيرًا.

أحمد: يعني ممكن أشوفك على سجادة الصلاة قريبًا.

صالـح: لا، لا أنـا كنـت حابـب أشـوفك بتصـلي مـن زمـن طويـل لأنـك شـيخ، أمـا أنـا بحيـاتي مـا راح أصـلي، لأني لا أنـا ولا أبـوي كنـا بحياتنـا شـيوخ.

أحمـد: شـاعر بنفسي إني حابـب أحكـي بفصاحـة، تتذكـر كيـف كنـت أنا وفـادي بالصـف في حصـة اللغـة العربيـة خصوصًـا في درس التعبـير أو لمـا كنـا عـلى المـسرح مـع عبـد الحافـظ.

صالح: تفضل إحكيلنا بالفصحى عن يوم مولدك الروحي.

أحمـد: للكائـن الروحـي في أعماقنـا ألـف كرامـة وقانـون عـدل لا يشـق له وقـار، فـإذا الصبـح تكـشر ضاحكًا.

انفضت عرى الليل عن قلب مكبل بالظنون وبالضلال

وبدا الإلحاد عابر مرحلة يشد حلمه بشراك نعله

ويغلف أمجاده بأسمال بالية

فإذا ما عادت الدنيا يومًا لعشها المهجور في قلبي

ولاحت في روح الديار حدائق الجنة

سأقول رجعنا نحلق فوق المجد والذكرى

نقول ما لم نقل عند الوداع في آخر مرة

نبوح لكل من كبروا بسر غياب النحل في الصخرة

وأيام من الوجد

حملناها على أكتافنا بلا تعب ولا نقمة

صالح: كلامك قبل كلام فادي، كان يلقي الكلام وكأنه هو ألفه مش عبد الحافظ.

أحمد: لا مش صحيح، دائمًا فادي كان يحكي كلام كتبه بنفسه لكن ما كان أحد يمدح كتاباته.

صالح: أفهم من كلامك الخاطرة إللي حكاها فادي في المولد النبوي عن فاطمة الزهراء من تأليفه.

أحمد: ما حكاها في المولد النبوي، الشيخ طه ما سمح له لكن عبد الحافظ سمح له يلقيها على المسرح، وأنا كنت عنده في البيت لما كتبها، وهو أصلًا كتبها لراضية (أمه) لأنه شاف فيها فاطمة الزهراء.

صالح: فاطمة كانت شيعية، هيك بعرف.

أحمد: هيك سمعت، لكن أنا ما بحب الشيعة.

صالح: وأنا كمان، لكن فادي ليش كان يحبهم.

أحمد: لأنه راضية أمه يمنية زيدية، وأثرت فيه كثيرًا، وتذكر لما حكى فاطمة كان بدو يبكي واسمع شو حكى.

فاطمة الفلسطينية الأعظم من الأسماء في غزلٍ وفي حبٍ.

كالسابقين بوصف النور

والعاجزين أمام الشمس بالوصف

أنا عجزت عجز السابقين بحبها

حب الله والرسول والأطفال

تبقى كوكبًا تضييء بذاتها

والله يرسل حبها في المران

تمسح جراح نبيهم فيهم

فهم ما زالوا يخرجون من أحدٍ إلى أحدٍ.

وبخطب فهم الغراب للهرب

لكنها على لسان أبنائها النصر

وإذا ما تكلمت فاضت السماء والمقل

مع أبنائها تعارك الموت

وغدر الزمان والجهل

وبدمائهم انتظر الظلم والعدل

فيا ليت قومًا يكثرون بكاءهم

فهم ساحة العدل التي طويت

في حقب تجار الضلال

لطهر كسائهم

عدا عليهم الشيطان وهو اليوم نادم

فدماؤهم هبت بحرج التائبين صبا.

تجري إلى الأرض التي بارك فيها ربها

سيدة الورى والعالمين

يا أهل الحق في المسرى

شيم ثورة وكبرياء ونصرا

إذا ما رجوتم عالية الطهر والنسبا.

أم أبيها أبناؤها أبناؤه

ولها في قلوب الجائعين مكانة

تشرق بهم أمًا وخبزًا

من حيث لا يختارون

وعلى باب حطة جلست

مع الأطفال

وعلى عتب السماء

وخاطر من ذهب المساء

لا يبارح جبال الشمس في الشفق

وسؤال في الظلال محتلة المكان

عن جراحكم. وحَيَّكم ثقيلة الأغلال

وعن ذُلّ وهمٍ خطّة السلطان

وعن غفلة من زمان

سادَ فيه صعاليك وغلمان

وعن ظبيةٍ في الشام

حضنت صغارها من ضربة السيَّاف

في حضنها الدَين اكتمل

وفي الغفلة ومن على حواجز التاريخ

وصلت قافلة سبايا الرسول

يا محمد هذه ظباؤك.

على الأقتاب تُحمل.

وعلاها صولجان الرّدَّة .

فلا تبدو ولا يُسمع

سوى أصوات نخاسة وضجيج

وإذا ما اقتحمت بعينيك دُخان الظلم وجورَ المشهد.

رأيت شعراءً يبتاعون الواقع والأحلام

برأس الثورة وعباءة زينب

بقلب صغير أسماه أبوه محمدًا

وسبيٌ لمحمد كم صلوّا عليه وهم يبيعونه

وفي السوق كان النخاس الشيخ

يلوم البائع لو جئت بمحرم

ومن ورائه في الصف المائل للردّة

رافعو أيديهم والحاجب

مولايَ هذا نصرُك

مولايَ هذا سبيُك

ونحن عبيدُ الله وسيفُك

مولاي أمير المؤمنين

أدَّى الحَج مخمورًا

والتفت إلى جارية في القيود

ثم اختال مزمجرًا

أنا خيرُ أهل الأرض قصاصًا

وخير من ذاد عن الحياض

وناما ولم يرهما أحد إلاَّ الله، وسمعا الكابتن رامي عبر أجهزة تجسس أُلقيت على شكل حجارة لما قالا وحددت هذه الأجهزة مسافة قطرها خمسمائة متر للأصوات التي تلقتها غرفة العمليات، ومع ساعات الفجر الأولى فتحا أعُينهما على فوهات بنادق مُدَّت نحوهما من كل صوب.

وفي الأثناء ذاتها صدحت مكبرات الصوت بأعلى موجاتها تطلب من الجميع التجمهر في ساحة البلدة. وضعت سليمة من نيرها غطاءً طوته، وخرجت ومنتهى ومني وفاطمة وجميلة وأهاليهم جميعًا، خرجوا يحفزهم الفضول فالدعوة تكون في العادة للرجال فقط دون النساء ويكون التجمع خلالها في المدرسة لا في الساحة، وما أن بدأت الناس تزحف نحو الساحة حتى وصلت ثلاث سيارات عسكرية تتقدمها ناقلة جُند تشق صفوف الجموع ببطء شديد وعلى مقدمتها أجلس أحمد وصالح وقد بدا عليهما الإنهاك وآثار اليد الهمجية، وعندما اقتربت المركبة من سليمة شعرت بحرارة المحرك التي أثرت بساق أحمد المصابة فهتفت عاليًا تحثه على الصمود، بطل، بطل، وردّد الحضور بالهتاف بالروح بالدم نفديك يا أسير، ووضعت فاطمة كلتا يديها على حاجبيها وهي تردَّد أذكارًا وأدعية، وشاهد أحمد بعيونٍ ملأها الغبش صورة الجموع، وقد علا هتافها في وقت هتفت فيه فيروز والذكريات في أذن مني (في عصفورة بيضة)

ولم يَدُم الهتاف طويلًا؛ إذ انهالت الحجارة على القوة المتبجحة من كل صوب، ومادت بمنى وشادي وباقي المجموعة الأرض والذكرى وضحكات الأعياد ورائحة الزهر على خدّيها والكلُّ مبعثرًا في الكلّ لا يعرف كيف يخاطب من وقف بجواره.

* * *

عيزرا: ضايقني تصديقهم لهذا الجُرب الأجرب وإخراجي من المكتب.

شيرا: هم لم يصدّقوك بقدر ما احتقروك.

عيزرا: ليس هم مَن فعلَ هذا.

شـيرا: لا، أنـت وأبي مَـن فعـلَ هـذا لي، عندمـا قبـلَ لعـبَ ذاك الـدور السـخيف، وأنـت عندمـا رفضـت حُبّي وكان قـد علـق بنسـب عيـزرا عـار أمـه العربيـة، فهـو وحتـى وقـت ليـس بالبعيـد كان يسـمح لهـا بمناداتـه عمـر، وبعـد أن أنهـى كـورس الصهيونيـة، وعديـد الـدورات التـي ألـزم بهـا أصبـح شـديد التعقُّـب ضـد كلُّ مـا هـو عـربي، حتـى أمّـه تخاطبـه بحـذر شـديد رغـم أنَّ أبـاه فعـل ذلـك بأوامـر مـن جهـاتٍ عُليـا عندمـا تـزوج هـو ومجموعـة مـن الضبـاط الشرقيين مـن عربيـات وكان هدفهـم معرفـة إن كان العـرب يخططـون لأعـمال عدائيـة ضـد أهـداف داخـل الكيـان، وبحسـب الأرشـيف الـذي كُشـف عنـه لاحقًـا اعتنقـت أكثـر مـن 90٪ مـن العربيـات الـلاتي تزوجـن مـن يهـود دون علمهـنَّ بديانتهـم اليهوديـة فآثـرن البقـاء قـرب أبنائهـن بعـد معرفتهـن بهويـة أزواجهـنَّ الدينيـة، ومـن أولئـك النسـوة أم عيـزرا.

163

أمَّـا شـيرا كانـت سـتكون بمثابـة الرَّافعـة لـه داخـل الشـاباك فهـي ابنـة يعقـوب الـذي شـغل منصبًـا رفيعًـا في جهـاز الشـاباك لفـترات طويلـة ولـه احـترام ورمزيـة كبـيرة بينهـم.

وأخـذت عنـه شـيرا لكنتـه العربيـة فقـد عـاش يعقـوب مـدَّة طويلـة في بيـت مختـار إحـدى القـرى في شـمال الضفـة الغربيـة.

وعطفًـا عـلى حالـه تحدثـت شـيرا مـع الميجـر للسـماح لـه بمزاولـة مهامـه وإعطائـه فرصـة أخـرى بعـد فشـله بملـف إسـماعيل عـلى أن تكـون الفرصـة الأخـيرة فرصـة محفوفـة بالمخاطـر، فالمجموعـة التـي اعتقـل معظمهـا مُحاطـة

بوعي صاغه عبد الحافظ بمجهود دام لسنوات وبني وعيهم المقاوم على قاعدة ذهبية اختصرها بكلمتين الاعتراف خيانة، وصمد شادي أضعف أفراد هذه المجموعة ولم يعترف، وتسلم عيزرا خلال اجتماع جمع الميجر وعديدًا من المحققين ملف أحمد والذي أجمع الحضور أنه سيكون الأصعب على الإطلاق، ومن بين ما تسلمه عيزرا ضمن الملف رسالة كان قد كتبها أحمد بخط يده لإسماعيل وسلمها إيّاه بيده.

عيزرا: صباح الخير أنا المحقق عيزرائيل، إذا بتحب نبدأ التحقيق وبصراحة ما بلزمك تحقيق لأنه الشباب سبقوك وقاموا باللازم، وكتبوا كل شيء، وأكبر دليل هذه الرسالة تستطيع قراءة خطك الجميل.

أحمد الذي رأى أنَّ هذا المحقق لا يتوقف عن الكلام، قاطعه قائلًا: كلامك يُزعجني، حاول غيرّ أسلوبك في التحقيق؛ لأني غير راغب بالاستماع إليك.

وبعد أن مضت جولات العذاب دون توقف وكان أحمد أشبه بكومة لحم خلت من المؤثرات العصبيَّة، أيقن عيزرا أنَّ محاولاته مع أحمد لا تجدي نفعًا فقرَّر تغيير استراتيجيته في التحقيق ونقل أحمد إلى غرفة تحقيق قريبة منه من غرفة إسماعيل، فسمعه أحمد أكثر من مرَّة وهو يتألم، وتظاهر ذات يوم المحققون أنهم نسوا باب الغرفة مفتوحًا فلمح أحمد إسماعيل محمولًا مغمى عليه، وتُوج ذلك كله برسالة أوصلها فرج لأحمد من إسماعيل يُخبره بها أنه لم يعترف، وفي المرَّة الثانية التي دخل بها فرج محضرًا الطعام كعادته همسَ في أذن أحمد: إسماعيل لم يعترف وهو صامد لكنه على وشك الشهادة.

لم تكـن لتنطـوي عـلى أحمـد مكائـد التحقيـق، وكان فـرج كلـما دخـل لزنزانـة أحمـد قبـل هـذا اليـوم أعـرض عنـه ومقتـه لقناعـة أحمد أنـه خائـن، وكان دور فـرج قبـل هـذا اليـوم مقتـصرًا عـلى تضليـل الأسرى بمعلومـات محـددة خاصـة الأسرى الذيـن أوشـكوا عـلى الخـروج مـن التحقيـق، فيقـوم بارتداعهـم ويخبرهـم أنَّ أقسـام الأسرى التـي عـلى يمينهـم وهـم داخلـون للسـجن مـا هـي إلاَّ أقسـام عصافير، والحقيقـة انهـا أقسـام أسرى مناضلين، أمـا التـي عـلى يسـارها فهـي أقسـام العمـلاء، وضلَّـل فـرج الكثـير مـن الأسرى وأوقـع بهـم.

وسـمع أحمـد فـرج هـذا وهـو يقـوم بتضليـل شـادي بمثـل هكـذا معلومـات مغلوطـة، ولكنـه كان مخـدرًا مـن شـدة الأوجـاع، ولم يطـل مكوثـه قـرب أحمـد ورُحّـلِ بعـد حـواره مـع فـرج بسـاعات.

كانـت اسـتراتيجية عيـزرا الثانية تهدف إلى اسـتعطاف أحمد على إسـماعيل ودفعـه للاعـتراف خشـية عـلى حياتـه، وبحـق هـذه المكيـدة لا يُسـتهان، فمثـل أحمـد في طبيعتـه يحيـا بـذات مهملـة، ويتفانـى بالعـادة بتضامنه مع غـيره، فنكران الـذات يكـون في العـادة أكثـر انتشـارًا بـين ذوي الخلفيـات الدينيـة، ومـن خـلال هـذا النكـران تكبَّـدت نفس عديـد المـرارات، فكثـيرٌ مـن الأمهـات والأصدقـاء يضحُّـون مـن سـعادتهم الأبديـة حتـى لا يتـألم أحبابهـم، وهـذا التضامـن مسـتوعب بحـدود معينـة، أمَّـا أن يعـترف أحمـد للمحقـق بـما ضمنـه سـنوات عمـره مجتمعـة مـن أجـل إنقـاذ حيـاة صديقـه فهـذا مـا لم يتوقعـه أحـد، وتضـاءل حُلـم عيـزرا باعـتراف أحمـد لـه لدرجـة أنـه أراد منـه الاعـتراف عـلى إسـماعيل، إنـه القائـد العـام للمجموعـات جميعهـا وكفـي، إلاَّ أن أحمـد فاجـأ عيـزرا.

أحمد: إذا ما أردت اعترافًا مني لم تأخذ حرفًا إلاّ إذا ما أردت أن أفعل ذلك، ولن أفعل ذلك إلاّ بحضور طاقم التحقيق والميجر على رأسهم.

وبحضور الطاقم طلب أحمد إبرام صفقة بأن يخرج إسماعيل من التحقيق، وإذا ما وصل اليوم إلى أقسام الأسرى سأُقدّم اعترافي مفصلًا لكم عن كل ما سألتموني عنه.

ردّ الميجر على طلب أحمد بالرفض.

الميجر: ليس لأقسام الأسرى لكن للمعبار؛ لأننا لم نقرّر إلى أي سجن سننقل أسيرًا خطيرًا كإسماعيل ولربما يكون العزل مصيره وهو الأغلب.

أخرج إسماعيل على الفور وكان معبار سجن الرملة وجهته، وقدّم أحمد اعترافه الذي كان من أكثر قرارته في الحياة غرابة، وسيكون محل جدل ولغط طويل مع أفراد المجموعة وعديد الأسرى، ولم يكن وجود أحمد في أقبية التحقيق بعد إسماعيل واكتمال التحقيق معه.

وأثناء خروج أحمد من التحقيق متوجهًا إلى سجن عسقلان كان لابد أن يمرّ بمعبار الرملة، وهناك جلس بالقرب من إسماعيل الذي تعجّب من إعراض أحمد عنه، لكنَّ الحقيقة أن أحمد لم يعرف إسماعيل الذي تورّم جسده وتغيرّ لون الدّم المتخثر تحت جلده وارتسم اللون الأزرق بكلّ درجاته حول عينيه، وكان حليق الرأس وأثار كدمات وبقايا شعرٍ باعدت بين أحمد وصورة إسماعيل التي عرفها.

إسماعيل: أنا لم أعترف عليك فلماذا تُعرض عني؟

أحمد: أنتَ ما بتعترف.

إسماعيل: نادية طلعت عميلة.

أحمد: لا أنت ممكن زعلان منها وعلشان هيك حكيت هذا الكلام.

إسماعيل وبعد أن ضحك! لا تعطف عليّ، أبقِ لي قليلًا من الوقار عندك، بالأمس قلت لي عنها ما أخبرتُك به الآن، ولطالما قلت لي عنها وعن أخيها زيدان أنهما عميلان، والحقيقة أكبر من ذلك.

أحمد: إياك يا إسماعيل أن تضعُف، ونحن كان لنا مبّرراتنا لكلّ خياراتنا وقرارتنا إللي اتخذناها، ولا تجعل هذا الموقف الذي أنت فيه يُنسيك إنجازاتنا وتفوقنا عليهم مرَّات ومرَّات.

وأثناء حديث أحمد مع إسماعيل لاحظ مرور فرج يقوم بأعمال نظافة في المعبار فتملكهُ خوف دفعه لتحذير إسماعيل من فرج فهو على قناعة أنه من أخطر العملاء، وهو ما يزال يذكر حواره مع شادي.

شادي: إنت كيف بتروح وبتيجي وبيسمحولك تتحرك بسهولة.

فرج: أنا سجين جنائي، مشغلني اليهودي رفض إعطائي أجرتي فأحرقت محلّه.

أحمد وبعد أن همّ للخروج لإكمال رحلة سفره نحو سجن عسقلان خاطب إسماعيل سوف تعود للبلدة حيث مكانك بين أهلك وفوق أرضك، ولن تطول سنوات أسرك.

إسماعيل: سوف يقتلونني قريبًا.

أحمد: هذا في حال كنت أجدب، أمَّا عندما تكون إسماعيل لن يقدروا عليك.

وأخرج أحمد من عند إسماعيل وهو يُكرّر كلامه في إسماعيل: إبق إسماعيل الذي يعرفه الجميع.

ومضت حافلة الأسرى مُثقلة بأبناء الأرض وهمومهم وخيبات الزمان.

* * *

وفي الحيّ وقفت نسوة وبنات عديدات لوداع منى وجميلة اللتين قررنا السفر في ذات اليوم بالحافلة، واضطر السائق للانتظار قليلًا بعد أن دخلت منى لوداع سليمة، فمنى التي قاومت بكل بسالة نظرة المجتمع نحوها كمشبوهة ذهبت إلى الأعراس التي أقيمت في البلدة دون دعوة وشاركت بمظاهرات وفعاليات حتى إنها حضرت دروسًا دينية إلاّ أن سكان البلدة لم يتقبَّلوها، وأبقوا على الصورة النمطية التي انطبعت في رؤوسهم فقرّرت الاستسلام والسفر إلى عمان.

ولحظة همت بعناق سليمة جعلت مع عناقها عتابًا.

منى: أنا يا خالتي انظلمت، من يوم خلقت على هذه الدنيا وأنا مظلومة، ولما خلصت من ظلم أبوي، ظلموني الناس.

سـليمة: كل شيء هـون ظلـم الظلـم، ومـا تطـوّلي الغيبـة في عـمان لأن الظـالم في هـذه البـلاد مـا بطـوّل؛ لأنـه حالـه مثـل حـال دار أبـوك خـراب.

منى: على كال حال هذه صورتي إذا أمكن تبعثيها لأحمد.

أمَّـا جميلـة فاكتفـت مـن وداع راضيـة بعنـاق وقليـل مـن القُبـل ودمـع غزيـر سـال بصمـت. أيـن ذهبـت تلـك الأحـلام التـي عاشـتها جميلـة وراضيـة معًـا وتخيلـت نفسـها بالأبيـض تقف إلى جـوار راضيـة وفادي، ما كان سـيحدث لـو سـمحت الأقـدار لراضيـة لفرحـة لطالما تخيّلتهـا يـوم حلمـت بفادي عريسًـا يقـف إلى جوارهـا وجـوار جميلـة التـي لبسـت الأبيـض ولكـن سـحقًا للظلـم والظـالم.

سـافرت الحافلـة ومـن نافذتهـا شـاهدت منـى وجميلـة شـجرة التـين وقـد اعتلاهـا أطفـال صغـار يمرحـون دون اكـتراث بواقـعٍ مرصـود بالمـوت. فلرُبـما اختلفـت أسـماء هـؤلاء الأطفـال وألعابهـم، لكـنَّ مصابهـم ومسـتقبلهم واحـد بظـلّ شريعـة محتـلٍ مُرجـف يقتـل وينهـب عـلى الـدوام.

19

بعـد أن أنهى أحمـد التحقيـق واعـترف بـكل مـا عنـده اعتقـد أن خـداع مكائـد التحقيـق قـد ألقـى عـلى عاتقـه، فهـو عـلى بُعـد خطـوات مـن السـجن، ولكـن هـذه الخطـوات زلـت مـا مقـداره مـتر ونصـف، وبـدل أن يمـرَّوا بـه داخـل الأقسـام السياسـية التـي بهـا جمـوع المناضلـين مـرَّوا بـه خـلال أقسـام العصافـير التـي يديرهـا العمـلاء وضبـاط التحقيـق، وعـلى يمينـه مشـى أحـد هـؤلاء العمـلاء الـذي ركـب معـه في البوسـطة مثلـه مثـل باقـي الأسرى، وبعـد أن كاد أحمـد يخـرج مـن القسـم كـما دخلـه تلفـت حولـه وفهـمَ أنـه بخدعـة أخـيرة.

قام المحققون بتمريره من أمام شادي الذي أخبروه طيلة أيام خلت أنَّ أحمد قادم للسجن، وأنه طلبَ منهم أن يسألوه عن كلّ ما اعترف به وكلّ ما يُطلب منه كتابته، وبعد أن عرف أحمد أنه خُدع، تحوّل إلى مجنون يضرب بيده وكلتا رجليه، وركض في الممرّ بعد أن دفع السجان والخائن وصرخ: عملاء! عصافير! احذر يا شادي احذر!

وكان يصرخ من حنجرته ورئتيه كجملٍ هدّه العطش.

أخرج السجانون أحمد خارج القسم على عجل وأقاموا حفلة على شرفه استخدمت فيها العصي والبساطير، في وقت أمسك شادي بلسانه بعدما كاد أن يورده المهالك.

وشاهد أول ما شاهد أحمد في الأسر نموذجًا ثقافيًا وتربويًا يُحتذي به، وتمني لو أن هذا النموذج مطبق في البلدة حيث عاش، فالتعليم والبرامج التنظيمية تطبق عل أكمل وجه، ولكنه لم يتأثر باكتشاف عيوب الأسر، فرأى أن الثقافة وإن كانت بحالة جيدة إلا أنها جامدة، فاليسار الذي انتمى لصفوفه ما زالوا يمجدّون حقبات وشخصيات تاريخية أمثال ستالين، ويدرسون كل ما كُتب عبر سيرته التي اعتبرها أحمد دموية، وإن أغفل أنه كان رجلًا قويًا وقف لأطماع الغرب ونال ما أراد لبلاده من أسباب القوة والنفوذ، وهذا الجمود الفكري لم يعانِ منه اليسار فحسب بل عاني منه الإسلاميون كذلك الذين جمدوا على مراحل وتفضيلات محددة من التراث، ففي السياسية مثلًا كانت الماسونية محور أحاديثهم هي ونظرية المؤامرة، ومن الدين اختاروا خلافات التاريخ وما أنتجته

هـذه الخلافات مـن فـرق ومخرجات وكلهـم طحنهـم العصـف الأيديولوجـي فقـد كانـوا غـير مكترثين بـه، فهـم يحملـون فكـرة ولا يقبلـون بتسـارع الأفكـار داخـل صفوفهـم، وفي وقـت كان أحمـد يعـارض بعـض الأطروحـات الفكريـة التي عفـا عليهـا الزمـن، كان أبـو عزيـز كبـير المسـاجين يصفـه بالمنبـوذ وأحيانًـا بالرَّجعـي، وكان يحملـه مسـؤولية الأخطـاء التـي أحاطـت بالمجموعـة كرسـائل منـى إليـه التـي تسـبَّبت بـالأذى لعـلاء، وذكَّـر كذلـك الأسرى باعترافـات أحمـد بالتحقيـق، وذكرّهـم أيضًـا أنَّ الاعترافـات خيانـة، وسرعـان مـا اصطـدم أحمـد بواقـع مُعـادٍ أحـاط بـه مـن كلَّ جانـب، وفي إحدى الجماعـات التنظيميـة المفاجئة قـرئ تعميـم مجَّـد العمليـة التـي قامـت بهـا المجموعـة بخطـف جنـدي عنـد أحد المفترقـات شـمال طولكـرم، لكـن التعميـم نسـب الفضـل لـكلّ مـا جـرى لعـلي أحـد أفـراد المجموعـة المغموريـن، ولم يطـل الزمـن حتـى اعتـدي عـلى أحمـد جسـديًا، فأسـوأ مـا في الأسر الأذى النفـسي ويتبعـه الجسـدي، وقُـدِّرَ لأحمـد أن يتجـرّع كلا العذابـين، فالسـجن عبـارة عـن مربـع إسـمنتي يقيمـه السـجان حـول الأسرى فـإذا لم يُقـم الأسرى لهـم داخـل هـذا المربـع برامـج توعويـة وثقافيـة طحنـوا بعضهـم بعضًـا، ووقـف السـجان يسـتمتع بهـذا المنظـر البائـس وقـد وصـف أحـد الكتـاب الـروس الأسرى كالديـدان عـلى الجيـف يتقاتلـون فيـما بينهـم ويـأكل بعضهـم بعضًـا.

فـالأسرى الفلسـطينيون هـم انعـكاس للشـارع، الشـارع كذلـك كان يـوم مـن الأيـام انعكاسًـا لـلأسرى، وفي الأسر كانـت تمـر فـترات عصيبـة كمرحلـة الهـوس الأمني التـي خاضـت بهـا جميـع الفصائـل، وكان مـن أسـبابها قلـة الهـوس والريبـة والشـك داخـل صفـوف الأسرى، ومـن إفـرازات هـذه

المرحلة أن سادت حالة من عدم الثقة والخوف والشك داخل صفوف الأسرى، وعُذب وقُتل خلالها أسرى كُثر على نفسياتهم وانتمائهم لوطنهم ومكانة أسرهم، فقلة الخبرة التي دفعت بعض القائمين على إدارة حياة الأسرى لفعل مثل هكذا أفعال كانت العامل الأول لهكذا هوس، فهؤلاء المسئولون الحزبيون وجدوا أنفسهم متقدمين على أقرانهم دون مؤهلات تؤهلهم غير المناطقية والشلليات التي صنعت من هؤلاء القادة، وساعد بتقدمهم كذلك الجهل، ففي بيئة يسودها عدم المعرفة يستطيع من امتاز بذكاء اجتماعي أو لفظي التقدم.

وغذّت أجهزة الأمن هذه الظاهرة من خلال إخراج بعض الأسرى للعيادة أو البوسطة دون حاجتهم أو رغبتهم بذلك، وكان دافعهم من وراء ذلك الإساءة لهم أو التغطية على غيرهم من الأسرى المتعاونين معهم والذين اعتادوا تقديم معلوماتهم خلال البوسطة أو العيادة.

وكانت قلاع الأسر في كل مرة سرعان ما تلفظ كل هذه الظواهر وتُعيد صياغة ذاتها الوطنية من جديد، ولم ينتصر لأحمد أحد من أبناء مجموعته، فهو الذي عُوقب أكثر من مرة بما لم تقترف يداه، ولربما كان سبب إحجامهم عن نصرته الخوف من تكرار ما حدث معهم.

* * *

كمسخ لا تُعرف له نافعة عُرف فرج، وعد خائنًا اختص بإدارة الأعمال القذرة التي ترَّفع المحتل عن فعلها بنفسه فكثير من أعمال الإسقاط القذرة وعمليات التصفية التي تمت بعيدًا عن القانون نفذها

خونـة مأجـورون، وفـرج هـذا وُكل بإسـماعيل، يـروغ منـه كـما يـروغ الثعلـب، وبعـد أن سـنحت لـه الفرصـة غـرس في جسـده نابـه بعـد أن دسَّ في جسـده منوّمًـا لا يُعـرف مـن أيـن حصـل عليـه، وبعـد أن تأكـد فـرج بـأن إسـماعيل قـد غـط في النـوم وأن لا أحـدًا يـراه تسـلل لزنزانتـه وأخـرج مـن جيبـه حبـلًا رفيعًـا وقـام بلفـه حـول عنقـه وخنقـه دون رحمـة حتـى المـوت، ولم ينتبـه فـرج أن نظـارة أحمـد عالقـة بيـده إلا بعـد خروجـه، فأنـزل يـده أثنـاء مـروره في الممـر مخفيًـا إياها في جيبـه، وشـاءت الأقـدار أن يتلقـى أحمـد خـبر إسـماعيل في عـزل الرملـة حيث رآه آخـر مـرة، ولم تطـل المـدة حتـى رأى أحمـد فـرج، وبعـد أن تابـع تحركاتـه عـن بُعـد واسـتعان بأحـد المسـاجين الجنائيـين الذيـن أكـدّوا لـه خيانـة فـرج، وطلـب منهـم تفحُـص مقتنياتـه فأحـضروا لـه نظـارة إسـماعيل، وفي أول لقـاء بينهـم فصـل بـاب الزنزانـة فيـما بينهـم أخـرج فيـه أحمـد لفـرج نظـارة إسـماعيل.

اعلـم أيهـا المسـخ أنـك ميـت، وحـاول فـرج سرد جملـة مـن الأكاذيـب أعدَّهـا مسـبقًا لمثـل هكـذا موقـف توقعـه.

فرج: اسأل المساجين كم خدمته وأحضرت له دوائه وكل ما طلب.

ولكـن أحمـد الـذي تمنـى عـدم وجـود البـاب أو فتحـه ولـو بالخطـأ للحظـة واحـدة صـمّ آذنيـه قهـر الرجـال الـذي تملكـه سـكرًا أزال حوّاسـه فلـم يعـد يسـمع قـول فـرج أو يـراه، ولم تطـل حيـاة فـرج إذ وُجـد مشـنوقًا بظـروف غامضـة، فمنهـم مـن قـال إن مـن شـنقه الـذي ورطـه بقتـل إسـماعيل؛ لإخفـاء أي أثـر وراءه، ومنهـم مـن قـال إن أحمـد جنـد أحـد الجنائيـين لقتلـه.

* * *

متحسسًا في الظلمة باحثًا عن باب الزنزانة استعان شادي بحاسة السمع لوصول غايته، وبعد أن لامس حديد باب الزنزانة الأملس بخلاف جدرانها أخذ بالنداء ولم يجبه أحد، لكنه دأب على فعل ذلك مرارًا وتكرارًا ولم تكن تُفتح الطاقة الصغيرة في الباب إلاّ لإعطائه وجبة طعامه وتُغلق مباشرة.

وبعد أن ضاق شادي ذرعًا أعلن إضرابه عن الطعام ثم عن الماء، وما أن وصل للباب يريد الطرق يائسًا، تفاجأ أنه فُتح ليرى النور ولا شيء سواه، خفت النور رويداً رويداً فشاهد فتاة جميلة ساكنة مثل بحيرة مدَّت يدها لمصافحته فامتنع، ولم يمنعها ذلك عن التعريف بنفسها: أنا شيرا باحثة وناشطة في مؤسسة حقوقية، وحضرت للاستماع إليك والحديث معك، فأنا بحاجة لأن تسمع مني، كما أنني أعتقد أنك بحاجة للحديث معي.

لم يجد شادي في معروض نفسه أية كلمات يجيبها بها، وقد تفهمت ارتباكه، فأعطته موعدًا آخر، وساعدته قبل مغادرتها عندما طلبت إنهاء معاناته في العزل الانفرادي.

أيقن أهل فريال أنها لم تغدق عليهم من مالها، ولم تستطع فعل ذلك؛ لأن المال وضع في البنك باسم منى، فعاملوها كمن لم يخطئوا بحقّها يومًا، وبقيت غريبة في بيت أهلها كما كانت في بيت زوجها، وتحيّنوا فرصة للطلب منها المغادرة، فصنعت منى الفرصة رغبة منها في المغادرة فقالت لجدّها حمدان كل ما لم تستطع فريال قوله من عتاب وسباب وإهانات وهاجمته بشدَّة، فهي وأمها معهما ما يكفيهما للعيش بكرامة لسنوات قادمة، وكل ما في الأمر أن فريال أرادت أن تعوضها حرمانها من أهلها وهي تعلم أنها تخادع

نفسها بمجاملتها البحث عن حبهم لها لأنها عاشت البعد عنهم وحرمانها إياهم هذه المرَّة وهي بينهم، فغادرت للسكن بعيدًا عنهم واستقر بها الحال في أرقى أحياء عمان بإحدى العمارات التي ضمّت في شققها عائلات من صفوة المجتمع، وكانت منى أسعد ما يكون يوميًا في السكن الجديد لقربه من جامعتها التي كانت تغادرها يومياً مع آخر الطلاب والطالبات، وعلى مقاعدها تميزت في جميع المحاضرات، فدرست اللغة العربية وكان من المفترض عليها أن تدرس الصحافة والعلوم السياسية؛ لكثرة نشاطاتها ونقاشاتها السياسية، وتعرَّضت مرات عديدة للمساءلة من قبل المخابرات لولا نفوذ أبناء العائلة الذين كانوا كرماء معها على النقيض منها.

وسرعان ما تألقت فريال بين نساء العمارة، فرغم ما ألمت بها من هموم إلا أنها بقيت جميلة، وكل من رآها اعتقد أنها مذيعة أو طبيبة، لكنها كانت في نفسها أبسط من أن تشعر أنها محل إعجاب كثير من الرجال، ولفتت فريال نظر أحد ساكني العمارة أكثر من غيره، ولم يكن مجرد لفت نظر عادي ما أثارته فريال في نفس بدَّاد المخرج السينمائي الشهير الذي تحين الفرص لرؤيتها والحديث معها، ورغم ما لمسه فيها من بساطة على كل الصعد إلا أنه أعلن هزيمة قلبه أمام سطوة جمالها، فتزوجها بإصرار من منى التي أرادت الانتقام من ذكرى أبيها بداخلها.

* * *

في طريقة للسجن التقى أحمد بجميع الأسرى الذين غُرّر بهم في غرف العملاء، وجميعهم كان نادمًا لأنه تكلم وبالغ في أفعاله، وسبب

ذلك أنهم جميعهم مرَّوا في مرحلة سبقت إرسالهم لأقسام العصافير، هذه المرحلة يقوم خلالها المحقق بخلق كائن جنون العظمة بداخل كل أسير من خلال دغدغة مشاعره ووصفه بمفردات كقوله أنتَ المطلوب رقم واحد والأكثر خطورة، وأكثر من أرهقنا، ومن هذا القبيل. وما أن يصل هذا الشاب إلى غرف العملاء بعد إيهامه أنه أنهى التحقيق وذهب إلى السجن، يقوم هؤلاء العملاء بتكملة هذه المسرحية، ولكن بطريقة أخرى من خلال وضع هذا الشاب مسئولًا تنظيميًا ليشعر بالمجد والعظمة أكثر ويبوح بكل ما عنده وما ليس عنده، أو بإهماله حتى يشعر بالحاجة للحديث مع أحدهم، وإذا لم ينفع ذلك يتهمونه بالعمالة حتى يدافع عن نفسه من خلال سرد سيرته النضالية، وفي كثير من الأحيان يكون للكذب النصيب الأكبر من حديثه.

وداخل هذه الغرف شاهد شادي شابًا حديث السَن غير متعلم وضعيف الشخصية يريد الحديث للنجاة بنفسه، فتحدث بما حدث وما لم يحدث دون أن يعلم ما سيحل به وبسنوات عمره التي سيقضيها خلف الأسوار، فجلس في سيارة نقل الأسرى وتأمل جميع هؤلاء الشباب الذين اصطفوا للركوب وتذكر صُراخ المحقق وهو يقول له نحن في حرب مسموح فيها كل الأسلحة، وتذكر صورة الشيوخ الزائفة الذين ضللوا بعض هؤلاء الشباب، وارتسمت أمامه صورة أيمن الشاب الطويل المدلل الذي أوقع به رغم أنه همس بأذنه محذرًا إياه منهم، وعلق على كل ما رأى:

في الحرب على الإرهاب

حسب شريعة الغابة السائدة

يأتون بابن الثورة الغض الطري

على شيوخٍ نجدية غادرة

فيؤمونه بصلاة عابرة

هلاّ تسامرنا بُنيَّ

تحدُّثنا عن الأيام الخالية

فالسجن يحتاج للمكاشفة

ويأتيه الشيطان يتهادى بعاصفة

من ينعها فاضت عيون الناسك الحَدِثِ

ركمٌ شاتيه

وفرش عباءته

وأنشد شاديًا

أنا ملكت الصارمَ المصقول

وضربت منه رقابهم

أنا كنت أحرق قمحهم

وأطيب نفسًا

وعلى صدقه وكذبه

وقع الشيطان على سنين عُمره

20

نـزعَ أحمـد نحـو التشـدد، وعبِـد الله مخلصًـا، فصـلّى وقـرأ القـرآن حتـى إنـه كان يُنهـي قراءتـه في كل يـوم وليلـة مـرَّة، هـذا قبـل أن يحفظـه، ولكنـه لم يشـأ أن يتفكـر أو يتأمـل، وفي عزلـه الانفـرادي وحيـدًا نـسي وجـود العـالم للحظـات، كـما أنـه شـعر أن العـالم قـد نسـيه، فهـذا كلـه عايشـه قبـل نقلـه إلى زنزانـة أبـو سـيف الأسـير الفلسـطيني الـذي أمـضى أطـول مـدة عـزل انفـرادي عـلى الإطـلاق.

واعتقـد أحمـد عنـد دخولـه للزنزانـة أنهـا فارغـة؛ بسـبب صغـر حجـم أبي سـيف وهدوئـه، ولـون بشرتـه القاتمـة وهـو في النهـار موجـود فقـط حسـب

منطق الفيزياء كجسم لا أكثر، ويعتبر أبو سيف من أول من نفذ عمليات داخل الأرض المحتلة قبل وبعد احتلال عام 1967م، وهو رجل عسكري وقناص بكل ما في الكلمة من معنى، ويجيد عدة لغات، وكان ذا عزيمة ووعي، عاش حياة العزل طواعية وشخصيته نسجت حولها كثير من الحكايات واللغط بسبب خلافه مع حزبه، وراق للعديد الإساءة له، لكن الذين عايشوه لم يروا منه إلاَ عزمًا ووعيًا وتلاوةً للقرآن وكل ما هو طيب وخير، وعانى لبعده عن حماية الأسرى، فللحياة ضمن نسق اجتماعي كحياة الأسرى الجماعية فوائد من ضمنها الحماية التي تمنع تفرَّد مصلحة السجون بالأسير عندما يكون منفردًا لوحده في الأسر، وتكون في أحسن أحوالها إدارة ذاتية أشبه بحكمٍ ذاتي مقيد.

ولم يحظ أبو سيف بهذا كله، فكثيرًا ما أنقذوه بخرطوم الماء المنطلق نحو جسده بقوة، ولطالما حاولوا تجنيده بعروضات وتلميحات، وبعدها زادت معرفتهما ببعضهما البعض، تفاعل أبو سيف مع أحمد غير عادته، فقد سرَّه مهارات أحمد اللغوية بالإنكليزية والعربية والعبرية، وقبالة زنزانتهم نزل محسن أسير سوداني من أسرى الدوريات الذين تسللوا للأرضي المحتلة، وشعر أحمد بثقافة محسن عن بُعد، وظنَّ أنه قام بالتهام كُتب السجن جميعًا، عدا أنه خفيف الظلَّ، كثير الغناء والمناداة، ولاحظ أحمد أثناء عودته من العيادة أعمال بناء تجري في السجن، فأخبر أبو سيف بها، فقرَّر الخروج للعيادة والتي لم يعد على زيارتها من زمن، وعند عودته وعلى قبالة ورشة البناء انبطح أبو سيف ممسكًا رجله بتألم وكأنه تشنج ولم يستطع الحراك، وعلى مدخل العيادة استعاد عافيته، فقرر السجانون إعادته للزنزانة، وفور

إغـلاق البـاب عليـه وعـلى أحمـد أخـرج مطرقـة مـن عـلى سـاقه التـي ثبَّـت فوقهـا مطـاط ملابسـه، ولم يـألُ جهـدًا أبـو سـيف بإقنـاع أحمـد بالهـرب والـذي سرعـان مـا اقتنـع بذلـك، وعمـل كلاهمـا عـلى الحفـر أيـامٍ وليـالي مستعينين بمفـكٍ كبـير خلصـه أبـو سـيف مـن قبـل حصولـه عـلى المطرقـة، وتخلصـا مـن الـتراب مـن خـلال سـحقه جيـدًا ثـم إذابتـه بالمـاء وتصريفـه خـلال دورة الميـاه، وبعـد أن اكتمـل العمـل وأصبـح في نهايتـه أخطـأ أحمـد خطـأً مميتًـا معتقـدًا أنـه بسـيط عندمـا طلـب منـه أبـو سـيف تنظيـف بواقـي الـتراب التـي علقـت بأحذيتهـم وسـقطت عـلى الأرض بالقـرب مـن بـاب الزنزانـة، وكان أبـو سـيف بمثـل هـذه حـالات يزيـل هـذه البواقـي مـن الزوايـا الصغـيرة بلسـانه، ثـم يقـوم ببصقهـا بكـف يـده إلاَّ أن أحمـد أهـرق عليهـا المـاء فخـرج بعضهـا خـارج بـاب الزنزانـة، وفي الليـل وأثنـاء سـهرهما عندمـا أخـبر أحمـد أبـو سـيف بـما جـرى اسـترجع أبـو سـيف وقـام ولبـس حـذاءه وطلـب مـن أحمـد فعـل نفـس الـشيء، فسـخر منـه، لكـنَّ أبـو سـيف أصرَّ وقـال لـه سـوف تحـضر إحـدى وحـدات القمـع والتفتيـش، لكـن أحمـد خالفـه الـرأي وسـهت عينـاه سـاعة مـن الزمـن، واسـتيقظ عـلى ارتطـام جسـده بـأرض الزنزانـة، وفي التحقيـق خاطبـه ضابـط التحقيـق البـدوي: إحنـا بنقـص أثـر الطـير في السـماء، كيـف الـتراب إلـلي تحـت أرجلنـا؟ إحنـا عرفنـا في حفـر وهـرب مـش مـن شـكل الـتراب ولا ملمسـه، مـن رائحتـه.

وبعـد فشـل عمليـة الهـروب أصبـح أحمـد بزنزانـة انفراديـة بعيـدًا عـن أبـو سـيف، وبقـي أبـو سـيف وحيـدًا في الزنزانـة بعـد فشـل عمليـة الهـروب، فاسـتغل أحـد الضبـاط حالـة اليـأس التـي يمـر بهـا وناقشـه مطـوّلًا بـكل الموضوعـات الهامـة وعديمـة القيمـة، وفي إحـدى تفصيـلات الحـوار غـير المهمـة

أسقط الضابط لأبي سيف عبارة إذا ممكن نكون أصدقاء ونتواصل على الدوام، ردَّ عليه ولأول مرَّة بعد عروضات كثيرة قُدّمت لأبي سيف قبل هذا العرض بالموافقة، ولكنه اشترط أمرًا.

الضابط: ما شرطك؟

أبو سيف: أختك أحتاج إليها هنا في هذه الزنزانة لليلة.

الضابط وبعد أن استشاط غضبًا: أنتَ سافل وغير محترم.

أبو سيف: انظر كيف غضبت لشرفك، وخضت في غمار شرفي.

الضابط: أنا لم أمس بشرفك.

أبو سيف: تريد أن تحولني إلى خائن، يخون وطنه وشعبه، وتقول لي إنك لم تمس بشرفي، هل تقبل أنت بإيصال أخبار زملائك في الأمن إليَّ.

أرأيت كيف تتصرف؟! فأنت تعتقد أنك أفضل مني.

انسحب الضابط الذي لم يجد بُدًا من تحية أبو سيف باحترام.

* * *

على عجل خرج شادي من وعثاء نومه وحضّر نفسه بفرح معتقدًا أن أمه حضرت لزيارته، وفي قاعة الزيارة شاهد شيرا التي حصلت من الشاباك على إذن لزيارته.

شيرا: لن أعيد التعريف بنفسي.

شادي: أرجو أن تعرفيني بعملك.

شـيرا: أنـا باحثـة وأعمـل أيضًـا عـلى إتمـام ترجمـة للقـرآن الكريـم وهـذا عمـل خـاص بي شـخصيًا.

شـادي: لا أعتقـد أن ترجمـة القـرآن ممكنـة مـن قبـل شـخص واحـد بصراحـة لم أقتنـع بـما ذكـرت.

شيرا: أنا مهتمة بترجمة الآيات التي ذكرت فيها هذه البلاد.

شـادي: أعطنـي قلمـك، ثـم خـطَّ أمامهـا حرفـين مـن أحـرف اللغـة العربيـة وهمـا ميـم والألـف، وأمرهـا فقـرأت مـا.

شادي: ما معنى هذا؟

شيرا التي لم تعثر على معنى واحد بقيت صامتة.

شـادي: لهـذان الحرفـين في اللغـة العربيـة قرابـة العشريـن معنـى، فهـي حـرف واسـم للتعجـب والاسـتفهام والاسـتنكار والنفـي والوصـل ولإعجـازكِ، فأنـت ارتقيـت مرتقـى صعبًـا، أتمنـى عليـك إذا مـا كان عملـك يتقاطـع مـع الشـاباك أن تخبرينـي.

شـيرا: أريـد أن تطمئـن لا يوجـد شيء مـن هـذا، لكـن لمـاذا أنـت لديـك حساسـة زائـدة مـن الشـاباك؟

شادي: لأنه يسبح بدمنا فوق كل رابية وتحت كل سارية.

شيرا: وأنت بدم مين سبحت؟

شادي: أفهم أني مُتهم!

شيرا: أنت مُتهم بقضية وإن كان دورك فيها هامشيًا إلاّ أنها أفضت للقتل بدم بارد إذا ما زلت ذاكرًا اسم الجندي المقتول.

شادي: إذن هيك إسماعيل اسمه... واسم أمه... وأنا متعاطف معهم لأبعد حدود، لكن أنت عارفة وين المشكلة؟

شيرا: بسمعك، وين المشكلة؟

شادي: المشكلة فينا لأننا ما بنعد صح، في كل مرة نحن من نُقتل ونُؤسر، وأنتم من يبكي ويتألم.

فقد قُتل عرب في حروبنا معكم، وقتل منكم في هذه الحروب، كما قُتل أيضًا منكم على يد الفلسطينيين من بعد احتلال البلاد جُلهم من الأطفال والنساء والشيوخ العُزل وشباب ليسوا بمقاتلين، وحكم على الإسرائيليين على قتلهم ثم سرعان ما عُفي عنهم.

فمجموع سنوات أسر أبناء شعبي وإذا ما وصفنا دوافع الفلسطينيين في القتل نجد أنها مُبرّرة، فالفلسطيني الذي تُسرق أرضه مصدر رزقه، ويُقدم على القتل غير الإسرائيلي الذي يقتل بدوافع تلمودية كاذبة.

شيرا: كيف أفهم هذه التفاصيل التي ذكرتها والغاية منها؟! هل هكذا قاموا بتعبئتك وتحريضك لمثل هكذا ادعاءات.

شادي: إذا كان مجرَّد ذكري لهذه الأشياء تحريضًا، فكان الأجدر بك أن تقولي إن فعلكم لهذه الأعمال بحقنا كان أكبر تحريض لنا.

شيرا: أنا باعتقادي تحميل المسئولية للاحتلال في كل شيء بعيد عن الصواب.

شادي: الاحتلال مسئول حتى عن الاعتداء على التاريخ، عندما يقوم باقتلاع شجرة زيتون عمرها ثلاثة آلاف عام وغرسها في مستوطنة، هذا تزييف واضح للتاريخ.

وعندمنا يستخدم أسلحة مُحرَّمة في وجه شعب أعزل.

وعندما يمارس ضغوطاته على شعب أعزل بالتعاون معه مستغلًا حاجاته الإنسانية، تكون هذه جريمة من مسئولية الاحتلال.

ومن آخر جرائم الاحتلال الإبعاد وعدم لمّ شمل العائلة الواحدة.

شيرا: يوجد بلاد عربية كبيرة وكلكم عرب.

شادي: هذه معلومة خاطئة، هل ذهبت وشاهدت كيف يحيا سكان المخيمات في الدول العربية المجاورة وكيف عاش فيها الفلسطينيون عشرات السنين؟!

شيرا: كيف؟

شادي: لقد عُوملوا معاملة الحيوانات، هل تعلمين لماذا؟

شيرا: لا.

شادي: بكل بساطة لأن الدول العربية ليست وطنهم ولا يوجد لهم وطن آخر غير وطنهم هذا.

وبعد أن داهمها الوقت والسجان وأنهى الزيارة وخرج كل من طريق، مشى شادي برفقة السجان، وعند مدخل إحدى ممرات السجن القريبة من غرفة الزيارة أشار له السجان نحو النافذة بحركة متعمدة يريد أن يريه شيرا وهي تتحدث مع أحدهم.

السجّان والذي أراد لفت انتباهه بذكاء: ذاك هو الماتور سيكل الخاص بي.

شادي: جميل.

لكنه تفاجأ برؤية محققه الحاقد الذي لطالما صرخ بوجهه يتحدث إلى شيرا، وأخبر شادي بعد عودته للقسم كلًا من صالح وإبراهيم بكل ما جرى معه، وقصة ذلك السجان الذي أقدم على فعلٍ لم يفهمه شادي ولا صالح ولا إبراهيم الذين رجّحوا أن تكون دوافع السجان لمثل هكذا تصرف أن يكون يساريًا تعاطف مع شادي بذكاء، ولربما اعتقد أنها محامية فكشف أمرها بغبائه، ولربما أراد الشاباك فعل ذلك مع شيرا، فأرادوا أن يحرّضوا شادي عليها في حال كانت زيارتها للسجن لا تروق لهم.

* * *

لم يكـن بـدَّاد مـع منـى إلا إنسـانًا بـكل مـا للإنسـانية مـن معنـى، فلـم يَـدَع رِقّـة ولا رأفـة إلا وأفـاضَ بهـا عليهـا، رغـم أنـه مـن بيئـة صحراويـة إلا أنـه كان مستوعبًا لكل تمرُّدها غير أنها لم تدع للحلم مكانًا، فكانت متشدَّدة في سـلوكها ويسـاريتها، ولم تـراعِ للعـرف خصوصيـة، ولا للديـن حرمـة، وكانـت مدخنـة شرهـة، وتكلمـت في حضـور بـدَّاد أكثـر مـن مـرَّة بـما يستدعي الغضـب، لكنـه تمالـك نفسـه، ومـع الأيـام تيقـن أن عطفـه عليهـا هـو المشـكلة، وأنَّ احترامـه لهـا يـأتي بنتائـج عكسـية، وأنَّ كل الاسـتهداف الـذي يلقـاه منهـا مـا هـو إلا انعـكاس لمشـاعر الألم التـي سـببها بهـا زيـدان لهـا ولأُمهـا.

وقدمـت في إحـدى السـهرات سردًا للشـيوعية حاولـت مـن خلالـه أن تُقنـع الحضـور أن الشـيوعية هـي الشـعور السـليم الـذي تنـزع إليـه النفـس البشريـة، وتواقحـت إلى حـدّ إدعائهـا أن الشـيوعية للزوجـات كان لهـا مـا يبرّرهـا في قديـم الأزمـان، وتدخّـل بـدَّاد متوجهًـا إليهـا بالحديـث: 189

جميـل أن يحـترم المتحـدث مشـاعر الحضـور والتـي أساسـها أعرافهـم وتراثهـم، وإذا لم يُـرد أن يُقـدّم لهـم هذا الاحترام فالأجدر بـه أنَ لا يجلس معهم.

منـى: هـذه الأشـياء هـي التـي أتـت بنـا إلى الـوراء، وأنـا شـخصيًا لا أريد أن أجلـس معكم.

وبلغة جديدة وغير معهودة تحدثت فريال:

هـذا مجـرد حـوار، ومـن الخطأ التلفـظ بألفـاظ غـير مقبولـة كـما أنـه يجب أن نسـتمع لبعضنـا البعـض حتـى النهاية.

بـدَّاد: مـن المستغرب لـديَّ أنَّ جميـع هـؤلاء اليساريين يـرون في الديـن والأعـراف رجعيـة تستغلها الإمبرياليـة، لكـن جميعهـم وأنـت منهـم يمسـكون بأيديهـم علـب المالبـورو ولا يلبسـون ولا يأكلـون إلا مـا صنعـت الإمبرياليـة المتوحشـة. هـذه الجزئيـة الصغـيرة والتـي هـي بحجـم علبـة المالبـورو لم أقـدر عـلى استيعابها يومًـا.

منى: لأننـا لم نجـد البديـل ولا الأفضـل في المنتـج الوطنـي الـذي يسـيطر عليـه الإقطاعيـون الجـدد، ويسـتعبدون العـمال ويسـتأثرون بالمدخـولات ويُقدَّمـون لنـا منتجًـا سـيئًا.

بـدَّاد: أفضـل عنـدي تسـتعبدهم لقمـة عيشـهم وعيـش أولادهـم ومـا تسـتعبدهم ملذاتهـم وغرائزهـم المجـرَّدة مـن أي عمـق مجتمعـي.

* * *

جـاء العيـد وكان كـما كل عيـد يمـر عـلى أهـالي البلـدة صباحًـا حامـلًا بالمواجهـات، فعـلى مـدار سـنوات الانتفاضـة كانـت أشـد المواجهـات تجـري في أيـام العيـد تحديـدًا بعـد صـلاة العيـد مباشرة، وبحسـب الإحصائيـات فـإن أعـداد الشـهداء نهـار العيـد في جميـع المناطـق كانـت الأعـلى دائـمًا.

مضـت مراسـم زيـارة القبـور صبيحـة هـذا العيـد بـاردة كـما الأجـواء مـن حـول سـليمة ومنتهـى وأُسر الشـهداء، ولم يطـل عليهـم أي مـن الأحبـاب كصبـح العيـد المنـصرم صبحًـا خبّـأ الـورد في البندقيـة وفي أكـف صالـح وإبراهيـم وأحمـد يومهـا وهـم يحتفلـون الآن بـه في أسرهـم، واحتفـل أحمـد

بالعيـد في زنزانتـه الانفراديـة عـلى طريقتـه، فاسـتيقظ باكـرًا واغتسـل وحلـق ذقنـه ولبـس مـا اعتقـد أنهـا ثيـاب تليـق بالعيـد، وفتـح مذياعـه عـلى أغـاني العيـد المكـرَّرة منـذ عقـود، فالعيـد فرحـة إلهيـة مهـداة مـن عنـد الله تدخـل قلـوب جميع الخلـق في لحظـات العيـد الأولى، وهـذا يحـدث في الأسر أيضًـا، فهـذه الفرحـة لا تمنعهـا أسـوار السـجن ولا الحديـد المرصـع بالكراهيـة، لكـن سرعـان مـا تعـاود الذكريـات بعـد أن تسـافر هـذه الفرحـة مسرعـة النبش عـلى مكامن الأشـواق في النفـس للأهـل والأحبـاب، واحتفل أحمـد في زنزانتـه والعيد منفرديـن وخاطبه:

مرجوحة العمر

مشنقة السنين تطاول الاحلام

وبيادر المنى على جفون السهاد

مرّي ليَ ملاعب الصبا

أريج حرية تفوح بالطشور والبنور

وخجل الغروب على ثياب من تراب

أيُّ عيد أنت في تقويم السجون

والنزوح والجرح والخراب

ترتدي زيّ الفرح

يا مارد الحرمان

ومصباح السهاد والأَرق

على هامش الدينا وصلت

واليوم أنت اليوم من غير عيد

من غير حلوى أو أريج

لكننا يا عيد أهلٌ للقرى

فلن نزدريك

وإن شطت بك الدار

وسيعلم الأعياد فيك ثورة الفرح

وكيف تغدو السعادة خفق ثوار

عصاه الرجوع والجزع

* * *

قاتلت شيرا لزيارة شادي على محورين؛ الأول الشاباك الذي لم يكن مقتنعًا بالزيارة، وبعد أن تغلبّت على هذه المعضلة واجهت صعوبة في إقناع شادي الذي رفض وبشدَّة، لكن المسؤولين التنظيميّين داخل السجن أقنعوا شادي بمقابلتها ووفروا له غطاءً لمقابلتها، وهذا كله حدث بعد الحركة التصحيحية التي قادها مجموعة من قادة الأسرى الذين امتازوا بوعي وحسّ وطني كبير، فقد أتلفوا كثيرًا من الاعترافات التي انتزعت بالقوة،

والتي لولا قدر الله تسرَّبت خارج السجن لانقسم الشارع الفلسطيني ما بين خائن وشريف، وقاتل ومقتول، وقُضي على هذه الظاهرة التي أصابت حينًا وأخطأت أحيانًا، وأصبحت الإجراءات الأمنية والتي دأب عليها الأسرى محلَّ تندُّر، فقد رافق الحركة التصحيحية انتخابات أفرزت قيادة جديدة، ومنذ هذه الحركة أصبحت الحياة الديمقراطية في الأسر متفوقة على نظيراتها في الخارج، فالدورة الانتخابية في الأسر لا تطول مدتها عن نصف عام، وخلال هذه المدة القصيرة مطلوب من الكادر التنظيمي المنتخب إثبات نفسه وفعاليته على كل الصُّعد، وتتم مداولة السلطة بسلاسة.

خرج شادي لمقابلة شيرا مزودًا بثقة إخوانه به فثقة المجتمع بعضه ببعض مهمة، فشعبنا الفلسطيني من أسباب «إحجامه» عن المقاومة كما يجب انعدام ثقة الفرد بالآخرين، فالجميع يعتقد أنه محاط بالعملاء وهذا غير صحيح؛ لأن الشعب الفلسطيني يعتبر الخيانة ثلمًا في العرض.

أخبرت شيرا شادي خلال اللقاء بحقيقة عملها، وعملت جاهدة على إقناعه أنه مجرَّد ثقافة يحدث في أيّ دولة مؤسسات، وأنها ليست من الشاباك، وشعرت للحظات أن الحوار ميئوس منه وتحضّرت للخروج، لكنَّ شادي قبل بالاستمرار بمحاورتها، وضحك بلطافة رآها بأسلوب حديثها بعد أن قدَّمت له شرحًا عن ما الحجازية والتميمية وعلم كلّ منهما، وزاد في ضحكه، الآن أُصبحتِ قادرة على ترجمة القرآن!

شيرا: أكلمك من حيث توقفنا في المرة الماضية عندما ادعيت أنه لا يوجد وطن آخر لكم، وأنا أقول لك بأن هذه الأرض وقف لبني

إسرائيل، والعالم المتحضر يفهم لماذا نحن ندافع عنها وعن أنفسنا.

شادي: أنا لم أتكلم معك فرضكم لروايتكم التاريخية على العقل الغربي، ولا عن ميزان القوى المختل لصالح كيانكم، أنا تكلمت معك عن الحق المجرَّد الذي لا يوجد في هذا العالم إلى هذا اليوم أحد ينصرهُ أو يقبل الوقوف بصفه؛ لأن ظروفنا مختلفة عن ظروفكم، وكثيرًا ما عرف التاريخ شعوبًا مرَّت بظروف كظروفنا وبعدها سرعان ما عاد وصلح حال الشعوب، واعتقد أن هذا يذكرك أنت وقومك بشيء ما.

شيرا: تقصد أننا اختلقنا معاناتنا (الهولوكوست) فماذا عن العمليات التخريبية؟

شادي: ورغم أنكم جيَّرتم الهولوكوست من السياق العام إلى السياق الخاص إلا أنني متعاطف مع ضحاياه وأعتقد أن الذي يمنع شعبي من التعاطف معكم طرقكم أجسادهم بكل أساليب القمع على مدار الساعة، ولو تغير هذا الوضع لتعاطف الفلسطينيون أكثر من غيرهم مع هؤلاء الضحايا، كما تضامنوا من قديم مع يهود الأندلس الذين احتواهم المسلمون ووصلوا إلى مراتب عليا في الدولة وأحرقتهم بعد ذلك محاكم التفتيش هم والمسلمين على حد سواء، وحمى الفلسطينيون اليهود بلحمهم في القدس بفترات عديدة أبرزها في الحملات الصليبية فبعد أن قتل الصليبيون سبعين ألف مسلم عندما احتلوا القدس قُتل جميع هؤلاء قبل أن يصل الصليبيون لمن كان في المدينة من يهود.

وكذلـك فعـل العثمانيـون في العصـور الوسـطى عندمـا اسـتباحت أوروبـا عقائدكـم ودماءكـم، وقبـل أن تبحثي في معـاني آيـات القـرآن الكريـم التي ذكـرت هـذه البـلاد أدعـوك لتبحثي عـن خصوصيـة الـشرق والانصهـار المجتمعـي الـذي عرفـه الـشرق عندمـا كان الغـرب مقسّـمًا طوائـف وأعراقًـا متناحـرة.

شـيرا: إذا كان لديـك تحفـظ عـلى بحثـي في القـرآن ومـا يخـص هـذه الأرض أسـتطيع أن أقـدم لـك روايـة التـوراة.

شـادي: أنـا حتـى وقـت قصـير كنـت مؤمنًـا أن التـوراة مجموعـة مـن شرائـع حمـورابي والكلدانيـين والكنعانيـين وهـذا كلـه عندمـا كنـت ملحـدًا، لكـن اليـوم أقـول لـك إن التـوراة التـي كُتبـت بعـد أكثـر مـن سـبعمائة عـام في بابـل، مأخـذي عليهـا أن الـرب في التـوراة ذاتهـا نهـى عـن كتابتهـا (أمَّـا وحـيَ الـرُّب فـلا تكتبـوه بعـدي؛ لأنَّ كل كلمـة إنسـانٍ تكويـن وحيـه)، وهـي مرحلـة تقـرَّرت بمجهـود بـشري وقعـت عليـه السـماء كـما ادعـت أقـلام البابليـين، أنصحـك أن تفرّقـي مـا بـين وحـي القلـم ومقـررات الألم، فاليهـود في بابـل عانوا السـبي والنفـي فكانـت نفوسـهم غاضبـة وحامقـة مـا انعكـس عـلى كتاباتهـم.

وهـذه الأقـلام التـي بجلـت موسـى ويوسـف وأبنـاء يعقـوب وأعلـت قدرهـم لحـد التقـارب مـع الألوهيـة تختلـف كل الاختـلاف عـن أصابـع ليئـا وراحيـل الضامـرة التـي كانـت تخبـز الشـعير وتحمـل الشـاة، وترتجـف مـن بـرد وعتمـة وجـوع في غالـب الأحيـان، فمـن المسـتحيل أن يكـون شـاغل هـذه النفـوس في تلـك الأيـام الصعبـة ترقيـع ذاتهـا عـن باقـي المسـاكين الذيـن عاشـوا

معهم ذات الحياة البسيطة حتى إنهم كثيرًا ما احتاجوا الطعام وطلبوه من دول الجوار كمصر.

فأظهرت أقلام حكماء اليهود في بابل حياة أبناء يعقوب فوق هذه الأرض مثالية وكأنهم يحيون بمملكة اتصلت بأنهار من سمن وعسل فاضت بها السماء.

شيرا: وهي كذلك حتى إن القرآن تحدث عن عظيم مُلك سليمان فيها.

شادي: وتحدث القرآن عما حققه الإسكندر والنمرود وشدّاد بن عاد، وملك بني إسرائيل أقل بكثير مما حققه هؤلاء، وعلى الباحثين أمثالك أن يميزّوا ما بين كلا المُلكين، فليس من الإنصاف أن نقول إن أنبياء بني إسرائيل أحرقوا وقتلوا كل شيء أمامهم كما فعل النمرود وتموجين، وإذا ما كان هذا صحيحًا بأنهم فعلوا ذلك، فهذا لا يعطيهم ميزة أو حقًا سماويًا، فلماذا تميزّوا عن أي سافك دم أو مجرم مرّ من فوق هذه الأرض؟! وعدم إيماني بما كتبه حكماء بني إسرائيل في بابل نابع من فكرتي عن أنبياء بني إسرائيل أنهم ليسوا مجرمين ولا قتلة، ولم يكن أبونا إبراهيم بيومٍ من الأيام قاطع طريق حتى يأخذ ابنه وزوجته ويرمي بهما للوحوش، وإذا كان فعل هذا ماذا أبقى لقطاع الطرق؟!

وهذا القرآن ربّنا ذكر فيه موسى وبني إسرائيل أكثر من سيدنا محمد، وذكر هذه الأرض أكثر من مكة، وهذا لا يعني أن مكة أقلُّ شأنًا من هذه الأرض، بل لأن محمدًا جاء ليذكرّ بما قاله موسى ويمشي على خطاه ويكمل الذي بناه، فالقدس والتوراة نور ربنا كما القرآن، والعيون

التي أعماها الحق محجوبة عن هذا النور، من أجل ذلك أنصحك إذا ما فتحت الكتاب المقدس أن تفتحي معه قلبكِ وعقلكِ.

وشمل الحديث موضوعات عدة حول المهم وغير المهم، وكان للمزاح نصيب منه قبل أن تغادر وبداخلها حقيقة مفادها أنَّ ثمة صدقًا في الرواية الفلسطينية.

* * *

الإضراب عن الطعام يأتي في قمة الآلام في النضال ضد السجان، ولم تعط إسرائيل للأسرى الفلسطينيين من حقوقهم الحد الأدنى رغم إضراباتهم المتكررة إلاّ أن هذه الاضرابات جعلت حياة الأسر تستمر بكرامة، وأسقطت من قاموسها الثوري كلمة سيدي والضرب المبرح الذي كان يتعرض له الأسير أثناء عودته من العيادة والبوسطة، وكذلك التفتيش العاري والعمل لصالح جيش الاحتلال في النجارة والخياطة، وحققت الإضرابات بعض المطالب الحياتية مثل الحصول على فرشة، وسمح له بمشاهدة نشرات الأخبار.

وعلى مهل ودون ارتباك تشاور الأسرى فيما بينهم وشملت الحوارات الكوادر الحزبية داخل الحزب الواحد وفيما بينها، وجرى استطلاع للرأي على الورق لمعرفة مَن مع الإضراب أو ضده، وأظهر الاستطلاع تفوق نسبة المؤيدين، وصدرت البيانات والنشرات المحفزة للهمم وأُخرى صحية تحث على شرب الماء بكثرة، وقائمة أجملت مطالب الأسرى والتي اشتملت على ما هو واقعي قابل للتحقيق، وما هو مبالغ فيه على قاعدة اطلب الكثير

لتحصل على القليل، وردَّت مصلحة السجون بسحب ما بيد الأسرى من إنجازات سابقة حققوها بدمائهم.

واستمات الأسرى في إضراباتهم فهم يعلمون أن لا مكان للهزيمة، فإذا لا قدّر الله وقعت، عاد الأسرى إلى نقطة الصفر.

ونجاح الإضراب مرتبط بعوامل داخلية وخارجية، فالتوقيت مهم جدًا، فإضراب عام 1973م كان من أسباب نجاحه أن دولة الكيان أرادت إسكات الأسرى؛ لأنها كانت تخوض مباحثات سلام مع مصر، وكذلك حدث عام 1992م في فترة مفاوضات أوسلو، ومن ضمن المطالب التي طالب بها الأسرى إخراج المعزولين إلى الأقسام، وكان من ضمنهم أحمد ومحسن، ولا يمكن لمنصف أن يمر على الإضراب مرور الكرام دون أن يقف على تفاصيله، فلا يوجد على هذه الأرض من يترك طعامه طواعية سوى رجل يحمل بين طياته نفسًا أبيَّة، وأخلاقًا إنسانية خالية من الغريزة والجوارح المتوحشة التي تطلب الطعام بغض النظر عن ظروفها التي تحيا، فالحيوانات تأكل وأنت تضربها، وتأكل وأنت تشتمها، وتأكل وأنتَ تذبح أبناءها، وتأكل لحمها أمام ناظريها، أما الإنسان فلا يستطيع فعل هذا من منطلقات أخلاقية إلاَّ إذا ما كان ناقصًا في آدميته، فالإنسان في الإضراب عن الطعام يبتعد عن غرائزه المتوحشة، وفي ساعات الإضراب الأولى استباحت وحدات القمع غرف الأسرى بوحشية لإرهابهم، وبعد انسحاب وحدات التفتيش كان كل شيء قد تمَّ انتزاعه وبقي الأسرى بلا أي غطاء أو وسادة وعلى مدى أيام تربص الجوع بالأسرى وبقي جاثمًا على أمعائهم ومن حولهم، لكن الجوع من مكونات الثورة ويشعر به المضرب في العادة على

شكل نوبات أو كما لو أن كلبًا عضه، وإذا ما أحسن هذا المضرب في طرد هذا الكلب نجا من نوبة جوعه.

والجوع يشبه بإلحاح باقي الحاجات الغرائزية والشهوانية فإذا ما اقتنع العقل أن حصوله على رغباته بعيد المنال يقنع ويرضى بالواقع مؤقتًا.

ومن جماليات الإضراب أنك تشاهد من خلال جوعك عوالم مختلفة حجتها عنها شهواتك، فترى العالم بإنسانيتك ومن خلال تواضع غير مسبوق، تتواضع خلاله حتى لفتات الخبز الذي تكبرّت عليه يومًا وأتلفته. كم كان مهمًا هذا الفتات للذين يحتاجون لمثله في هذا العالم بل الذين يموتون لأجله!

وبعد أن أيقن السجان أن الأسرى معبؤون ومصرون على الاستمرار وافق على التفاوض، لكنه استجاب إلى بعض مطالب الأسرى التي كان من بينها الموافقة على إخراج أحمد ومحسن من العزل.

* * *

لوحده أحمد في زنزانته قرأ دون توقف حتى إنه كان يقرأ ما معدَّله مئتا صفحة يوميًا ويحفظ معظم ما كُتب فيها، وأعجب بالسلفية الوهابية وصمود الإمام أحمد بن حنبل في سجنه الذي ضرُب فيه مائة وثمانين ألف جلدة في ستة شهور، وفي إحدى الروايات في عامين ونصف، ورأى في السلفية سدًّا منيعًا أمام الوضّاعين وأصحاب البدع والحفاظ على نقاء الدين. وفي إحدى أيام عودته من ساحة السجن تفاجأ بالزائر الضيف الذي سبقه

بزنزانته، فقد قامت الإدارة بنقل محسن إلى زنزانة أحمد، ولم يمضِ وقت طويل حتى أدرك محسن أن أحمد كثير العبادة والقراءة، قليل التأمل، ووجد أحمد مجموعة من الكتب التي حملها محسن معه جديدًا فقد شملت الأعمال شبه الكاملة للإمام محمد الغزالي ومجموعة مؤلفات للمفكر الإسلامي علي شريعتي، وبعض مؤلفات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وتوجه أحمد بعد أن أنهى كل ما جاء به محسن من كتب مخاطبًا محسن: أنت شيعي؟

محسن: نعم شيعي، من شيعة محمد ﷺ وعلى سُنَّته.

أحمد: وأنتم أيضًا في دار فور تقيمون علاقات مع دولة الكيان.

محسن: هذه ادعاءات غير صحيحة وبسببها قُتل وشُرّد الكثير.

أحمد: لست متضامنًا معهم.

محسن: لكني متضامن معكم وجئت من مكان يعاني منه قومي من الجوع والتشرُّد لأقاتل من أجل فلسطين، ولو اعتبرنا كلامك صحيحًا فلماذا يأخذون نساءنا سبايا ونحن مسلمون؟

أحمد: لماذا لا تعود لرُشدِك سُنيًا صحيح العقيدة.

محسن: أنا ولدت شيعيًا، والدي عمل في اليمن وتشيّع هناك على المذهب الزيدي، وأحب أن أبقى شيعيًا وأن تبقى أنتَ سنيًا، ولا تدعوني لمعتقدك ولا أفعل أنا.

أحمد: ما الحاجة لكل هذه الفرق والمذاهب؟

محسـن: الله خلـق النـاس مختلفـين، ولـو أن الله أراد لونًـا واحـدًا ومذهبًـا واحـدًا لخلق إنسـانًا واحـدًا بعقـل وجعـل النـاس تسـير خلفـه كالقطيـع.

أحمـد: أنتـم تدَّعـون أنكـم تصدّيتـم للسـلطان الجائـر والحقيقـة أن الإمـام أحمـد وأتباعـه مـن فعـل ذلـك.

محسـن: لا شـك أنـه إمـام عظيـم تعـرَّض لمحنة، لكـن أتباعـه لا يتصدون للسـلطان الظـالم بقـدر مـا هـم حاقـدون عـلى الإسـلام والمسـلمين، ولا يدعـون مرحلـة تميـل فيهـا كفـة بلـد مسـلم إلا وعاثـوا فيها فسـادًا.

أحمد: وتنكر أنهم حموا الدّين؟!

محسـن: طبعًـا أُنكـر، هـؤلاء فرضـوا علينـا هـذه الـرأي بالترهيـب عـلى العكـس تمامًـا، خصومهـم مَـن حمـي الديـن مـن التجسـيم والتشـبيه.

أحمد: وتنكر أيضًا أن خصومهم قالوا عن القرآن إنه مخلوق؟!

محسـن: لا أُنكـر، واليوم نحن وأنتم والحنابلـة يقولون ما قال خصومهم.

أحمد: وماذا قالوا؟

محسـن: قالـوا مـن المسـتحيل أن يكـون الخالـق والمخلـوق نطقـوا بالقرآن بـذات الطريقـة وإلاَّ لتشـابه الخالـق والمخلـوق، والخالـق ليس كمثلـه شيء.

أحمد: أكبر أخطاء الشيعة أنهم أرادوها وراثية لنسـل علي كرم الله وجهه.

محسـن: عـلى العكـس تمامًـا هـم مـن أرادَ منـع ذلـك، وقاوموا ذلـك حتى

في زمن سيدنا محمد ﷺ، فلم يناولوا من مدخولات الدولة حتى حبّة تمر، وإذا ما حاولوا فعل ذلك كان النبي يخرجها من أفواه صغارهم، فقد أريد لآل بيت محمد أن يكونوا سلطة أخلاقية تحول ما بين الأعراب والغنيمة التي كوّنت عقولهم، وبدليلٍ قاطع انظر ماذا حدث بعد أنّ تمّ تحييدهم كيف تأسس في المشرق أكبر مشروع ملكي وراثي.

أحمد: أُريد منك معرفة من هم الشيعةُ؟

محسن: نحن فرقة إسلامية صغيرة، وصغيرة التراث بالمقارنة مع السنّة ويخطئ كثير من علمائنا عندما يعتقدون أن السنّة دين عام خط أركانه السلطان؛ لأن السنة بعد قراءتي لكثير مما كتبوا فهمت أنهم الغالبية التي ستبقى تتفوق بإبداعها وتأثيرها وهي تضم في صفوفها من ينزع نحو الخنوع ومداهنة الظلمة وأعداء الأمة غير مكترثين بما تلاقي الأمة من ويلات، وضمت أيضًا في صفوفها من نفعَ الله بهم الإسلام والأمة وهم أكثر بكثير من السلفية الذين ذكرتهم لك.

لذا عماد هذه الأمة وخامة مادتها الأولى هم السَّنة، والشيعة ليسوا ندًا مساويًا للسنة، لكنّ الشيعة منظومة على عكس حالهم بالأمس، إذا كانوا فوضويين لا جامع بينهم انقسموا على علي وولديه من بعده وخذلوهم، وبعد مقتل الحسين جاؤوا بصحابي جليل يُقال له سلمان بن صرد وطلبوا منه الخروج بهم للانتقام لدم الحسين، لكنه شتمهم وطردهم، وقال لهم أنتم قتلتموه وأباه وأخاه من قبله وإذا كنتم صادقين فدونكم القبر ابكوا عليهم فبكوا حتى خطّ الدمع سهول خدودهم وندموا ولطموا وجوههم وهو

يرقبهـم مـن بعيـد، وبعدمـا تيقـن أنَّ الدمـع كان مسئولًا للعـادات القبليـة منهـم خـرج فيهـم لمعركـة عـين الـورد وانتقـم مـن قتلـة الحسـين وقتـل هـذا الصحـابي قاتـل الحسـين الأسـاسي عبيـد الله بـن زيـاد وأبـاه ومـن يومهـا أصبحـت الشـيعة تعتمـد الدمـع والألم كمنبّـه ومذّكـر لهـم بعـدم العـودة للفـوضى والانفـلاش، أخفـوا عقائدهـم لأنهـم ملاحقـون مـا اضطرهـم هـذا للتخفـي وصاغـوا مـا كتبـوه ومـا اعتقـدوه خفيـة، وأنـتَ تعلـم أن كل شيء منهـم وتسـهُل الإسـاءة لـه، ولعلـك ذكـرت لي أن مثـل هـذا يحـدث مـع بعـض أفـراد مجموعتكـم عندمـا كنتـم ملاحقـين، ولم يُسـمح للشـيعة يومًـا أن يصرّحـوا بمعتقداتهـم عـلى الملأ إلاَّ في زمـن الدولـة الفاطميـة وبعـض الدويـلات التـي قامـت في أفريقيـا، وفي إيـران في يومنـا هـذا.

والشـيعة الذيـن أنـا اليـوم منهـم ليـس كل مـا يقولونـه صحيـح أو خطـأ، منهـم يصيبـون ويخطئـون في اجتهاداتهـم كغيرهـم، لكـنَّ خالـص اعتقادهـم لله، فقـد كانـوا معارضـة للحاكـم الظـالم عـلى مـرّ الزمـان، فلـم تـوحِ لهـم أقلامهـم مـا يمجّـده ولم تسـلَ مدادهـم بهـواهُ ترجـو نعمـه.

وقـد سـاءهم شـتم رموزهـم عـلى مـدار سـبعين عامًـا عـلى منابـر بنـي أميـة قبـل أن يوقفـه الخلفيـة عمـر بـن عبـد العزيـز وهـذا لا يُـبرّر للشـيعة الشـتم الـذي نهجـوه زمنًـا، وكان أشـدُّه في عـصر الدولـة الصفويـة، ودام حتـى الثـورة الإسـلامية، ووقـف بوجهـه الإمـام الخمينـي وقفـة مسـئولية واعـدة، وحـدَّ منـه وشـارف عـلى اجتثاثـه لـولا انـدلاع الحـرب العراقيـة الإيرانيـة التـي غذتهـا الدعايـة الأمريكيـة وجهالـة الأعـراب، وفي الحـرب تسـوء الأخـلاق وتعلـو الأحقـاد، ولا مـكان للتسـامح.

والشيعة رضيَ من رضيَ وأَبى من أبى هم أنصار أعدل قضية على وجه هذه الأرض، قضية آل بيت محمد ﷺ، وهذه القضية من أراد نصرتها في هذا الزمن عليه أن يتحلّى بالوعي والمسئولية والوحدوية لا بالحقد والتعامل مع الأعداء.

ولدى السنة والشيعة من يسعى وراء مصالحه من خلال إثارة حفيظة العوام بالقضايا الخلافية وأغلب هؤلاء الآثمين إمَّا طلاب شهرة أو ملك، لكن لا يوجد مبرّر لإقصاء دعوة آل بيت محمد ﷺ تحت أي ظرف ومن له مصلحة بذلك غير تجار الضلال وحكام الخديعة الذين اعتادوا على مرّ العصور على خداع شبابنا الذين قدموا قرابين بشرية في حروب لا طائلة منها؟! وسيبقى شلال الدم النازف هذا متدفقًا كلما نهضت ثمار جيل أبادتها أيادي هؤلاء الحكام بسيوف وفتاوى التكفيريين الذين يريدون إرضاء أرواح الأسلاف، فالفوقية في مذاهبنا الإسلامية تتجلى بشريعة الأسلاف، فكل مذهب يقول سلفي وما عداه باطل، وهذه محاكاة للديانات البدائية، فأقدم ديانة وثنية عُرفت على الأرض ديانة تقدس الأسلاف، ففي تل الرميدة عُثر على جماجم الأسلاف التي طُليت بالجبس، وكذلك في غابات الأنكا وحولها ضحاياها من القرابين البشرية.

وأخيرًا أقول من حُسن حظكم في فلسطين أن الشيعة في هذا الزمن ظهر لديهم وعي سياسي فريد فهم يرون بفلسطين حسين هذا العصر فبعد أن كانوا حلفاء لأمريكا ودولة الكيان تحولوا لألد أعدائها لكن أرباب الخديعة من رجال دين وحكام في عالمنا العربي صوَّروا لنا الأعداء أصدقاء والأصدقاء أعداء.

وفي هـذه الأثنـاء والتـي فيهـا هـذه الحـوارات مـا بـين محسـن وأحمـد احتلَّ صـدام حسـين الكويـت بعدمـا زينـت لـه سـفيرة الولايـات المتحـدة في بغـداد هـذا الصنيـع، وعـلى أثـر هـذا الاجتيـاح حصلـت حـرب الخليـج الأولى والتـي مـرَّت في تاريـخ العـرب كلحظـة سريعـة لكنهـا مـن أهـم اللحظـات، وعـلى أثرهـا تغـيرّ الكثـير في العـالم العـربي، فاللحظـات المهمـة تكـون في مشـاعر عمـوم النـاس مبهمـة لحظـة وقوعهـا وقليـل مـن يفهـم أثناءهـا حقيقـة مـا يجـري، ومنهـم مـن لا يفهـم ومنهـم مـن يحتـاج إلى زمـن طويـل حتـى يفهـم حقيقـة مـا جـرى، وهنـاك مـن يمـوت وهـو يعتقـد أن الحـق باطـل، والباطـل حـق، فوعـي الشـعوب لا يكتمـل إلا مـع اكتـمال دورة الزمـان.

وأيـدَّت منـى اجتيـاح صـدام للكويـت، وبهـذه أيضًـا كانـت أكثـر مـن غيرهـا تشـددًا، مـا أزعـج بـدّاد، لكنـه كعادتـه ردَّ عليهـا بهـدوء وثقـة: مـا بقـدر أُعلـن معارضتـي عـلى العلـن فجلالتـه أيـدَّ صـدام، لكنـي شـايف نتائـج هـذه الخطـوة المدمـرة عـلى الأرض.

منـى: هـذه الخطـوة قامـت بـما كان يجـب القيـام بـه منـذ زمـن لإصـلاح الوضـع الخاطـئ في المنطقـة.

بـدَّاد: الوضـع الخاطـئ في المنطقـة هـي «إسرائيـل»، لكـن أنـتِ وجميـع الشـباب العـربي في هـذا الزمـن قـد أخطـأ الاتجـاه، فمنهـم مـن رأى بأفغانسـتان قاعـدة لتحريـر الأمـة، وأنـتِ بـتِ تريـن الطريـق إلى القـدس مـن الأحمـدي وجميعكـم واعذرينـي عـلى هـذا التعبـير كقطيـع شـتّت جمعـهُ أسـد فهـام في كل اتجـاه.

منى: أنا عاجزة عن فهمك، لكني أُكَرر أن جميع هذه النظم الرجعية يجب إسقاطها.

بدَّاد: لو أن هذه الطاقة الثورية منصبَّة على الاحتلال!

منى: أنا قاومت الاحتلال والباقي عليك.

بدَّاد: للحقيقة إحنا في هذا البلد إلنا واقعنا المختلف والذي لا يخفى على أحد، لكن أنتِ كان بإمكانك أن تصمدي وتبقي بجوار أطفال الحجارة إلليّ علمونا وعلمّوا العالم كيف بيكون النضال من دون ما يحكوا بالسياسية على إثر حرب الخليج الأولى، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي أُنزلت الرايات الحمراء ورفعت الرايات الخضراء والسوداء وارتدت كثير من النساء الحجاب حتى بنات رموز اليسار ومن داخل صفوف الوطنيين واليساريين انتقلت أعداد كبيرة لصفوف الإسلاميين.

* * * *

طافت سيارة نقل الأسرى شوارع ومدن عدَّة وهي تتجه من سجن الرملة إلى سجن شطة في سهل بيسان بعد نجاح الإضراب وإخراجهم من العزل، واستغرقت هذه الرحلة المرَّة يومًا كاملًا، وهي تحتاج في الوضع الطبيعي إلى ثلاث ساعات، وأحيانًا تطول هذه المدة لأسبوع أو أكثر والأسير يتنقل من معبر إلى آخر وتوقفت الرحلة على أبواب عدة سجون بعد خروجها من الرملة إلى عسقلان وبيت ليد، ثم عتليتُ وبيتح تكفا والدامون والجلمة، وأخيرًا وصلت إلى سجن شطة، وفي الطريق وصف

أحمـد الرحلـة بقولـه:

ما بين مصر وسوريا

نفحة وشطة

ما بين شطة ونفحة

سجون في المصر شتّى

والرحلة جابَتَ بأسرى شتى

وعيونهم جابَتَ حقولٌ شتى

تعود بهم جبال الضفة الذكريات

محملة برائحة البلاد ودمعة

ويتلونون مع السهول ببسمة

أيها السجان مهلًا علينا

مصروعًا أراكُ علينا

صُدفة كانت دولتك

وعبدًا ما زلت بلهفتك

تخاف اليقظة

تجدني قد عُدت سيّدك

فالمكان لا يرى الآن سوايّ

وتلفتَّ منبوذًا

وأنا امتزجت مع السهول بنظرة

نعم أنت سجان عرفنا

نعم أنت محتلٌ عرفنا

فارفع صوتك

وتبدي إعجابك بزيّك

وأنا جالسٌ بالقيود

وإذا ما انتصبت

انحنيت لقدمي

تستردُّ قيدك

21

بعـد دخولهـما سـجن شـطة المنطقـة الأعـلى حـرارة في فلسـطين عـلى الإطـلاق حيـث تصـل الحـرارة إلى 47 درجـة في معظـم أيـام الصيـف، وهـوَّن هـذا الحـرّ عـلى أحمـد زيـارة سـليمة لـه التـي حـضرت وأحـضرت لـه كل مـا سُـمح بإدخالـه، وسرَّهـا رؤيـة زبيبـة الصـلاة عـلى جبينـه، وسُرَّ أحمـد بصـورة منـى فورعـه لم يلجـم عشـقه الـذي مـا زال حيًـا رغـم تصوفـه إلا قليـلاً.

دخـل أحمـد زنزانتـه سـعيدًا لأول مـرَّة منـذ اعتقالـه وشـعر أنـه كان ميتًـا فالأسـير يحيـا يـوم الزيـارة، ثـم يعـاود المـوت ثانيـة، ففـي الزيـارة اللاحقـة

تمكنت سليمة من طلب محسن للزيارة وهو أمرٌ كان مسموحًا به لأسرى الدوريات حصرًا، وأحبَّت سليمة محسن واستمعت لحديثه كأم له.

* * *

محسن: لم أستمع لرأيك بما قلته لك عن الشيعة هل أفهم عدم ردّك على ما ذكرت أنك توافقني الرأي.

أحمد: لا، لا ولكن لحياة العزل خصوصيتها، وقصد أحمد أن حياة العزل الانفرادي التي تتكون من أسيرين في كلّ زنزانة تحتاج للحذر والذكاء في التعامل فيما بينهما، فجميع هذه التجارب المعيشية فشلت، ومرد ذلك إلى الطابع الذكوري اليقظ في النفس البشرية فلا يوجد على هذه الأرض رجل يخضع بالرأي لرجل آخر إذا ما خالفه رأيه، فقرَّر يومها أحمد إنهاء تلك الحوارات بقرار ذكي منه، ولربما الحل يكون لرأب الصدع ما بين السنة والشيعة بقرار مثل هذا، يأمر بوقف جميع النقاشات التي قد تؤدي إلى تغذية الحقد والكراهية لما تحتويه هذه النقاشات من ظواهر ومفردات عفا عليها الزمن كالشتم ومناصبة آل البيت العداء، فإذا ما سُنت قوانين تمنع العنصرية والدونية ما بين المسلمين انتهت هذه الظواهر.

* * *

توجَّهت شيرا بحديثها قاصدة أباها يعقوب:

شيرا: من هو عدونا من الشعب الفلسطيني؟

يعقـوب وبعـد نوبـة سـعال: الشـعب الفلسـطيني مـرّة واحـدة! لا أحـد، جميعهـم أهـل وأقـارب.

شيرا: لا أحد، صحيح، ولكن لماذا لا أحد؟

يعقوب: هكذا يهوذا لا يريد غيرنا على هذه الأرض.

شيرا: هل هو قال لك هذا!

يعقوب: لا، لا، لكني عرفت دون أن يقول ذلك.

شيرا: وهل تعرف إذا ما كان غاضبًا من أفعالنا؟!

يعقوب: وعلى ماذا سيغضب منا.

شيرا: بسبب ما نقوم به بحق الفلسطينيين.

يعقوب: وهل شكا لك الفلسطينيون.

شيرا: من دون أن يشكوا.

أيقظـت شـيرا في عقـل يعقـوب الأمني جميع أفاعـي الرصـد والريبـة، لكنهـا عجلـت بزيـارة شـادي، فشيء مـا في داخلهـا شـدّها للمجيء، وشـادي الـذي كان مولعًـا في ملاحقـة الفتيـات، اليـوم تلاحقـه فتـاة فاتنـة الجـمال غـير أنـه لا يشـعر بتلـك المشـاعر التـي كانـت تتملّكـه عندمـا كان يطـوف شـوارع البلـدة هائـمًا وراء الجنـس اللطيـف، وكثـير مـن النـاس يفعـل ذلـك بسـبب

اضطراب عاطفي، وهذا ما اكتشفه شادي بنفسه وحمد الله أنه شفي منه، لكن شيرا ظهرت في حياته لتلعب دور الشيطان باقترابها منه، وسألته:

ماذا يعني لك الأسر؟

شادي: قبل أن أقول لك ماذا يعني لي الأسر، سأسميه لك فالسجن هو نصف العمر، فهو يسرق سنين العمر ونحن ننظر إليه وهو الحرمان فهو يحرمنا من كل ما نحب في ساعات معينة من الليل. وهو يعني لي مشاعري الإنسانية النادرة، ورغبات أوجدها الحرمان في داخلي، وأنا خجل من هذه الرغبات وفخور بمشاعري الإنسانية تجاه جميع المعذبين والمحرومين في هذا العالم، ولكني لا أحب المحاضرة والأستاذية عندما أبوح بمكونات نفسيتي فأنا أفضل أن تبدر مني هذه المشاعر بعفوية.

شيرا: وما العيب أن تتحدث عنها؟

شادي: لأنها قيمي ومبادئي التي تحولت على مرّ الزمان إلى شبه صلاة يومية، فطقوس الصباح لديَّ ولدى الأسرى كالرياضة وقراءة القرآن أو سماع الموسيقى عند الآخرين والحوارات السياسية والدينية جميعها تصبح القيمة رقم (1) في حياة الأسير، وكأنه لا يطلب سواها، فهي حياة في جانب من جوانبها تشبه حياة الفلاسفة، فيُقال ان زنون ابن أثينا كان ينام داخل برميل ويأكل رغيفه اليومي اليابس، وفي أحد الأيام حضر الإسكندر ليقف على حقيقة فلسفة زنون فأوقف عربته ونزل إليه وسأله إن كان له حاجة عنده.

فـردَّ عليـه زنـون: نعـم لقـد حجبـت عنـي الشـمس بوقوفـك أمامـي، فأرجـو أن تبتعـد قليـلًا.

شيرا: أرجو أن لا أكون قد حجبت الشمس عنك.

شـادي: هنـاك قليـل مـن الأسرى يتحولـون إلى فلاسـفة ومنهـم الحمقى الذيـن يبتاعـون الأمـاني بِسفاسـف باليـة، ومنهـم الـذي يـأتي بـكل فعـل عبقـري عـلى صعيـد الحيـاة المعيشـية قليلـة المـوارد أو الثقافيـة التـي تحتاج إلى ذهـن متيقظ ومـزاج معتدل.

ومـن الأسرى مـن صقـل شـخصيته وقدراتـه فشـخصية الأسـير تفقـد جوهرهـا إن لم يعتنـين بهـا جيـدًا، وحمايـة الـذات مـن التـلاشي مـا يدفـع المـرء للتفـاني في الدفـاع عـن قيمـه والآخريـن؛ لأنـه يدافـع عـن ذاتـه عندمـا يدفـع الظلـم عـن الآخريـن.

فـما أسـهل أن تنقلـب نفـس الشـجاع إلى عكـس ذلـك، فالحرمـان الـذي يحـرّض النـاس عـلى الثـورة كثيـرًا مـا يكـون مدعـاةً للنفـاق مـن أجل نيـل جائزة أو نعمـة، وفي أحيـانٍ كثـيرة تجـد الثائـر مؤمنًـا وواعيًـا كمثـل نبـي، وكثـيرًا مـا تجـده يخـاف الإيـمان بوعـي.

واسـتمر شـادي يخاطـب شـيرا بـأدب ظهـر عـلى جميـع جوارحـه إلا عينيـه الواسـعتين والوقحتـين إلى حـدٍ بعيـد والتـي لم تسـتطع ثنـي شـيرا عـن إطالـة النظـر إليهـما، فكانتـا ممسـكتين بعينـي شـيرا كـما يمسـك طفـل بيديـه طائـرة ورق، وقبـل مغادرتهـا سـألته إن كان يعـارض زيارتهـا لأهلـه، فلـم يبـد

معارضة لكنه طلب أن تتم الزيارة برفقة أحد شخصيات البلدة المعروفة واختار عبد الحافظ لهذه المهمة المحرجة والتي أحرجت الجميع، فأهل شادي الذين عانوا بعد محاولة تخوين شادي ما زالوا حذرين وتعاملوا كذلك مع شيرا بحذر شديد، وعبد الحافظ الذي لم يسبق له أن سمع باسمها ضمن أيّ حزبٍ يساري أو مؤسسة كان أكثرهم حذرًا، ولينجو من أسئلتها عن شادي ومرافقتها أمام أهل البلدة دعاها لزيارته في جامعة النجاح حيث انتقل للتدريس هناك، وبعد عودتها للبيت حاولت تضليل يعقوب من خلال إسماعه ما اعتاد على سماعه منها قبل معرفتها بشادي، لكن هذا الثعلب لا تنطلي عليه ألاعيب الأطفال، وكان قد سبقها بخطوة عندما ذهب لمقر الشاباك وسأل عن مهمتها وطلب إعفاءها منها، وقد كان يعقوب لطيفًا مع شيرا منذ غادرت أمها وتركتها في سن السابعة دون أن ترسل لها رسالة واحدة، وأصبح من يومها يعقوب أبًا وأُمًا ومعلمًا لها ولم تشك حياتهم من أيّ طارئ، أو تناقض، فهي حياة مستقرة وإن خلت ملامح شيرا من أيّ شبه بيعقوب فهي عربية في سُمرتها وطولها الفارع، وهو بولندي الملامح مثل أم شيرا إلاَّ أن سجاياهما واحدة.

أعقب ظهور عبد الحافظ مع شيرا في البلدة الكثير، وكانت فاطمة من أكثرهم غضبًا ولم يكلف عبد الحافظ نفسه عناء التوضيح لها مدَّعيًا أنَّ الأمور غير متضحة له، على عكس ما فعل مع غيرها ممن استنكروا موقفه، فزار بيت منتهى والدة علاء والتي لم تتحدث خلال اللقاء كثيرًا، وتصدّى إخوة علاء خلاله لجميع مداخلات عبد الحافظ مذكرّين إيّاه بما قاله القرآن عن غدر اليهود وأحاديث نبوية كثيرة، ما جعله يعتقد أنه

أخطأ طريقه ودخل المسجد، فلا أثر للترحيب والمزاح الذي اعتاد عليه في هذا البيت، وأسهب خطيب الجمعة في مهاجمة عبد الحافظ وكذلك فعلت فاطمة في مواعظها داخل المسجد، وتمتعت فاطمة بنفوذ قوي في البلدة حازته من صدق تعاملها فهي من استمر برعاية راضية ومواساه أُسر الشهداء والأسرى بتفان، غاب عنه عبد الحافظ وكثير من الوطنين في تلك المرحلة وبقيت فاطمة عزباء رغم تودُّد الكثير من المشايخ وغيرهم لخطبتها، وشاءت الأقدار أن تجمع ما بين عبد الحافظ وشيرا وفاطمة بلقاء حوى الكثير من المتناقضات في يوم الانتخابات وفي جامعة النجاح الوطنية، وخلال لقاء عبد الحافظ لفاطمة دخلت شيرا حسب موعدها المتفق عليه مع عبد الحافظ، وأثقل بفاطمة الفضول قليلًا وهي تهمُّ بالمغادرة فبادر عبد الحافظ بتعريفها على فاطمة، واستدرك مخبرًا إياها أنها لا تعلم عن عملك شيئًا مثلي، فحملت شيرا إجابتها بمضامين مرتبكة وشروح لا طائلة منها سبق وأخبرت شادي بها، فاستوقف فاطمة من قولها حرية العبادة في مدينة القدس متاحة للجميع على الرغم من كونها الحوض الأكثر قداسة لليهود في جميع أنحاء العالم.

فاطمة: أُريد مِنك أن تنسي للحظة آي المصاحف ومزامير التوراة ماذا قالت عن هذه الأرض، وقولي لي عن أمة وشعب قاتل عن حرية هذه الأرض ومن سكنوها طيلة ألف وأربعمائة عام، وحموها من هجمات البدو من الشرق، وهجمات الفرنجة الغرب، وهجمات الترك والفرنسيين وغيرهم في وقت كنتم فيه أنتم مشرّدين في أنحاء العالم، ولم تتحملوا من مسؤولية حماية هذه الأرض شيئًا؛ لأن ظروفكم كانت مختلفة. وسؤالي لكِ:

هذه الأمة التي قاتلت وحمت المسلمين واليهود على حدٍ سواء طيلة ألف وأربعمائة عام لا يوجد لها حق في هذه الأرض ولا في المسجد الأقصى الذي رُوي من دماء أبناء هذا الشعب طيلة هذه القرون وتمنين علينا بصلاتنا فيه، أي وجه الذي يقول هذا أن ربنا يقول لنا غير ذلك، وأعتقد أن عبد الحافظ غير معنى بما يقوله الرَّب، وإلا لأجابك على وقاحتك هذه.

شيرا: يوجد بعض الإسرائيليين لا يؤمنون بقدسية هذا المكان، فبعد تحرير هذا المكان عام 1967م، أراد قائد الفرقة المقتحمة سجن أحد الحاخامات؛ لأنه طلب منه نسف المسجد الأقصى.

فاطمة: كان سيبدو ذلك إرهابًا منظمًا، لكن حرقه على يد مجنون كما ادعيتم فعل ذكي.

اشتد الصخب وحملات الدعايات الانتخابية داخل حرم الجامعة، واستدعي عبد الحافظ للإشراف على الحفل الذي يقيمه أنصار حزبه، فتوجه برفقة شيرا واعتذرت فاطمة عن الذهاب ومصافحة شيرا، فغادرت فاطمة والوشاح الأخضر مسدول على أكتافها.

جلست شيرا بالقرب من عبد الحافظ على مقاعد مسرح الجامعة لمشاهدة عرض مسرحي يحاكي قصة دخول الجنرال اللنبي للقدس في 09/ 12/ 1917م ومن حوله الأعراب الذين حضروا برفقة لورنس ضابط المخابرات البريطاني، وقدم العرض المسرحي جفرا ومشعل لوحدهما، وظهرت خلفهما رسومات كاريكاتورية وعروضات بهلوانية لا تخلو من الكوميديا تارة والدراما تارة أخرى، كمشهد بعض الأعراب يسيرون وراء

حصـان اللنبـي وآخـر يمسـك برسـنه، ومنهـم مَـن أمسـك في ذيلـه، وظهـرت خـلال العـرض صـور للقـدس عـلى مـرّ العصـور مـن ضمنهـا الجنـود الصهاينـة الذيـن دخلـوا باحـة حائـط الـبراق، وجـرت كل العروضـات وصـوت جفـرا ومشـعل يحاكيـان القـدس عـلى أنهـا طـروادة التـي ذبحتهـا جهالـة الأتقيـاء وسـدنة المعبـد.

مشـعل: فلتسـقطي يـا طـروادة السـذاجة والعطـور، أنـتِ وألـف إلـه محنـى بالتصـوف والجبـور.

جفـرا: أمامـك البحـر والبحـر وأخيـل الفنـاء المُـرّ وزمانـك المتبقـي مـا وراء البحـر فقـير المـروءة مهـدَّم الأسـوار.

مشـعل: أتسـمعين يـا مدينـة الأمـس المحجـل بالنجابـة والفخـار نبـاح شـذاذ العواصـم يسـتبيحون باحـات الحضـارة والديـار؟!

جفـرا: وجوقـات كشـافة وطـرب حـول أحصنـة الخشـب الصافنـات باحتقـار.

مشـعل: وفي أعلى نسـيج بكت حـاضرة النبوة في دُجى ضحكاتِ اللئام.

جفرا: وبصوتٍ مرتفع سقطت قلاع الصقر تكرُّرها.

مشـعل: واسـتوى عـلى الأطـلال غلـمان لهـم مـن طـروادة ذكـرى الأعياد والأسـماء لا أكثر.

جفرا: وهم في خُلد التاريخ أوشاج كلام لا أكثر.

مشعل: وفي أحلامهم حقبات الشَّباب البرزخي وبالهيجاء كانت راياتهم على الأرض لا في السماء.

جفرا: يا خيمة بني كنعان في بيداء العرب الهاربة أراك سحابًا على وجه البسيطة كللت به الأرض السماء.

مشعل: من قادَ حصان اللنبي الجامحة في الدهر من خلف نفوذ الصحراء وعباب البحر.

جفرا: وبصمت دخل الجيش يجوسُ خلال ربوع الجوع مختالًا بشحوب فلسطين المحقونة بالقهر.

مشعل: حتى صار الكلُّ سكونًا إلاّ صوت هسيس الغدر.

جفرا: وفوق سنام الغفلة رحل البدو الثوار بعيدًا بالعجب وغابت أصوات حداهم بهجير الظهر.

مشعل: واشتعلت بالأفق فوانيس رذاذ الدم وانطفأت في السبل الرَّقة والحب وكل الأنوار.

جفرا: والفجر أسفر بالدخان ملفعًا طاف المداخل والمآذن غارقًا بالذعر والخذلان ووقاحة العسكر.

مشعل: ومادت بالخلق الذكري وأعتاد العشاق وعطر السجدة بالأقصى.

جفـرا: يـا فلسـطين هـذه فاجعـة العُمـر جلسـت في ضحـى الأجيـال تحشـو عـلى أكتافنـا مُـرَّ الهزيمـة.

مشـعل: يـا قـدس يـا حسـناء حباهـا الله مـن الحُسـنِ الضعـف وأضعافًـا مـن خلـف الصـبر.

جفـرا: واسـتيقظت غربـان الخـراب وهتفـت للسـلام عـلى دم الحمائـم الصقـور.

مشـعل: والـكل كان مبعثـرًا النـور والديجـور والقبـح والبلـور الخائنـين والثـوار، القـزع والخصيـان، كلهـم أضحـى بـلا القـدس بـلا عنـوان.

جفرا: وانقشعوا من حول المسجد بعد أن جاءوه مريدين.

مشـعل: لا شيء تبقـى لم يُـذرف حتـى الأفـكار بكيناهـا، هطلـت فـوق جـراح القـدس الموجوعـة طـول الدَّهـر.

جفـرا: طـروادة الآن في القلـب فرسـان، آيات وحلـم العابريـن إلى الخلـود السرمـدي عـلى خيـول العرب مثل النَـار والأقدار الهابطين مـن القلاع الحصون.

مشـعل: محملـين بكبريـاء السـماء ومجدهـا الأزلي إلى فلسـطين الوثيقـة بالكتـاب.

جفـرا ومشـعل: الخاضعـون لقانـون العبـادة، إنَّ الخلـود قـرار المقسـمين مـن علـوّ مدارهـا، بحـرق فرسـان الخديعـة والمدينـة والأسـوار، فـما القـدس إلاّ المكان الحـِرز، والآيات والشـعب والأفـكار، ودع العبيد يبكون عـلى الأحجار.

صفَّق الحضور بحرارة، غادرت شيرا وأرادت العبور إلى جادة الشارع الأخرى، وقبالتها وقف شاب يرتدي بزة زرقاء كبنطاله يتحدث إلى زميل له، وظهر كل شيء من حوله هادئًا على العكس من أجواء الجامعة الصاخبة ولم يدُم هذا الوضع سوى لحظات إذ أطلق مستعرب النار على هذا الشاب فتدافع الناس ودخلوا للحرم الجامعي، فوجدت شيرا نفسها مرَّة أخرى داخل الجامعة.

واشتد التدافع والازدحام ما بين الطلبة والطالبات، وشعرت شيرا لأول مرَّة في حياتها في مهانة التدافع فهو فعلٌ لا آدمي يشعر به المرء خلاله بقمة الإهانة، فكيف إذا ما كانت الفتيات والفتية فيه على حدٍ سواء.

حوصرت جامعة النجاح تحت ذريعة وجود مطلوبين للاحتلال، شاهد عبد الحافظ من نافذة مكتبة شيرا في إحدى باحات الجامعة مرتبكة وتائهة، فاتجه إليها وطلب منها أن تبقى برفقة حلوة فتاة فلسطينية متواضعة الجمال ولسانها شديد الحلاوة كاسمها.

أمضت شيرا برفقة حلوة وقتًا طويلًا ولفتها إحضار حلوة لخبزها معها على الرغم من وجود الكافتيريا داخل الجامعة بعد أن قدَّمت حلوة الدعوة لشيرا لإشراكها بخبزها وذلك بعد أن طال حصار الجامعة وشعر الطلبة والطالبات بالجوع، فقبلت شيرا الدعوة فأكلت وسرَّها طيبة حلوة ولطيف كلامها.

شيرا: بدون زعل ممكن أعرف سبب إحضارك لطعامكِ معكِ إلاَّ إذا ما كنت تعلمين مسبقًا حصار الجامعة.

حلـوة: أنـا بعـرف أمـور قبـل حصولهـا ولـديّ إحسـاس مميَّـز لكـن ليـس لهـذا الحـد، فالحقيقـة أني مـن أسرة مكوّنـة مـن سبع بنـات وولـد وجميـع أخـواتي متفوقـات في الدراسـة وأبي كان يعمـل داخـل الخـط الأخـضر في مصنـع وورث عـن جـدّي قطعـة أرضًـا كبـيرة مزروعـة بالزيتـون، وكانـت حياتنـا ميسـورة مـن رزق الأرض كنـا ندفـع الأقسـاط وأجـرة السـيارات ومصروفنـا اليومـي في الجامعـة لكـنَّ المسـتوطنة القريبـة مـن بلدتنـا صـادرت الأرض، ومـن يومهـا أبي مـا عـاد يسـتطيع الوفـاء بمتطلباتنـا الحياتيـة.

وفي هـذا الوقـت أنـا وأختـي في الجامعـة، وباقـي أخـواتي في المدرسـة وأخـي لم يوفـق في دراسـته فـترك المدرسـة، المهـم مـا أردت أن أقولـه لـكِ في كل يـوم وبعـد اقتطـاع مـصروف البيـت وأجـرة الطريـق يتبقـى شـيكل واحـد، فمـرَّة أحصـل عليـه أنـا وأخـرى أختـي، فالإفطـار يعتـبر عنـدي وعنـد أختـي مـن الكماليـات. كانـت قطعـة مـن الخبـز صغـيرة قـد بقيـت بيـد شـيرا عنـد انتهاء حلـوة مـن سردِ حكايتهـا، فشـعرت أنهـا سرقـت منهـا خبزهـا كـما سُرقـت أرض أبيهـا مـن قبـل، فوقفـت شـيرا وكأنهـا تذكـرت شـيئًا وطلبـت مـن حلـوة مسـاعدتها في إيجـاد عبـد الحافـظ، وكانـت الجامعـة تعمهـا الفـوضى، أشـبه بسـاحة حـرب فوضعـت حلـوة يدهـا عـلى رأسـها متعجبـة مـن طلبهـا.

ففـي آخـر دخـول لهـا لمكاتـب الشـاباك وُضـع عـلى سـطح المكتـب بـين يـدي شـيرا ملـف عبـد الحافـظ، وبـين أوراقه لفتـت نظرهـا ورقة مكتـوب عليها اسـم العميـل الـذي مـن المفـترض أن يقابـل عبـد الحافـظ للإيقـاع بـه، فالشـاباك شـبه متأكـد أن لعبـد الحافـظ اليـد الطـولى بتجنيـد المجموعـة التـي خططـت ونفـذت خطـف أحـد الجنـود، وأنـه وقـف وراء إرسـال صالـح وإبراهيـم

للتدريب في معسكرات الخارج، فقرر الشاباك إرسال عميل متخف يدّعي أنه مبعوث من الخارج، وفي حال تعاطى عبد الحافظ سيُحكم عليه بالسجن المؤبد، فبحثت شيرا عنه في كل مكان، لكنها لم تجده.

22

تعرف الثورة نوعين من الناس منهم مَن يركب على صهوة الموت أثناء خوضه للمعارك، ومنهم من يمتطي اللغة الجميلة لتكون له مزلاجًا فوق أمواج الثورة وقناعًا في حفلات خداع الوجدان التي لقمها داخل النفس ويرتدي خلالها زيَّ الثوار وأجمل المعاني والقوافي، ويوزع فيها الألفاظ النبوية على الحضور رشوة، فكثيرًا ما تتحول الشعائر الدينية كما المثل الوطنية إلى أقنعة نغطي بها خذلاننا لقضايانا الكبرى والملحة، وكان أكثر من أتقن هذا الدور منى، فهي وبعد تخرُّجها من الجامعة وتفوقها في تعليمها العالي فيما بعد، حصلت على وظيفة مرموقة في وزارة التربية

التعليم، ولجأت إليها جميلة بعد خروجها وزوجها من الكويت فالتقتها في إحدى المطاعم، ورغم حالة جميلة النفسية والمادية المتردية لم تتوانَ منى عن افتراسها بمواقفها وحواراتها المنطلقة من أيديولوجياتها الثابتة.

منى: المفروض أن تكوني فَرِحة لأنك تحررتِ من حياة التخلف والجهل.

جميلة: لماذا تتكلمين عن الناس بهذه الطريقة؟! فأنت تتجنين عليها، فلقد استضافونا وأحسنوا ضيافتنا في الوقت الذي صدَّنا فيه الجميع.

منى: عُمرك ما راح تفهمين، بسبب هؤلاء الرجعيين دفعنا أثمانًا باهظة في فلسطين.

جميلة: أنت تحكي عن شيء موجود فقط في داخلك، لقد احتضنونا وقدَّموا لنا العون والحضن الدافئ وأنصحك أن تتأكدي من صحة الكلام الذي قلته بحق هؤلاء الذين كانوا مخلصين لنا على الدوام.

منى: وباستهزاء، لماذا أحاول إقناعك؟! أنت لا تفهمين إلاّ أن تكوني أرنبة تنجب وترضع صغارها وهي تشير لصغيرها الذي جلس بجوارها، والآخر الذي وشت عنه ملابسه ثم غادرت، وتركت حساب المطعم لجميلة التي كانت يومها تجد صعوبة بتدبّر حليب طفلها فحسبت ما معها من مالٍ قليل مرَّات قبل أن تطلب من محاسب المطعم السماح لها بالاتصال بزوجها لكنه رفض، وخاطبها بمنتهى اللباقة، أنتم في ضيافتنا فاسمحوا لنا أن نقدم لكم القليل ولو مرَّة واحدة.

غـادرت منـى المطعـم دون أن تنظـر خلفهـا فجميـع خطاباتهـا ومفرداتهـا العظيمـة لم تسـفر يومًـا عـن إطعـام مسـكين، فهـي ثائـرة في عـالم الخطـب، تتحـدث عـن الكادحـين والمسـحوقين في هـذا العـالم وتحيـا في عـالم آخـر.

فمـن الثـوار مـن وُلـد شـجاعًا وغمـس يـده في دم أعدائه جاسرًا، ومنهم مـن وُلـد جبانًـا ووضـع نفسـه في مهـاوي الـرَّدى يكرههـا عـلى ذلـك وهـذا أشـجع الشـجعان، ومنهـم مـن تحـدث عنهـا وهـو ليـس بأهـلٍ لهـا وهـذا ليـس جبانًـا مـا لم يناقـض كلامـه مبادئـه، فالجبـن هـو أن تنـأى قضايـا شـعبك قـولًا وفعـلًا، كأن يسـتخدم اللغـة الثوريـة وحتـى الدينيـة كنـوع مـن أنـواع خـداع الـذات، فكثـير مـن رجـال الديـن يلجئـون للمبالغـة في الصـلاة والعبـادة بقصـد التعويـض عـن نقصهـم في قـول الحـق ومقاومـة الظلـم، وكذلـك المبالغـة بتقييم الواقـع واسـتخدام مفـردات عظيمـة المعـاني، وكان أحمـد في أسرِه شـديد التدقيق في حديثـه مـع هـذا النـوع مـن النـاس يسـتمع إليهـم ولا تنطـلي عليـه أكاذيـب الثرثارين ولا يجعلهـا تمـرَّ، وبعـد عودتـه مـن العـزل الانفـرادي ضـاق بـه ذرعًـا بعـض منـاصِري اليسـار والإسـلاميين كذلـك، لم يـدع أحمـد زلـة لخطيـب أو مداخلـة لأحـد الوطنيـين إلا ووقـف عليهـا بحجـة أنَّ الدّيـن والمبـادئ يجـب أن تُصـانَ بدقـة الأُلفـاظ لكـن مخالفيـه كان رأيهـم أن محسـن أثـرَّ عليـه بأفـكاره الشـيعية ومنهجـه المعـارض، ولم يجانـب هـذا الـرأي الصـواب لكنـه سـطحي نوعًـا مـا، فأحمـد كان آخـر كلامـه لمحسـن أنـه أحـب الشـيعة وحـاول كثـيرًا أن يكـون شـيعيًا واقتنـع كثـيرًا بـما يقولونـه، لكنـه لم يسـتطع الإيـمان بالعصمـة والرجعـة، فاختـار أن يكـون زيديًـا دون أن يميّـز إن كان الزيديـة شـيعة أم سـنة، وباسـتثناء اعترافـه في التحقيـق والـذي تناقض فيه مـع قناعاته الاعـتراف خيانة.

كان أحمد غير متناقض بأي فعل أو قولٍ إلى حدٍ مثالي غير أنَّ نمط حياته هذا لم يُبقِ له صديقًا غير محسن، وجعل خصومه يتذكرون اتهامات اليسار له على طريقتهم بغمز ولمز وسخرية وفي أحيان أخرى بطابع ديني وُظفت خلاله الآيات والأحاديث النبوية.

مُسرعًا كان موعد الإفراج عن محسن يقترب وودعه أحمد بشديد حزن وفرح، وعندما سأله عن وجهته أجابه أنه ذاهب إلى فلسطين.

أحمد: لم أفهم ما قصدت؟

محسن: سأنزل في إحدى معسكرات منظمة التحرير.

أحمد: لا أُحبذ لك هذا، هل تريد أن تكون فدائيًا كأبي فادي؟!

محسن: الفدائيون ليسوا جميعهم كأبي فادي وهم كالأسرى أو كأيّ مجتمع فيه الحسن وفيه السيء، بلّغ سلامي لأمي سليمة.

ولم تمكّنه دموعه وخسارته محسن من رؤية الوحدة التي أحاطت به من كلّ جانب، فتعلقه بمحسن والحديث معه لزمن أفقده علاقاته من حوله بشكل شبه كامل، لكنه من النوع الذي لا يسعى لصنع الصداقات ولا استجداء الوُد فدأب على القراءة والعبادة بلا هوادة ودارت برأسه حوارات وتأملات وأسئلة قبل كل مبيت وعند كلّ خلوة.

* * *

تسابق الزمن والشاباك معًا، قامت شيرا بعملٍ انتحاري بعد أن

دخلـت مـن بوابـة سـجن عسـقلان بتصريـح زيـارة مـزوَّر وطلبـت مقابلـة شـادي، وانطلـت عـلى إدارة السـجن خدعتهـا، لكـن زيـارات شـيرا المتكـررة لأسـيرٍ معـين اسـترعت انتبـاه ضابـط الأمـن في السـجن، وبعـد أن أبلغ الشـاباك عـن شـكوكه المتنامـي في طبيعـة هـذه الزيـارات، وعلمـت شـيرا أن الزيـارة سـتكون قصـيرة فأعطتـه إحـدى زهـرات ليلـة القـدر التـي قطفتهـا مـن زهـور بيـت والديـه ووضعتهـا داخـل أوراقهـا، واتبعـت الهديـة بقبلـة أنعشـت روح شـادي الـذي شـعر أن روحـه قبـل قُبلـة شـيرا كانـت مغلفـة بخيـش سـميك، فكانـت قبلـة ثرثـارة بقيتـا تحدثـه لكثـير مـن المعـاني والأحاسـيس التـي غابـت عنـه مـن زمـن، قُبلـة فيهـا سـحر النجـوم وطعـم الغيـوم ولطافـه النرجـس، قبلـة لا تنقـضي نشـوة طلاهـا، تبقـى تبـوح بسرّهـا وغواهـا.

أخرجـت شـيرا مـن قاعـة الزيـارة عنـوة واقتيـدت للتحقيـق، وتـمَّ التحفـظ عـلى شـادي في الزنازيـن الانفراديـة واسـتمتع عيـزرا بمنظرهـا في الأغـلال عـلى كـرسي التحقيـق قبـل أن يعيـه كثـرة شـتامه لهـا والـصراخ وتكـرار السـؤال عـن علاقتهـا بعبـد الحافـظ وشـادي، لكنهـا كانـت تجـول الغرفـة بعينيهـا وعيـون شـادي تجـول فؤادهـا سـابحة بعشـقٍ أغـرق حاضرهـا وأمسـها حتـى خـلال بـذيء الـكلام وفظاظـة الألفـاظ والتهديـد بسـحق شـادي وتصفيتـه، ورغـم بـؤس حالهـا خاطبتـه مسـمعة عيـزرا غزلهـا بشـادي وقالـت: أيهـا الغائـب وراء جفنـي كلـما أغمضـت عينـيَّ أشرقـت قمـرًا بقلبـي المسـلوب إلاّ مـن هواك، لأقـفُ بـين يديـك دُميـة عـلى مسـرح الدُّمـى تبـوح في العـرض مـا منحتهـا يـداك الحيـاة، وتقـول عليهـا مـا تشـاء، وتحيـا وتمـوت بمشـيئة يديـك. ولم يـدُم تجليهـا في حـضرة العِشـق الـذي نـزع صبابتـه عيـزرا بسـليط لسـانه وهـو يريـق مـاء وجهـه

أمامها لؤمًا، فسرد لها ذكريات طفولتها وأسرارها مع يعقوب بتفصيلات ثمَّ استدرك: الجميل بكل ما قلته لكِ من إجمالي حكاياتك الجميلة مع السيد المحترم يعقوب أنك وكما أخبرنا لست ابنته ليست أنت من دمائه النقيَّة، أنتِ مجرد دم قذر وعرق وضيع قطعة السيد يعقوب قبل أن يلوث شرف العائلة.

شيرا: سأخبرك بكل ما جرى بيني وبين عبد الحافظ وشادي إذا ما أحضرت يعقوب للحظة.

عيزرا: ستعترفين حضر أو لم يحضر.

شيرا: هذا سيحدث إذا ما أصبحت أمك يهودية.

لم تستغرب شيرا ردّة فعل عيزرا على استفزازها له، فقد أفزع صوت صراخه من في المكاتب المجاورة فأسرعوا نحو مكتبه وكان آخرهم يعقوب الذي جلس قريبًا من الباب، وطلبت شيرا من عيزرا إعادة ما قال أمام يعقوب الذي لم ينتظر سؤال عيزرا له فبدأ بإجابتها مستفزًا إياها رغم اختياره لأرق العبارات قبل أن يصارحها بحقيقة أنها مجرَّد طفلة متبنّاة ليحضرها جميع الذكريات مسرعة بدءًا برحيل زوجة يعقوب التي اعتقدت أنها أمها وفي الحقيقة إنها مجرد امرأة غريبة عنها رفضت خداع ولعب الدور القذر كأم مزورة ورحلت.

ولم يغب عن شيرا الشبه البعيد الذي لطالما سبَّب لها الإحراج وانتهى بها شريط الذكريات عند ملفات أطفال يهود اليمن الذين تم

سرقتهـم مـن أحضـان أمهاتهـم الشرقيـات ومنحهـم لأسر الأشـكناز، ومثلـت هـذه الوثائـق المليـون الدولـة العميقـة بكل حذافيرهـا، فكثير مـا شـكا رؤسـاء بعـض الحكومـات في دولـة الكيـان بعـدم معرفتهـم بمضمـون هـذه الوثائـق، فحدَّثتـه شـيرا باشـمئزاز بعـد أن جلسّ مجانبًـا وجههـا.

شـيرا: لم يكـن ذاك غبـاء الـذي تملكنـي أثنـاء العيـش معـك بـل آدميـة مفرطـة وضعتهـا في غير موضعهـا، فـلا يمنـح الأبـوة مـن سـلبها مـن الآخرين، فأنـت سرقتنـي مـن أبي وأمـي اليهود، ومنحـت نفسـك الحق باقتنائـي ومثلي مثل أيّ كائـن غـير بشري (غوييـم)، تنميه وتحـب الاحتفـاظ بـه ولـو كنـت مكانـك لفعلـت أكثـر مـن ذلـك، فعندمـا يكـون معيـار المـرء بتحقيـق أهدافـه مقـدار الـشر القـادر عـلى اقترافـه عليـه ألا يتوانـى عـن قـذارة كهـذه التـي قمـت بهـا.

يعقـوب: لم آت للحـوار معـك أو التحقيـق، جئـتُ لأُقـدم لـك عـرض النقـد بحرمانـك مـن جميـع مسـتحقاتك وحقوقـك كمواطنـة مقابـل أن تبقـى صامتـة، بـل خرسـاء إلى آخـر يـوم في حياتـك، ولا تتكلمـي بـشيء مما عرفـت، وسـتخرجين مـن هـذا البـاب إنسـانة لا أقـول طبيعيـة، بل سـتبقين تحـت المراقبة ولـن يكـون لـك بعد اليـوم صلة بمؤسسـات الدولـة، وإذا ما ثبت أنكِ تمارسـين أيَّ نشـاط مـن الممكـن أن يؤدي للمسـاس بأمن الدولة، سـيحكم عليك كخائنة وأنـت كذلـك بلا شـك، واحترامًا لهذه الشـيبة وافق الشـاباك على هـذه الصفقة.

وتحـت أشـجار الصنوبـر داخـل الحـرم الجامعـي وبعـد أيـام مـن إطـلاق سراحهـا عثـرت شـيرا عـلى حُلـوة وطلبـت منهـا مسـاعدتها في إعطـاء عبـد الحافـظ رسـالة كتبتهـا بالإنكليزيـة.

لم يطُل غياب حُلوة فعادت واصطحبتها لمكان وراء إحدى البنايات فجلستا خلف المبنى يتنظران إلاَّ أن عبد الحافظ لم يحضر، لكنه أسقط سلسلة مفاتيح بيت عابودي وعلَّق عليها العنوان، وضمَّت شيرا حُلوة إلى صدها وغادرت للبيت الفاقد لكلَّ الاحتياجات الأساسية، وكعادته عبد الحافظ تأخر في الحضور، وحتى عندما حضر لم يُحضر معه ما يسدُّ الرمق، وأهم ما أحضره معه السجائر، وعلم أنها لن تستطيع الاستمرار بمفردها ففكر ببيت من البيوت يستضيفها فلم يجد سوى بيت سليمة التي لطالما صدقت به واعتبرته مثلًا أعلى، فأخبرها بضرورة التوجه للبلدة، ولم يسعفه الوقت بإخبار سليمة؛ لأنه أُلقي القبض عليه، وخلال زمن قصير صدر بحقه قرار إبعاد فأُبعد إلى الأردن، ولم تتأخر شيرا بالمجيء إلى بيت سليمة مدفوعة بحاجاتها الملّحة والكثيرة، فوقفت على بابها شبه كسيرة، وأثناء عودة سليمة من عملها في المدرسة رأتها جالسة تحت معرَّش العنب تُدخن آخر سجائرها، فرحّبت بها دون أن تستوضح هويتها، ثمَّ دعتها فدخلت وهي ما زالت تزيد في الترحاب، فخلعت حذاءها تقلد سليمة في فعلها، وجلست بجوارها على فراشها العربي، تتحيّن لحظة الكلام التي تأخرت لاسترسال سليمة بالكلام، فلم تجد بُدًّا من مقاطعتها بقولها أنا من طرف عبد الحافظ انقطعت بي السُّبل وأتيت لأبقى في ضيافتك قليلًا.

سليمة: أهلًا وسهلًا بك من أين ما كنت، وهذا البيت بيتك من هذه اللحظة.

شكرتها شيرا ولم تستطع بلاغ شكرها فكرم سليمة تتابع حتى شمل كل ما احتاجت إليه شيرا، سواءً طلبته أم لم تطلبه حتى أخبار شادي

أوصلتها سليمة إليها فأَدخلت السرور إلى قلبها عندما أخبرتها أنَّ شادي حُكم عليه في السجن خمس سنوات، وأن موعد إفراجه بات قريبًا، وفي هذه الليلة ستُقام حفلة في بيتهم احتفاء بنجاته من الحكم المؤبد، تمنّت شيرا حضورها وكان لها ما تمنّت، فاصطحبتها سليمة معها ودخلت في بيت أم حمزة بوجه يطلب الشر لو أنَّ أحدًا منهم اعترض على دخول ضيفتها للحفل، وكأنها تقول هل من معترض؟

أفسحت قريبات شادي لسليمة وضيفتها مكانًا وسطًا، وجلستا وكأنهما عروستان في عُرس فلسطيني شعبي وُزّعت خلاله الحلوى المصنوعة من نبات الحلبة وحبة البركة.

راقبت شيرا الحفلة بسرور وفرح لامس قلبها الحزين، وخلال الحفل تبادلت أخوات شادي وقريباته الحديث معها واطمأنت منهنَّ على أوضاع شادي وأعطينها بعض الهدايا التي صنعها شادي بيديه لها خصيصًا.

مضت أيام وشيرا تراقب خلالها سليمة وهي تؤدي عباداتها من تسابيح ودعاء وصلاة بشكلٍ دائم ومنتظم فهي تنام متى تشاء وتستيقظ عبر منبِّه خفيّ في قلبها بموعد محدَّد فتتوضأ وتُصلي، وطيلة الأيام التي ساكنتها فيها لم تر شيرا من سليمة أي وهن أو كسل رغم أنَّ الجو كان باردًا وعاصفًا إلا أن سليمة داومت على صلواتها وعباداتها وأعمالها المنزلية كالمعتاد. تنهض من فراشها تالية أدعيتها وتسابيحها، تتجه للمتوضأ بصوت يشبه صفير طائر، وتصلي الفجر بسكون عكرّ صفوه سؤال شيرا: ما الذي يجبركِ على فعل ذلك؟

سليمة: ربي.

فهي تؤدي واجباتها الدينية اليومية دون ان ترى المشقة خلالها، وهذه هي القناعات والمبادئ البدنية التي لا لسان لها، فهي لا تعرف العجب ولا التذمر ولا تطلب الأجر إلاَّ من خالقها.

وعلى أصوات خبط وارتطام عنيف سمعته شيرا وسليمة في محيط المنزل، أفاقتا من نومهما كأنَّ بهما مَسًّا من جان، اندفعت سليمة خارج المنزل لاستطلاع ما يدور حوله، وتأخرت شيرا باللحاق بها، فرأت سليمة أغراض كثيرة ومقتنيات قديمة كانت لها ولزوجها رُشدي العلي وابنها أحمد قد أُلقي بها في باحة المنزل بعد أن رأى ابنها رائد أنها عديمة الفائدة.

وارتفع صوت سليمة والعمال والغبار وشمس الصباح مما أيقظ الحيَّ واستدعى الجيران وفضول المارة، ولم تتمالك نفسها سليمة فبكت وندبت حظها قبل أن تعاود وتشتد في مواجهة وعنادة رائد.

سليمة: لقد ضيعت كل شيء، لماذا فعلت هذا دون علمي؟

وخاطبته وهي تقف على السطح حيث وقف العمال ووقف هو في باحة البيت يريد إخراج الأغراض التي ألقى بها.

رائد: فلسطين ضاعت يا حاجة.

سليمة: ولَك إنت كذّاب، فلسطين ضاعت! إذا فلسطين ضاعت،

إنـت ويـن واقـف الآن، لكـن إلـلي ضـاع مـش فلسـطين، إلـلّي ضـاع عقلـك.

* * *

تـذوب جميـع المـسرَّات تحـت وهـج الحديـد الصـدئ في سـجن شـطة وتفـوح رائحـة الذكريـات الحزينـة، وتخبـو نـار الثـورة والأسـاطير المثـيرة وأحاديـث الفلسـفة، ويبـدو الوقـت بطيئًـا كحـمار ذميـم المنظـر، وأحيانًـا تشـتعل في النفـس أحقـادًا وسفاسـف مدارهـا النفـوس والأفهام الشـقيَّة بالبـلاء، وتحت مظلَّـة الآلام هـذه عـاش شـادي وأحمـد، وكان شـادي حيويًـا حـاضرًا لا يُضـام، وكان أحمـد شـارد الذهـن كثـير التأمـل، يجـول في خاطـره العـالم في اليـوم مـرَّاتٍ ومـرَّات، حامـلًا عـلى أكتافـه أحمـال أُمَّـه، وكان إذا مـا ضايقـه أحدهـم افتقـد للـرَّد، فجميـع مشـاعره وأفـكاره مسـخّرة في فهـم ظواهـر وتحديـات جسـام، ولطالمـا تلعثـم كلـما أتـاه نبـل مـن خصـام.

وفي سـجن شـطة هنـاك صلـت حـروف مقالتـه في دم كل منفـرد وهـو الـذي تخيَّـل اللغـة الجميلـة طـوع يـده، يـصرخ بأعـلى صوتـه تكلـم ولسـانه واقعيـة الإعـداد، فأحيانًـا تكـون الثـورة مـلاذًا للهاربـين مـن ظلـم المجتمـع، فعـاش أحمـد الألم الأعظـم والأصغـر وكلاهمـا ألم، فالثائـر يتـألم عندمـا تخذلـه ثقافـة جمـوع مـن قاتـل لأجلهـم، فقـد أكـرم الله جيفـارا الـذي مـات ولم يستمع لـكلام الراعـي الـذي وشـى بـه، وكان دافعـه أن حـروب جيفـارا أرعبـت أغنامـه، فليسـت الأغنـام بـل مـا دونـه كالعشـب والمـاء الـذي دفـع أممًـا لخـوض حـروب أو معاهـدات صلـح مهينـة لأجلـه، وعـبَّر أحمـد عـن هـذا الوضـع بقولٍ غـير مرتجـلٍ وإن اعتقـد شـادي أنـه كذلـك.

ماذا نريد من الأمنيات

ما زلنا جهلاء لم نستكشف رغبتنا

أينما يعلو العشب الكلمات

في مصير قبيلة

يصطاد النسيان سهوب الجدبِ

وتعلو في روح الشعب المظلوم

جنات من عدم وأمنيات

تحت القبة في الخطبة من يوم الجمعة

رائحة ذنوب مهربةٍ

مفعمة بالخوف المرصود

ففي نادي المنكر

وفي حرب أبي سفيان الشعواء

وفوق عنان اللذة

كان الخوف من الله الواحد

هو الخوف من الإيمان بوعي

ففي بلاد الأحجيات النردَّية

والأمنيات الليلية

تجد خارج بيوتات القلب التائب

وخارج بيوت الله

اللص والحاكم

وضعا ذنبيهما والنعال ودخلا

ثم عادا وانفعلا بخشوع

إذا ما سافرت الصلاة

وعلى مقربة من الحياة

وفي محيط الكبوات

وفي كلَّ صباحات الخير

الموقوصة بالظلمة

كان المتمرّغ

في الجدران الرطبة

في السجن اللفظي

يخفق بالكلمات العظمي

ففي الشرق

حيث الآلام النبوية كلمات

الناس تريد لبلواها

أن توزن في الموحاتِ من الكلمات

شادي: جميل حديثك عن الأمنيات، لكن بلواي مع هموم الذكريات التي تأبى أن تفارق وتنبض كبدي بأحقادها كلَّ ليلة، فما فعله زيدان بحقي ما زال فوق صدري، فأخوات شادي ما زلن عزباوات ولم يطرُق بابهنَّ أحد إلاَّ أن أحمد خفف عنه بخفة ظله المصطنعة وخاطبة بلغة مصريَّة لا تشكيلي ولا أشكي لك، وضحكا وأكملا حديثهما تارة في الحب وأخرى في السياسة. وفي صبيحة اليوم التالي وبعد ساعة من الرياضة في ساحة السجن، قرأ أحمد لشادي وعلى غير عادته من ورقة كتبها ملخصًا فيها حديثهم عن ذكرى الهموم.

كبيرة ونخافها ذكرى الهموم

شؤومة مُدامة

وخازة للرَّوح

تُقبل سيلا عرمرمًا

تغرق حتى أعالي التمور

لا يبرح السّاعون في نسيانهم

من قبضة الذكرى اللؤوم

يتمرَّغون يتفرَّحون

يعودون للنزف القدر

فاغرة ملعونة تقتل مثل محتلٍ مرجفٍ على الدوام

يُعرف للموتى ذكراهم

ولا يُعرف أنَّ هنالك لهم حاسدين

لأنَّ الحياة العجور

ترمق السجون

وتوقظ في عصاها الصُّداع

وكلَّ ضياءٍ عن هنا محجوب

بحقد المطبقات الدَّهم المعازيب

وأنا رأيْت الوخز سربًا

في دم المصلوب في العتمات

كان يبدو جائعًا للحياة

ويمضغ البسمات يبسي

وإذا ما استجار

أجارته وثنية الأحقاد

تمضغ كبده

لحظة هو يستطب

من الآلام العابرات الصغيرة والجارة

وتستبيح صدره القاصمات الشيخ

منهنَّ الحاكمات ديار عقله

وانقشعت الهموم عن قلب شادي وأحمد بعد الزيارة الأخيرة إذ حضرت سليمة ومعها أخبار شيرا لشادي الذي فرح بها لدرجة البكاء، فما الأسر سوى لحظة يحتاجك فيها أحبابك فلا يجدونك ولا يجدون عونك لهم، ورغم غضب شادي من موقف أهله بعدم استقبالهم شيرا إلا أنه يعلم مقدار الألم الذي يعاني منه أهله.

وقرأ أحمد بعيون شادي كلُّ هذه الآلام والأحلام والتساؤلات دون أن يخبره بها بلسانه فأجابه عنها يصف له السجن ويشدُّ من أَزره ويبحث عن التقى في قلبه

أحمد: السجن يا شادي: أن تقرأ على هامش المدى

سطور الحياة حروف الألم

وتخطو على العمر مثل السنين

وتطوي الأجل

وتطوي فيك زعود الرزايا

خريفًا شحوبًا يُدمي البراعم والمُقل

ويبقى الربيع على تخوم الحياة

ويبقى الزمان جامدًا كالصنم

فاضرع إلى ربّ بكفه الأرض

ورُقاقة السماء والبَشر

فما أعدك الموت إذا ما ساوي بين البشر

وأتى بنا المنان نخلًا ليقتص لنا

ممَّن حقنوا بدمانا حديد المعتقل

ولم تمضِ أيام حتى طلب شادي من أحمد أن يجتمع إليه وأعطاه قصيدة كتبها لشيرا إلا أن أحمد رفض قراءتها وطلب منه أن يقرأها عليه.

أحمد: هات ما عندك يا غلام

شادي: غلام، غلام، اسمع:

على وسائد الضباب المعرّق بالندي

نامت ديار الخبيث يحدوها المطر

ونسيم تشرين القديم

يهزُّ أطراف المشاعر بالفرح

بالهمس أطلَّ الفجر الوسيم

يخلص بالوقار جسده من بين أغصان الشجر

الآن توقظ الشمس بضيائها الصغيرة الشمّاء

وتوقظ وحشَ الغياب في النفسِ

وأنا مشدود الوثاق والبصر

بعيونها أنسابُ أعبرُ أرضها

طائرةٌ من ورق

ودون سابق إنذار تدخل صالح بسخرية محقة بعض الشيء ما زاد من إرباك شادي وحنقه وغادر تاركًا صالح وأحمد يتجادلان.

* * *

استـمرت فاطمـة بعطـاءٍ لم يذكـره عليهـا أحـد وسـاكن نفسـها ورع عرُفـت بـه، وجاورهـا في الحـي عبـد النـاصر الـذي تـزوّج مـن غيرهـا ورزق بأبنـاء وبنـات تـردّدوا غـير مـرَّة على بيتهـا واسـتقبلتهم أحسـن اسـتقبال، وكـان عبـد النـاصر مـن تيـار إسـلامي مخالـف لهـا إلا أن فاطمـة بنفوذهـا تحـت عبـد النـاصر بشـكلٍ شـبه كامـل.

وتحـدت سُـميَّة أخـت الشـهيد عـلاء (فاطمـة) التـي ضغطـت عليهـا لإرغامهـا عـلى ارتـداء الحجـاب، وعـلى العكـس مـن إخوانهـا تمـرّدت عـلى رغبـات فاطمـة، وبعـد شـجار تلـو الشـجار معهـا ارتدتـه مـرة وخلعتـه مـرة، ومـا بـين جهـود فاطمـة وإخوانهـا مـن جانـب وعـدم مبـالاة منتهـى توصَّـلا لحـلًّ وسـط اقتـضى ارتدائهـا طاقيـة تغطـي معظـم رأسـها، واسـتفادت فاطمـة مـن سـمية لمراقبتهـا لراضيـة التـي مـا زالـت تحافـظ عـلى طقسـها المقـدس بجلوسـها قـرب المـكان الـذي كان فيـه مهـراق دم ولدهـم.

23

ودون سـابق إنـذار تناقلـت محطـات الراديـو والتلفـاز خـبر مباحثـات السـلام مـا بـين الفلسـطينيين ودولـة الكيـان، وأخـذت الأحـداث عـلى الأرض منحـى مختلفًـا، فالوطنيـون الذيـن أيـدوا هـذه المفاوضـات أثبتـوا عـلى الأرض أنهـم القـوة المسـيطرة مـن حيـث الشـعبية والتنظيـم، وانطلقـت مسـيرات مؤيدة عمَّـت المـدن والبلـدات، وشـكلت المعارضـة مـا عُـرف لاحقًـا بالفصائـل العشر لكنهـا لم تكـن بزخـم وشـعبية مـن أيّـدوا المفاوضات وأوسـلو فيما بعـد، ولم تكن في مسـتوى التحديـات، وخرجـت الجمـوع عـن بكـرة أبيهـا ترحـب بالعائديـن الذيـن حـضروا بزيهم العسـكري وأسـلحتهم الرشاشـة، وأقيمـت الاحتفالات

والمهرجانات وحتى الرحلات السياحية والتي كان هدفهم رؤية الفدائيين، وأتى موعد وصول تلك القوات للبلدة فتحضرّت البلدة لاستقبالهم، وهُجرت البلدات والقرى المحيطة عندما سماعهم خبر انسحاب قوات الاحتلال من مراكز المدن الرئيسية، واحتشد الجميع على جنبات الطرقات يشاهدون قوات الاحتلال منسحبة لأول مرّة، فذرفت دموع البعض وهتف البعض والتزم الصمت الكثيرون، كل هذا حدث في جُنح الظلام، أمَّا الصباح فقد حمل تباشير دخول عهدٍ جديد لم يعايشه الفلسطينيون من قبل ألا وهو سلطة فلسطينية وإن اختلف حول سيادتها. وفي هذا الصبح المفعم بالغرابة والمبهم في النفوس ظهرت راضية ولأول مرَّة منذ فارقها فادي شهيدًا مُزدانةً بثوبٍ مطرَّز وأنيق، آثار فضول فاطمة والتي أحسَّت منذ الصباح بشعورٍ مختلف استوقفها وكأن الحي سقط على صدرها ثقيلًا خاليًا من ساكنيه، فأرسلت في طلب سمية وطلبت منها أن ترعى شئون راضية وأن لا تغيب عن ناظريها لحظة، فحاولت سمية التمرُّد فأرعبتها فاطمة بصرامة أوامرها، فكانت راضية على غير عادتها واقفة في المكان لا جالسة تجول الحي بنظراتها العابسة، استغرقت فاطمة في شرود ذهنها وهي تقوم في شطف أطباق الطعام حتى نبهها صوت رقيق من غفلتها، كان ذلك صوت محمد الطفل اليتيم: لقد ذهب الجميع ولم يبق إلاَّ أنت في الحي.

فاطمة: وأنت لماذا لم تذهب؟

محمد: سأذهب معك بعد أن تنهي عملك.

فاطمة: إن عملي لا ينتهي.

وتذكـرّت راضيـة عـلى غـير عادتهـا فهبَّـت بفـزع وخـوف أصابهـا مـن حيـث لا تـدري ودفعهـا لتفقـد راضيـة، فنظـرت حيـث رأتهـا آخـر مـرَّة فلـم ترهـا ولم تـر سـمية، فظنـت أنهـا ذهبـت بصحبـة سـمية للاحتفـال، لكـن محمـد أخبرهـا أنـه شـاهد سـمية تذهـب لوحدهـا، وأنـه إن لم يكـن مخطئًا شـاهد راضية تسـير باتجـاه الغـرب مبتعـدة كثـيرًا، فمشـت مسـرعة نحـو الغـرب تقتفـي، أثرها ثـم عـادت لتتحقـق مـن محمـد ولا أحـد سـواه في الحـي تسـأله فأكد لهـا ووصف لهـا ثوبهـا المطـرَّز وهيئـة خُطاهـا، وبينـما هـم عـلى حالهـما هـذا مـرَّت بالقـرب منهـم قافلـة العائديـن تشـقُ طريقهـا نحـو مركـز البلـدة، وبدهشـة وانتبـاه راقب محمـد القافلـة بألوانهـا الزيتيـة الغامقـة وهـي تمـرُّ مثقلـةً بزهوهـا وسـرورهـا، وفي ذيـل القافلـة كانـت مركبـة أبـو فـادي تحـاول الانتظـام بخط سـير القافلـة فأسرع محمـد وأمسـك بحديـد المركبـة، وعـلى وجهـه ارتسـمت ابتسـامة غطّـت محيـاه، فشـاهده أبـو فـادي وكذلـك سـائقه الـذي ضاعـف مـن سرعتـه وتوقـف عمـدًا فسـقط وسـقطت أسـنانه في المـكان الـذي ارتقـى فيـه فـادي شـهيدًا، فركضـت خلفـه فاطمـة تشـتمه وتشـتم السـائق الـذي غـاب عـن الأنظـار فجعلـت لومهـا لمحمـد صُراخًـا ومـلاذ غضـب، ممـا جعلـه مدمـى خائفًـا، فسـألته بعـد أن أعياها الغضـب: لمـاذا فعلـت هـذا؟

محمد: لقد اعتقدت أنهم جاؤوا ليحررونا.

ومـا أن وُقـع اتفـاق أوسـلو حتـى أُفـرج عـن عـدد كبـير مـن الأسرى مـن ذوي الأحـكام المؤبـدة الذيـن أدينـوا بقتـل عمـلاء، أمّـا مَـن أُديـن بقتـل جنـود فلـم يُطلـق سراحـه، وأُفـرج عـن شـادي وحـده مـن أفـراد المجموعـة،

ولم يطل مكوث شادي أعزب بعد الإفراج عنه إذ اختار أن يعيش في سجن الزوجية طواعية بعد زواجه من شيرا، واختار أيضًا العيش في إحدى مدن الجنوب، وهما يعملان إلى هذا اليوم في جمعية تُعنى بحقوق الأسرى وضحايا التعذيب، واستمرت قصة عشقهما بعد زواجهما بألقٍ متميز فمضت الفصول والعشق معبَدُهُ، وتقديم العون للضحايا خلاصهم قُرباتهم، واختارا العيش الانفرادي فلم يكونا مبادرين بالتقارب الاجتماعي رغم سعادتهما به إن حَدَث، فعاشا قصة حبهما ضمن طقوس رتيبة تبدأ بقهوة الصباح وفيروز مرورًا بعناقٍ يومي في المكتب بدعوى تخفيف ضغط العمل، نهاية بالسَّهر الذي يُبقي فيه شادي عينيه مفتوحتين ما دامت شيرا لم تنم، وفي حضنها طوى شادي الوطن والبلدة وأمه وحتى سنوات عمره، فكانت له الوطن والحاضنة، فكثيرًا ما توتر فاحتضنته فهدأ وارتاح، وكثيرًا ما أراد البوح عما يجول في خاطره إلاَّ أنه تبعثر وضاعت منه مفرداته وبقي وهج عينيه ووجهه تعبيره الوحيد.

وتبقى تلاطفه كطفل، فلا تسمح له أن يتغير عن اتجاهها للحظة وهي التي درست إيماءات وإيحاءات الجسد وألوانه وطبيعته بكلَّ تفصيلاته ما سمح لها بالسيطرة عليه حُبًا وأمنًا.

شيء واحد لم تستطع أن تغيّره منه سهره ما دامت هي مستيقظة وكأنها له مدفأة في ليل شتاءٍ بارد، وعبَّر لها عن ذلك بقوله:

من خلف سور النعاس

رفعت يدي

أبدًا لن أنام وأنت معي

أعدَّي لي خيارًا يعدلُ أنس عينيك

فأنا حديثًا عرفتُ والكلام ذو المجامع في المقل

وكأنها رقصة الطير للطير على غصون العنب

الآن اطوي السنين ثلاثين طيَّة

وأرفلُ بقماطي أمام عينيك

شاغلي وحاضري حبَّك

فلا عِلمَ لي بكون هناك

سواك أرضي وشمسي

فكل الصواري التي رُفعت

أطياف عمري البريئة

لعينِيكِ لجأت

من قبضةِ الدنيا الغَضوب

من سهدِ ليل طافحٍ بجراح دهرٍ

فيا أمهر الساحرات

وزلاّتِ وحصاد الذكريات

وقولي لي أينَ ذهبتِ بقلبي والديار

فإن سال منك الدم على شظاي

هممتُ بردّ الودِ فردِّي عصف الغرام

فأنا في العشق عواصف شمسٍ

تنشر الدفء لا تعرف الكلام

فابحثي عن حُبّي بمقلتي

وزغبي ودهشتي الجلية

وخاطري المنساب من وهجٍ خفي

فإن سادَ نور طالعك فؤادي

وانساب في سهل الطباع شذاك

وشاعَ حولي عطرك وغواكَ

أسرجتُ على لساني لفارس البيان

وهيأتُ مقعدَ

وعند وثبة المقال بمقام حضرتك

سمعتُ أنينه وأخفيت رجفته

وولى مكان الصمت قهرنا

* * *

وبعـد هـذا الغـزل الـذي أثـار إعجـاب شـيرا كانـت منـى أول زائـر مـن أهـل البلـدة بعـد زواجهـا، فبعـد أن اسـتقر الحـال في السـلطة الفلسـطينية في معظـم المـدن بـاشرت السـلطة في وضـع منهـاج دراسي جديد واسـتعانت بخبرة الكثيريـن مـن المقيمين في الوطـن والخارج، وكانت منى ممن سـاهم بهذا المجهود الجبّـار بعـد أن عـادت مـن الأردن إلى فلسـطين، وكان محـل إقامتهـا في رام الله.

واسـتغلت الزيـارة لاسـتيضاح حقيقـة مشـاعر أحمـد تجاهها وتوجهاتـه الجديـدة التـي سـمعت عنهـا، ولم تُخـف امتعاضهـا مـن تحولـه مـن اليسـار إلى اليمـين رغـم أنهـا هـي أيضًـا انتقلت من صفـوف اليسـار إلى الليبراليـين إلا أنها لم تغفـر لأحمـد توجهاته الجديدة، فامتنعت عن مراسـلته وشـاهدها أحمـد ذات مرَّة وهـي تتحـدث عـبر التلفـاز عـن صعوبـات ما زالـت تعـترض المسـيرة التعليمية كتدخـل الجانـب الإسرائيـلي كـما وصفتـه في وضـع منهـاج دراسي جديـد.

* * *

أنور عليان: تعال اخرج هناك مشكلة في الساحة.

عبد الرحمن: عن أيَّة مشكلة تتحدث؟

أنـور عليـان: مَسَـكوا الأوراق إلـلي كتبتهـا، وأنـا حكيـت إلهـم مـا إلي

علاقة، وهو بلقني وأنا بنسخ.

إبراهيم بيادسة من بعيد وهو يلوّح بيده: تعالوا وما تتفقوا على الحكي بينكم، تعالوا نشوفكم.

وبعد أن اقترب أنور وعبد الرحمن من الجميع في ساحة السجن، شاهدا أوراق الرواية، والجميع ما بين غاضب أو ساخر.

إبراهيم: ممكن تحكي لي شو هذا إللّي كاتبه.

عبد الرحمن: رواية.

الحضور بيضحك هههههههه

إبراهيم: عمى يعمي ضوَّك هيك الرواية بتنكتب.

عبد الرحيم: إنت شو مزعجك، بدّي أكتب إللّي شايفه، ليش متعب راسك.

صالح أبو مخ: لأنك كاتب عنه حقه يعترض ويغضب.

عبد الرحمن: أنا ما كتبت عن حدا، هذه رواية من وحي الخيال.

ماهر يونس: أي خيال؟ خيالك خصب.

عبد الرحمن: عندك دليل إني بحكي عن حدا بذاته!

ماهر يونس: ما بدها دليل، هذه قصة إبراهيم بيادسة وصالح

وإبراهيــم أبــو مــخ وإن خربشــتها.

صالــح يـصرخ عـلى مسـتوى السـاحة: تعـال يـا زيـد شـوف أخـوك شـو كاتـب، وبعـد أن حـضرَ زيـد أكمـل صالـح: أخـوك حـرَّف كل قضيتنـا وخربشــها أكثـر مـا هـي مخربشــة.

زيـد: أنـا اعتقـدت مـن جمعتكـم إنـه أخـوي حَـرَّف القـرآن مـش قصتـك وقصة بيادسـة.

صالح: ما تفهمنا غلط، إحنا مش ضد أخوك إحنا ضد ما كتب.

زيد: احكيلي شو وين أخطأ أخوي علشان أحاسبه؟

صالـح: أخـوك دخـل شـعبان برمضـان، عمليتنـا إحنـا قبـل الانتفاضـة، وفي منطقـة جغرافيـة بعيـدة عـن أحـداث الروايـة.

إبراهيـم: أنـا بطالـب بمحاسـبته، وبرفـع عليـه شـكوى تنظيميـة بشـكل رسـمي.

عبد الرحمن: حقك، وأنا بطالب بنفس الشيء.

أنور عليان: والله ما هي مستاهلة، خلينا نحلها بالحوار.

صالح: إذا الطرفين راضين بمحاكمة تنظيمية فلتكن محاكمة تنظيمية.

زيد: علشان تعرف عن مين تكتب يا شاطر.

إبراهيم: يوم الخميس القادم وعلى مستوى الساحة موعد المحاكمة.

وانفضَّ المجلس وتحوّل كل مكان في الساحة لمجلس بعد أن انشغل الجميع بالحدث وما تناقلوه بزيادة متصاعدة، فاليسار تحدَّثوا عن إساءة متعمدة تضمنتها الرواية لجميع رموز اليسار، والوطنيون تحدثوا عن تحامل على العائدين ورجال السلطة، أما الإسلاميون فتحدثوا عن هرطقة وإغفال عن دور الإسلاميين في جميع محاور الرواية.

حاول أنور إقناع عبد الرحمن خلال مرافقته بالساحة على كتابة توضيح أو اعتذار عن كل ما غفل عنه أو عن أي إساءة غير مقصودة، وحثه أن يكون غير حاد برده وأجوبته حتى يتجنب عقوبة قاسية بحقه.

أنور عليان: هؤلاء عتاولة العمل التنظيمي في صفوف الحركة الأسيرة، علشان هيك اكتب يا إنسان وحضِرّ وما تظلَّك هيك لا مُبالي لأنك رَح توَرّطني معك.

عبد الرحمن: ما بدّي أكتب ولا شيء وأعلى ما في خيلهم يركبوه.

أنور: يا حبيبي هذا الكلام في إساءة لرموز وطنية أمضوا حياتهم في الأسر، وأنا منسحب.

وإلى يوم الخميس مضى شعور عبد الرحمن خائبًا رغم محاولته المتكررة بعدم اللامبالاة.

وقبل يوم الخميس أرسل إليه صالح وماهر يونس رسالة مع أخيه زيد، مزق كل شيء واعتذر عما كتبت وسنختار لك عقوبة ليست بالقاسية.

أمـا أنـور عليـان فقـد اختار لنفسـه عقوبـة الاعتـذار عما كتـب، والتجميد لمدة عـام، رغـم اعتـذاره والتزامـه بأوامر المحكمة سـاعة النطق بالحكم.

عبـد الرحمـن: لـن أقبـل بمحاكمتكـم حتـى لـو حكمـت بـبراءتي، وأنـا ألتـزم بالمثـول أمامهـا لأن هـذا عُـرف اعتقـالي.

صرخ أحـد الأسرى القائمـين عـلى تمثيـل المعتقـل أمـام الإدارة وداخـل السـاحة، يدعـو الجميـع للتجمهـر والتـزام الصمـت حتـى تُنهـي المحكمـة مداولتهـا وإصـدار حكمهـا عـلى المـلأ ووضعـت سـجادات الصـلاة عـلى الطـاولات وفوقهـا المصحـف، وجلـس خلفهـا عضـوان مـن حركـة فتـح وعضـو مـن حمـاس وآخـر مـن الجهـاد الإسـلامي واثنـان مـن اليسـار الشـعبية والديمقراطيـة، وكان ممثـل الديمقراطيـة أكثرهـم حنقًـا عـلى عبـد الرحمـن فقـد صرَّح قبـل مجيئـه أنـه سيصوت عـلى جلـده بحجـة أنـه أسـقط مـن كتاباتـه مآثـر الجبهـة الديمقراطيـة في مراحـل نضالاتهـا المتتاليـة وداخـل الأسر، وبعـد أن انتظـم جلـوس القضـاة وقبلهـم الحضـور، تحـدث القـاضي الفتحـاوي مـروان:

الأسـير عبـد الرحمـن أنـت كمتّهـم ولا أقـول مُتهـم بـشيء خطـير مـن حقـك الدفـاع عـن نفسـك أو أن تنتـدب مـن يُدافـع عنـك.

عبد الرحمن: سأفعل بنفسي.

مـروان: جيـد، فلنبـدأ عـلى بركـة الله. لقـد بـدأت روايتـك بتسـليط الضـوء عـلى مجموعـة مـن الأطفـال حاولـت مـن خلالهـم استعراض أحـداث جـرت، فـلا أنـت أوصلـت لنـا معلومـة دقيقـة عـن هـذه البلـدة أو عـن اسـمها

أو أين تقع، ولا عن هذه المجموعة من تكون؟ وأين انتهى بها المآل، أجب لو تفضلت عن هذه الأسئلة.

عبد الرحمن: هذه البلدة موجودة وليست من وحي الخيال _فحدثت جلبة_ تحدث خلالها ممثل اليسار، ولكنك قلتَ إنها من وحي الخيال!

مروان: لا أحد يتكلم ما لم أسمح له وإلا أخرجته خارج المحكمة.

زيد: أخ مروان، تنويه: نحن في الخارج، ونجلس في ساحة السجن والمفروض أن يتم إدخال من يحدث الفوضى إلى داخل الغرف.

مروان يعطي الإذن لعبد الرحمن لإكمال حديثه.

عبد الرحمن: هذه البلدة موجودة حقيقة في هذا العالم.

مروان: وماذا كان اسمها في الرواية؟

عبد الرحمن: كان اسمها فلسطين، أمَّا المجموعة التي سكنت في ربوعها فهم أهل فلسطين.

مروان: وماذا عن الإقطاع، هل موجود حقًا بنظرك؟

عبد الرحمن: وبأشكال عديدة وعقلية واحدة.

مروان: هل تعتبر نفسك كنت موفقًا بسردك وانتقالك من مشهد لآخر ومرحلة وأخرى خلال فصول الرواية؟

عبد الرحمن: لا.

مروان: ولماذا لا؟

عبـد الرحمـن: لأني أكتـب كـما تكتـب لي الحيـاة رزاياهـا، أكتـب وأنـا مشـدود الوثـاق والبـصر لواقـع لا يمنحنـي لحظـة مـن تجـل أو أيـة صُـور.

الشـيخ رأفـت (قـاضي حمـاس): هـل اختـصرت دور الإسـلاميين، وأقصـد الإخـوان وحمـاس فيـما اعتبرتـه نشـاطًا اجتماعيًـا مبدعًـا!

عبـد الرحمـن: لقـد اعتقـدت يـا شـيخ رأفـت ستسـألني عـن كثـرة الحـب والغـزل خـلال فصـول الروايـة، خصوصًـا غـزل شـيرا بشـادي في مكتـب عيزرا والـذي اعتقـدت أن نفـسي تجـرَّأت عـليّ، لكنـك تحدثـت عـن الشـق السـياسي وأنـا أقـول لـك لا، ولم أختـصر دورهـم في المجـال الاجتماعـي وقلـت إنهـم أعطـوا زخمًـا للانتفاضـة وللنضـال الفلسـطيني بشـكل عـام. وفي المحصلـة هـذه الروايـة مجـرد محاولـة لا أكثـر مـن ضمـن محـاولات مـن المفـروض أن تكمـل بعضهـا البعـض.

الشـيخ رأفـت: وعـما قالتـه شـيرا إنهـا تحيـا مـا منحتهـا يـد محبوبهـا الحيـاة وتمـوت متـى شـاءت يـداه.

عبـد الرحمـن: هـذا الحديـث عـن دميـة في مـسرح، دميـة تحركهـا خيطـان العـارض وتكـفَّ عـن الحركـة بمجـرّد مـا كفَّـت يـداه عـن فعـل ذلـك.

محمـد طحاينـة (القـاضي عـن الجهـاد الإسـلامي): قُـل لي والإجابـة لا تقبـل التأويـل، هـل تعتـبر نفسـك عضـوًا فاعـلًا في الجهـاد الإسـلامي؟

عبد الرحمن: نعم.

طحاينة: ولماذا لم نرَ ذلك من خلال روايتك، أم أنكَ تخجل من قول ذلك؟

عبد الرحمن: أنت قلت لي أكثر من مرة علينا أن لا نسوّق ذاتنا وأحزابنا على حساب فلسطين، وتريد أن تحاكمني لأنني تخليت عن حزبيتي عندما كتبت عن فلسطين.

مروان: ما اسم روايتك؟

عبد الرحمن: بلاط الرَّعيان.

إبراهيم بيادسة مقاطعًا، لا يوجد في روايتك شيء مفهوم حتى العنوان.

عبد الرحمن: هذه الرواية دارت أحداثها في الشارع يوم تحول هذه الشارع لبلاط شعبي حققت فيه الجموع شيئًا من سيادتها، ومثلت هذه الجموع أسرى الرُّعاة الذين رعوا الحق وانبروا للمواجهة بعد أن خلعوا عن عاتقهم جميع المفاهيم البالية والأشكال الاجتماعية والألقاب الزائفة وأمسكوا بالحجارة كما يفعل الرعيان، وألقوا بها على من تجرأ على حماهم، فصار بائع الكعك ومعلم المدرسة والسائق والطالب جميعهم رُعاة يرعون الحق بقبضات أيديهم وحجارتهم الصغيرة.

كميل أبو حنيش (القاضي عن الجبهة الشعبية): أنت كتبت عن مجموعة من أهم مجموعات اليسار وأكثرها جدلًا، ولم تلجأ إلينا أو

تستوضح منّا وفعلت هذا بطريقة غير منظمة وتفتقد إلى المهنية، فلا تعتقد أننا سنسمح أن يمر هذا دون محاكمة لك؟

عبد الرحمن: أنا كتبت عنها كيفما كتبت، لكن أنت لم تكتُب عنها أو تذكرها في كتاباتك.

إبراهيم بيادسة: وقد استفزه كلام كميل، شكرًا له عن كلّ ما كتب، وشكرًا له على أخطائه فهو رغم كثرة أخطائه أفضل من غيره، وأنا أُسقط ادعائي عليه.

عبد الرحمن: وأنا لا أريد منك أن تُسقط ادعاءك عليَّ، وأفضل العقوبة مهما كانت على أن تتفضل عليَّ بشيء يا إبراهيم.

مروان: المحاكمة وطنية ولا يوجد فيها اعتبارات شخصية ولا يستطيع بيادسة إسقاط أو إثبات حق له أو عليه، ثمّ استدرك مروان: يُفهم من كلامك يا سيد عبد الرحمن أنَّ الشعب الفلسطيني جميعه كان مع صدَّام عندما قام باحتلال الكويت وهذا بنظري غير صحيح، فالشعب الفلسطيني بمجمله ضد احتلال الكويت، وقد أُجبر أبو عمار على إعطاء موقف يومها إجبارًا.

عبد الرحمن: ما تقوله عن موقفنا المعارض من احتلال الكويت هذا في يومنا الحالي، أما بالأمس فقد كان العكس باستثناء الجهاد الإسلامي.

مروان: كررت عبارة شعب أعزل، والشعب الفلسطيني اختار الكفاح المسلح منذ بداية الثورة، ما ردَّك؟

عبد الرحمن: أنا قصدت بالشعب الأعزل من عاشوا داخل جغرافية الأرض المحتلة المعزولة ولم يعرفوا عن التسليح بكافة درجاته شيئًا، فكنت أراهم وهو يرشقون الحجارة ورؤوسهم وقاماتهم عالية، وعندما كانوا يسمعون صوت الرصاص ينخفضون على عجل، وعندما كانت الرصاصة تصيب أحدهم في مقتل كانوا يعتقدون بأنه تأخر بالانخفاض، أليس هذا بشعب أعزل؟! وأقول أيضًا لكل من اتهمهم بأنهم أيدَّوا احتلال شعبٍ آخر أن يستحضروا هذا المشهد على الدوام فيتذكروا الإحباط والحدة في الميدان التي عايشها شعبنا لسنوات طوال، وفي خضم هذا الإحباط كله استعرض حينها صدَّام أمام عيونهم صواريخ الحسن والحسين وكان الواحد منها بطول شاحنة فطار الشعب الفلسطيني فرحًا بالتحرير الذي وعدهم به صدام.

وجدي (القاضي عن الديمقراطية): هل سمعت قبل اليوم عن شهيد يُقال له عمر القاسم أو عن بطولات النجم الأحمر؟

عبد الرحمن: سمعت، ولكنَّ أحداث الرواية دارت بعد استشهاد الرفيق عمر القاسم، واستخدام الكاتب كلمة يسار للإشارة إلى كلتا الجبهتين.

مروان: أرى أن المحاكمة معتلَّة بالسياسة التي أنستنا أننا نحاكم عملًا أدبيًا، فكان علينا أن نركز على قضايا مثل الاختصار المُخل الذي اشتهرت به الرواية، والتكرار لبعض المفردات وعدم الإقناع.

عبد الرحمن: أشعر وكأني بروايتي هذه دنسّت كلّ مقدسات العالم حتى حظائر البقر في الهند.

مـروان: هـذا لا يفيـدك، مـا قولـك أنـك تحاملـت بروايتـك كثيرًا عـلى العائديـن.

عبـد الرحمـن: العائـدون عملـت معهـم أربـع سـنوات كانـت أجمـل سـنوات عمـري، عندمـا انضممـت إلى صفـوف الأمـن الوطنـي، تحديـدا في جهـاز الارتبـاط العسـكري ولمسـت فيهـم عـزّة وشـموخًا كانـوا يبدونهـا عـلى الـدوام خـلال لقاءاتهـم بالإسرائيليـين، وأبـدوا في لقاءاتهـم نديَّـة وعـزَّة نفـس منقطعـة النظـير مصدرهـا التعبئـة المسـتدامة في معسـكرات المنـافي والبعـد عـن الخضـوع للمحتـل وغطرسـته، وحافظـوا أيضًـا عـلى مسـاحة محـددة في التعامـل مـع الإسرائيليـين فلـم يسـمحوا لأنفسـهم أو غيرهـم باجتيـاز هـذه المسـافة، أمـا أن جميعهـم مثاليـون فهـذا يتناقـض مـع فكـرة الروايـة التـي اعتـبرت أن كل مجتمـع أو نسـقٍ أيًّـا يكـن تجـد خلالـه الحسـن والسـيء وبنسـب محـدَّدة، ولا توجـد أيـة مثاليـة مُطلقـة في هـذا العـالم سـوى في كتـب الديـن والتاريـخ التـي خطتهـا أيـدي المناصريـن والمعارضـين.

مـروان: كان يجـدر بـك أن تتكلـم عـن فـترة التحـولات الفكريـة، ومـن انتقلـوا مـن صفـوف فتـح واليسـار إلى صفـوف الجهـاد وحمـاس، ولم تـأتِ عـلى ذكـر واقـع وخلفيـات هـذا الفئـة بموضوعيـة، فمنهـم مـن كان منبـوذًا في صفـوف الوطنيـين منهـم مـن عـاش مخادعًـا لهـم، ومنهـم مـن تحـوَّل لغايـة مشـبوهة دفـع الإسـلاميون ثمنهـا.

عبـد الرحمـن: ولمـاذا لا تقـول أنهـم كانـوا مضطهديـن، مقموعـين، يخافـون بطشـكم بهـم.

ماهر: حديثك في الرواية عن إبراهيم بيادسة (أحمد) أظهره على أنه إنسان متذبذب تارة في اليسار وأخرى في اليمين، ويصبح سلفيًا ويمسي شيعيًا حتى إنك لم تُقنعنا بكيفية حدوث ذلك.

عبد الرحمن: هذه حقيقة فقد كان في صفوف اليسار وتحول إلى صفوف الإسلاميين بعد أن أثّرت فيه كتابات سيد قطب رحمه الله، ولم يخف سلفيته في بداية الأمر ومثله كثير ممن جاؤوا من قعر الإلحاد واختاروا السلفية وتحديدًا تكفير وتحقير المخالفين، وبقي إبراهيم كذلك إلى أن أثرت به كتابات محمد الغزالي وعلي شريعتي وهو اليوم يُخفي توجّهاته الزيدية، أمَّا أني لم أكن مقنعًا في شرح مراحل تحولاته الفكرية فقد كان هذا عمدًا، فلو أني فعلت هذا لكنت مُنظرًا للشيعة وهذا عمل فيه عدم مسئولية، وغير مفيد فنحن نحيا ما يكفي من تناقضات وفتن في عالمنا الإسلامي.

كميل: ما هو الحقيقي وما غير الحقيقي في روايتك؟

عبد الرحمن: جميع أحداثها حقيقية، ولكنها مجمعة بأشخاص غير حقيقيين.

وجدي: يخرب بيتك، دخّلتنا في حالنا، من دقيقتين حكيت بيادسة هو أحمد.

عبد الرحمن: أحمد؟! محمود درويش رمز بأحمد العربي لجميع الفدائيين الفلسطينيين.

مروان: ستصدر المحكمة حكمها بعد المداولة مباشرة.

أنـور: اسـمع، أنـا لـن أقبـل بالعقوبـة التـي عرضهـا عليَّ صالـح وماهـر، وعـلى العكـس تمامًـا أنـا مـن أطالـب باعتذارهـم لي.

عبـد الرحمـن: الله يُسـتر مـا يحكمـوا علينـا بالإعـدام وحـرق أجسـادنا وذر رمادهـا في أعـالي البحـار كـما فعلـوا بأيخـمان.

أنور: بدون سخرية، وصحصح.

عـاود القضـاة التموضـع في أماكنهـم وعـمَّ السـكون لسـماع النطـق بالحكـم الـذي تـلاه مـروان: بعـد المداولـة ودراسـة فصـول الروايـة تبـيَّن أن الروايـة ناقصـة لكـن الكـمال لله وحـده، وهـي جهـد مُبـارك قـام بـه أخ لنـا رغـم صعوبـات جمـة أحاطـت بـه مـن كلّ جانـب، كـما تشـكر المحكمـة أخانـا أنـور عليـان الـذي قـام بنسـخ أوراق هـذه الروايـة، كـما تـوصي المحكمـة الجهـات المعنيـة بطبـع هـذه الروايـة، روايـة الرَّاعـي أحمـد.

انتهت فصول الرواية

بلاط الرُّعيان

أطول الأحاسيس

التي نطقت

في كلّ مناسبة

رائحة المرعى

وراعٍ صغير

وبردٍ بلا رحمة

يحضرُ بلا دعوة

لكل مناسبة

يحمل الذكرى

برجولة المرعي

ومرارة الرائحة العشبية

وشمس المراعي

كانت مدينتي مرعى

ومرعاي بلاطًا ملكيًا

حتى في حضرة بلاط الملك

كان بلاط الرَّعيان

حتى في شمس الأعياد

فكل راعٍ له بلاط

بائع الكعك راعٍ

وله بلاط

وللحصَّاد

والحداد

والمنشدين للغمام

مرعاهم الأول

ضوءُ حياتهم

وسلطان ذاتهم

ينسلون إليه

بروعةٍ وإمعان

يتولوَّن للمرعى

ويشكرون الله

من تعبٍ

ومن بُعدٍ

شكر موسى

يفرُّون فرارهُ

من القهر

من الفرعون

من جوع شعب

ترعى غنمة الذئاب

وبقرُهُ سودٌ عجاف

وأشرق لحنُ المراعي

واشتعلت نار الضحى

فهرعوا وفي آذانهم

لحنُ شبَّابةٍ

وصوت طيور أبابيل

ترمي بحصاها إبليس

فتخبو نيرانُ الغرباء

وتعلو أصوات الأجراس

وهم يغادرون أجسادهم

إلى عالم المجد

تحرّرهم من خوفهم

محبة السماء

وقضايا الأنبياء

فما أخرجهم

جوع نبي للثورة حرَّضهم

للقمح المزروع بحقول الموت

وجههم، فساروا

بمحاذاة الأعياد

والعيش للممكن وعِزّتهم.

» تعريف بالكاتب الأسير

- **الاسم:** أحمد إبراهيم أحمد بسيسي.
- **مكان الإقامة:** بلدة رامين – محافظة طولكرم.
- **تاريخ الميلاد:** 1979/08/01م.
- **الحالة الاجتماعية:** متزوج.
- **عدد الأبناء:** 1.
- **الإعتقالات:** 1.
- **تاريخ الاعتقال :** 2004/01/18م.
- **الحكم:** 25 عامًا .

الشهادات التعليمية:

- بكالوريوس تاريخ – جامعة الأقصى.

» في هذه الرواية

تحليل شخصية القيادة الفلسطينية وفق الخلفيات والنزاعات التي سبقت انتمائهم للثورة، فمن هؤلاء القيادة من كان مسلمًا أو مسيحيًا ومنهم اليساري والفلاح والإقطاعي والبدوي، جميع هؤلاء قاتلوا من أجل القضية، وفي مرحلة أخرى عكسوا ميولهم ونزعاتهم وحتى موروثاتهم الدينية على القضية، ولم نعد نعلم من هو الوطني والثابت من الحزبي والفئوي، وكثيرًا ما تصبح هذه المبادئ الحزبية والعادات الأسرية التي عكست ميولها على الثورة ثوابت، وتصبح الثوابت في نظر هذه الأحزاب الأسرية أمرًا قابلاً للتفاوض، وهؤلاء القيادة صاغوا عبر الزمن الماضي مبادئهم هذه بعبارات مُثلى غطت على ميولهم التي ألصقوها بالثورة، وأرهبوا منتقديهم بكلماتٍ عظمى لو اجتمع كلُ ثوار العالم ما تلفظوا ولو بجزء منها.